تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة

دكتور يوسف القرضاوي

في الطريق إلى الله

(٤)

التوبة إلى الله

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

في الطريق إلى الله

(٤)

التوبة إلى الله

تيسير فقه السلوك في ضوء القرآن والسنة

دكتور يوسف القرضاوي

في الطريق إلى الله

(٤)

التوبة إلى الله

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة - تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الرابعة

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٦م

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة وهبة (للطباعة والنشر) . غير مسموح بإعادة نشر أو إنتاج هذا الكتاب أو أي جزء منه ، أو تخزينه على أي أجهزة استرجاع أو استرداد إلكترونية ، أو ميكانيكية ، أو نقله بأي وسيلة أخرى ، أو تصويره ، أو تسجيله على أي نحو ، بدون أخذ موافقة كتابية مسبقة من الناشر .

All rights reserved to Wahbah Publisher. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of the publisher.

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة ، ت : ٤٨٢٧٨٥١٠

من الدستور الإلٰهى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

---

(١) التحريم : ٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــــدمة

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، كما ينبغى لجلال وجهه ، وعظيم سلطانه ، والصلاة والسلام على معلـــم الناس الخير ، وهادى البشرية إلى الرشد ، وقائد الخلق إلى الحق ، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ، سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا : محمد بن عبد الله ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين ٠

أما بعد

فهذا هو الجزء الرابع من هذه السلسلة : فى الطريق إلى الله ، وهو يتعلق بمنزلة عظيمة من منازل الســـائرين إلى الله ، والسالكين طريقه تبارك وتعالى ، وهى : التوبة ٠

ومن علماء السلوك من يقدم التوبة على غيرها من منازل السالكين ، ومقامات الصالحين ، كما فعل الإمام الغزالى فى كتابه (منهاج العابدين) ، حيث جعل (عقبة التوبة) هى العقبة الثانية بعد (عقبة العلم) الذى اعتبره أول ما يجب عبوره واجتيازه لمن ينبغى الوصول إلى الله تعالى ، أى إلى رضوانه وحسن مثوبته ٠

وفى (الإحياء) جعل للتوبة الكتاب الأول من (ربع المنجيات) ،ولكنى فى هذه السلسلة لم ألتزم ترتيبا معينا ، إنما أقدم للنشر ما يفتح الله تعالى علىّ بإنجازه ، وقد يمكن ترتيبها فيما بعد ترتيبا منطقيا ٠

إن علم التوبة : علم مهم ، بل ضرورى ، والحاجة إليها ماسة ، وخصوصا

فى عصرنا ، وقد غرق الناس فى الذنوب والخطايا ، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم ، وتكاثرت عليهم المغريات بالشر ، والمعوقات عن الخير . وتكالبت على صدهم عن سبيل الله ، وإغرائهم بسبل الشيطان : وسائل جهنمية ، وأجهزة جبارة ، تُقرأ وتُسمع وتُشاهد ، وتؤثر بالصوت وبالصورة وبالنغم واللحن ، وبالتمثيل والتهويل ، وتعاونت على ذلك شياطين الإنس والجن ، وأعداء الداخل والخارج ، وساعد على ذلك الأنفس الأمارة بالسوء ، وركونها إلى الدنيا ، ونسيانها للموت ، وللحساب ، وللجنة والنار ، وغفلتها عن ربها وخالقها الواحد القهار ، فلا عجب إذا أضاعوا الصلوات واتبعوا الشهوات ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وفرطوا فى حدود الله ، وحقوق الناس ، واستمرؤوا أكل أموال الناس بالباطل ، ولم يبالوا بما كسبوا من مال : أكان من حلال أم من حرام .

ألا ما أحوج الناس إلى نذير يصرخ فيهم : أن أفيقوا من سكرتكم ، وانتبهوا من رقدتكم ، وثوبوا إلى رشدكم ، وتوبوا إلى ربكم ، قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم .

فى هذا الجزء اجتهدنا أن نوقظ القلوب الغافلة ، ونرد العقول الشاردة ، ونقوى العزائم المسترخية ، وأن نبين للناس أهمية التوبة وضرورتها وفضلها ، ووجوب فوريتها ، ونبين مقوماتها وأركانها وأهم أحكامها ، كما نبين ثمراتها ومكاسب التائب من ورائها فى الدنيا والآخرة ، كما بينا الموانع منها ، والعقبات فى طريقها ، ثم البواعث عليها ، وقد أطلنا فى ذلك لشدة الحاجة إليه فى عصر الشهوات والغفلات والشبهات .

ولقد اهتم علماء السلوك جميعا بالتوبة وتحدثوا عنها ،عن حقيقتها وأركانها وشروطها : من أبى القاسم الجنيد وأبى سليمان الدارانى وذى النون المصرى ، ورابعة العدوية ، وغيرهم .

وكذلك المؤلفون فى السلوك : من المحاسبى إلى المكى إلى القشيرى إلى الغزالى ، إلى ابن القيم إلى من بعدهم .

ولقد بيَّن الإمام الغزالى فى مقدمة كتاب (التوبة) من (الإحياء) أن

التوبة عن الذنوب - بالرجوع إلى ستار العيوب وعـــلام الغيوب - مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول أقدام المريدين ، ومفتاح استقامة المائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقرّبين ، ولأبينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين . وما أجدر بالأولاد الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب الآدمـــي واجترم ، ومن أشبه أباه فما ظلم ، ولكن الأب إذا جبر بعدما كسر ، وعَمَر بعد أن هدم ، فليكن النزوع إليه فى كلا طرفى النفى والإثبات ، والوجود والعدم ، ولقد قرع آدم سن الندم ، وتندم على ما سبق منه وتقدم ، فمن اتخذه قدوة فى الذنب دون التوبة ، فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب الملائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلافى سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع فى الشر ضرورة الآدميين؛ فالمتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الديان ، والمتجرد للشر شيطان ، والمتلافى للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ؛ فقد ازدوج فى طينة الإنسان شائبتان، واصطحب فيه سجيّتان ، وكل عبد مصحح نسبه ، إما إلى الملك ، أو إلى آدم ، أو إلى الشيطان ؛ فالتائـب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملازمة حد الإنسان ، والمصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى الملائكة بالتجرد لمحض الخير فخارج عن حيز الإمكان ؛ فإن الشر معجون مع الخير فى طينة آدم عجنا محكما ، لا تخلصه إلا إحـدى النارين : نار الندم ، أو نار جهنم » .

ولقد كان عمدتى ومرجعى الأول : كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، ثم ما جاء عن سلف الأمة . وقد اجتهدت ألا أعتمد على حديث ضعيف فى حكم أو توجيه ، وأن أبين من أخرج الحديث ودرجته باختصـــار ، فما لم يكن صحيحا ولا حسنا لا آخذ به ، ولو كان فى الترغيب والترهيب ، وإذا ذكرته فللاستئناس لاغير ، أو أكون ناقلاً له عن غيرى ، مبينا ضعفه غالبا .

هذا ، وقد انتفعت فى هذا البحث بجملة كتب وخصوصا لعلماء السلوك ، أهمها كتابان أساسيان :

أولهما : كتاب (مدارج السالكين شرح منازل الســـائرين إلى مقامات ﴿ إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ للإمام أبى عبد الله شمس الدين ابن قيـــم الجوزية ، الشهير بـ (ابن القيم) وفيه أبدع وأجاد ، بقلم الأديب البليغ المتدفق ، وروح الداعية المربى المحلق ، ووجدان الربانى العارف المتذوق ، ونظر الفقيه الأصولى المتعمق ، وتجريد الموحد الصادق المحقق ، وهو حين يطلق لقلمه العنان ، يتدفق تدفق السيل الهادر، ويموج موج البحـر الزاخر ، ويورد الأوجه ، ويوضح الأسباب ، ويبين الأحكام ، ويشرح الحقائق .

وقد استفدت منه كثيرا ، ونقلت كلامه بنصه فى كثيرمن المواضع .

كما نقلت من كتابه (الداء والدواء) فى بيان أثر المعاصى .

والثانى : كتاب (إحياء علوم الدين) وهو الموســوعة الشــهيرة فى علم السلوك ، وهو يشتمل على أربعين كتابا مقسمة إلى أرباع أربعة،كما هو معلوم : ربع العبادات ، وربع العادات ، فربع المهلكات ، وربع المنجيات ، وأول كتاب فى ربع المنجيات ، هو كتاب التوبة .

والغزالى فقيه أصولى منطقى مرتب الفكر ، تعتمد تصانيفه على حسن التقسيم والتبويب ، وترتيب الأفكار ، وضرب الأمثال ، وروعة الأســلوب ، وقد استفاد منه كل من بعده ، كما استفاد هو ممّن قبله - وخصوصًا (قوت القلوب لأبى طالب المكى) .

وقد اقتبست منه كثيرا من الأفكار،كما نقلت كلماته بنصها فى بعض الأحيان .

أسأل الله الكريم أن ينفع بهذه الصحائف : كاتبها وقارئها وناشرها ، وكل من أسهم فيها بجهد ، لترجع القلوب إلى ربها ، كما أسأله سبحانه أن يتوب علينا توبة نصوحًا ، يكفر بها سيئاتنا ، ويرفع بها درجاتنا ، ويدخلنا بها جنات تجرى من تحتها الأنهار ﴿ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

الدوحة : صفر الخير ١٤١٨ هـ

يونيو ١٩٩٧ م

يوسف القرضاوى

(١) التحريم : ٨ .

وجوب التوبة وفضلها

- وجوب التوبة وضرورتها .
- التوبة من النفاق .
- التوبة من الكبائر .
- التوبة من كتمان الحق .
- توبات الأنبياء فى القرآن .
- التوبة فى السنة النبوية .
- هل تجب التوبة من الصغائر ؟
- وجوب التوبة على الفور .

وجوب التوبة وضرورتها

التوبة من الذنوب التى يقع فيها المؤمن - وهو فى طريقه إلى الله - فريضة دينية لازمة ، أمر بها القرآن الكريم ، وحثت عليها السنة النبوية ، وأجمع على وجوبها العلماء جميعا : علماء الظاهر ، وعلماء الباطن ، أو علماء الفقه ، وعلماء السلوك ، حتى قال سهل بن عبد الله : من قال : إن التوبة ليست بفرض ، فهو كافر ، ومن رضى بقوله فهو كافر ، وقال : ليس من الأشياء أوجب على هذا الخلق من التوبة ، ولا عقوبة أشد عليهم من فقد علم التوبة ، وقد جهل الناس علم التوبة (١) .

التوبة فى القرآن :

ولقد عنى القرآن بالتوبة أبلغ العناية فى آيات كثيرة من سوره المكية والمدنية ، ستمر بنا فى مواضعها إن شاء الله ٠

توبوا إلى الله توبة نصوحا :

ومن أبرز ما جاء فى القرآن قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

وهذا آخر نداء إلهى للمؤمنين فى القرآن، يأمرهم بالتوبة إلى الله توبة نصوحا :

---

(١) ذكره أبو طالب المكى فى (قوت القلوب) جـ ١ ص ١٧٩ ٠

(٢) التحريم : ٨ ٠

خالصة صادقة ، والأمر من الله تعالى فى كتابه العزيز يدل على الوجوب ، ما لم يصرف عنه صارف ، ولا صارف هنا ، وذلك ليكونوا على رجاء أمرين أو هدفين أساسيين ، يسعى إلى تحقيقهما كل مؤمن ، وهما :

١ - تكفير السيئات ٠

٢ - ودخول الجنات ٠

وكل مؤمن فى أمس الحاجة إلى هذين الأمرين : أن تكفر سيئاته ، وتغفر ذنوبه ، ولا يخلو إنسان من أن تكون له سيئات وذنوب بمقتضى التكوين البشرى ، الذى امتزج فيه عنصران مختلفان : عنصر طينى أرضى ، وعنصر روحى سماوى ، فأحدهما : يشده إلى أسفل ، والآخر : ينزع به إلى أعلى ، الأول يمكن أن يهبط به إلى حضيض الأنعام أو أضل سبيلا ، والآخر : يمكن أن يرقى به إلى أفق الملائكة ، وربما خير مقيلا ٠

من أجل هذا كان كل إنسان عرضة لأن يسىء ويذنب ، وكانت حاجته إلى التوبة النصوح ، لتكفير ما بدر منه من سيئات ٠

والأمر الآخر : دخول الجنات ، ومن ذا الذى يستغنى عن دخول الجنات ؟ فأهم ما يشغل المؤمن هو مصيره الأبدى ، هذه قضية المصير الأولى للإنسان : أينجو يوم القيامة أم يهلك ؟ أيفوز ويسعد أم يخيب ويشقى ؟ والنجاة والفوز والسعادة فى الجنة ، والهلاك والخيبة والشقاوة فى النار ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ، وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾(١) .

توبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون :

ومما جاء فى القرآن عن التوبة قوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ المؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٨٥ ٠ (٢) النور : ٣١ ٠

وفى هذه الآية أمر الله جميع المؤمنين أن يتوبوا إليه ، لم يستثن منهم أحدا ، مهما علا كعبه فى الاستقامة ، ومهما ارتقى فى سلّم المتقين ، فهو فى حاجة إلى التوبة . فمن المؤمنين من يتوب من الكبائر إذا ألمّ بها ، وهو ليس بمعصوم . ومنهم : من يتوب من صغائر المحرمات ، وقل من يسلم منها . ومنهم : من يتوب من الشبهات ، ومن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه . ومنهم : من يتوب من المكروهات . بل منهم : من يتوب من الغفلات تعترى القلوب.ومنهم : من يتوب من الوقوف عند حال أدنى ، حيث لم يرتق إلى ما هو أعلى .

فتوبة العوام ، غير توبة الخواص ، غير توبة خواص الخواص ، ولهذا قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ! ولكن الجميع مطالبون فى الآية الكريمة بالتوبة لعلهم يفلحون .

ويعلق صاحب القاموس على هذه الآية فى كتابه (البصائر) فيقول : هذه الآية فى سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان ، وخيار خلقه : أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم ، وصبرهم وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة (لعلكم تفلحون) تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجى ، إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون .

وقال بعض علماء السلوك : التوبة واجبة على الكل ، حتى الأنبياء والأولياء ، فلا تظن أن التوبة اختصت بآدم عليه السلام ، حيث قال تعالى : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١) .

بل هو حكم أزلى مكتوب على جنس البشر ، لا يمكن فرض خلافه ، ما لم تتبدل السنة الإلهية التى لا مطمع فى تبديلها ، فالرجوع - يعنى التوبة إلى الله فى حق كل إنسان يكون ضروريا ، نبيا كان أو غبيا ، وليا أو غويا ، يقول أبو تمام :

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ .

فلا تحسبن هنداً لها الغدر وحدها سجية نفس ، كل غانية هند !

ويشير إليه حديث « كلكم خطاؤون ، وخير الخطائين التوابون » رواه أحمد وغيره عن أنس . وكما أنها – أى التوبة – واجبة على الجميع ، هى واجبة فى كل حال ، أى على الـــدوام ، وذلك لعمـــوم الأدلة ، كقوله تعالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا ﴾ وذلك لأن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه ، إذْ لم يخل عنها الأنبياء ، والأخيار ، كما ورد فى القرآن والأخبار من خطاياهم وتوبتهم وبكائهم .

فإن خلا أحد فى بعض الأحوال عن معصية الجوارح ، فلا يخلو عن الهم بالذنوب فى القلب ، فإن خلا عن الهم ، فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله ، فإن خلا عنه ، فلا يخلو عن غفلة وقصور فى العلم بالله وبصفاته وأفعاله ،وكل ذلك نقص وله أسباب ، وترك أسبابه بالتشاغل بأضدادها رجوع عن الطريق إلى ضده ، وإنما يتفاوتون فى مقادير النقصان لا فى أصله [1] .

* * *

ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون :

وقال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ ، وَلاَ نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ ، وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ، وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [2] .

فبعد أن نهى الله المؤمنين عن الســـخرية بعضهم ببعض – رجالا أو نساء –

---

(١) انظر : شرح عين العـــلم وزين الحلـــم حـ ١ ص١٧٥ وهو مختصر من(الإحياء) .
(٢) الحجرات : ١١ .

وعن لمز بعضهم لبعض بالطعن والتجريح ، واعتبر القرآن من لمز إخوته المؤمنين كأنما لمز نفسه ، فالمسلمون كنفس واحدة ، كما نهى عن التنابز بالألقاب.فكل هذه الأمور تنقل الإنسان من درجة الإيمان إلى دركة الفسوق ، فبعد أن كان يسمى مؤمنا صار يسمى (فاسقا) وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ، وهذا دليل على وجوب التوبة ، وإلا كان من الظالمين ، والظالمون لا يفلحون ﴿ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾(1) ولا يحبهم الله: ﴿ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾(2) : ولا يهديهم الله ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾(3) وهم الذين لا ينجون من النار ﴿ وإِنْ مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا * ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(4) .

آيات أخر :

ومن آيات القرآن : ما رغب فى التوبة، وحث عليها ، وبين فضائلها وآثارها ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾(5) .

دعوة المشركين والكفار إلى التوبة :

ومن آيات القرآن : ما دعا أهل الشرك إلى التوبة ، وفتح لهم الباب للانخراط فى المجتمع المسلم ، واكتساب أخوته ، كما قال تعالى فى سورة التوبة بعد الأمر بقتال المشركين الناكثين للعهود : ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(6) ، ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِى الدِّينِ ﴾(7) .

كما دعا النصارى إلى التوبة من قولهم بألوهية المسيح أو أنه جزء من ثلاثة

---

(1) يوسف : ٢٣ . (2) آل عمران : ٥٧ . (3) المائدة:٥١ .
(4) مريم : ٧١ ، ٧٢ . (5) البقرة : ٢٢٢ . (6) التوبة : ٥ .
(7) التوبة : ١١ .

أجزاء أو (أقانيم) تكوِّن الإله ! ، وهو عبد من عباد الله ، جرى عليه ما يجرى على البشر ، وكان داعيا إلى عبادة الله وحده ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِى إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِن لَمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (١) .

بل فتح الله الكريم باب التوبة للكفرة الطغاة الذين عذبوا المؤمنين والمؤمنات ، وألقوا بهم فى أخاديد ﴿ النَّارِ ذَاتِ الوَقُودِ * إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ * وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ (٢) فقد قال تعالى بعد أن ذكر قصة هؤلاء المؤمنين ، وأنهم لم ينقموا منهم إلا إيمانهم بالله العزيز الحميد ، قال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ (٣) يقول الحسن البصرى معلقا على هذه الآية : انظر إلى هذا الكرم والجود : قتلوا أولياءه ، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة !

حتى الردة – أي الكفر بعد الإيمان – تَقبل التوبة ، كما قال تعالى: ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا ، لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَهُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٤) .

---

(١) المائدة : ٧٢ – ٧٤ .
(٢) البروج : ٥ – ٧ .
(٣) البروج : ١٠ .
(٤) آل عمران : ٨٦ – ٨٩ .

التوبة من النفاق :

وكما دعا القرآن إلى التوبة من الكفر الظاهر المعلن ، دعا إلى التوبة من الكفر الباطن ، المغلف بإيمان اللسان ، وهو المعروف باسم (النفاق) وأهله هم (المنافقون) الذين يقولون : ﴿ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمْ اللهُ مَرَضًا ﴾ (١) .

والتوبة من هذا النفاق لا تكون بمجرد إعلان الإسلام ، فهو معلن من قبل ، بل بأوصاف أربعة ذكرها القرآن فى سورة النساء ، فبعد أن وصفهم فى تلك السورة بما جلى حقيقتهم ، وكشف مستور دخائلهم: من ولائهم للكافرين من دون المؤمنين يبتغون عندهم العزة﴿ بَشِّرِ المُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ ، فَإِنَّ العِزَّةَ لِلهِ جَمِيعًا ﴾ (٢) .

ومن تربصهم بالمؤمنين ، وإمساكهم العصا من الوسط بينهم وبين الكافرين . ﴿ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ، وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ المؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

ومن ذبذبتهم وخداعهم لله ولرسوله ، وكسلهم عن أداء فرائضه وغفلتهم عن ذكره : ﴿ إِنَّ المُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ، وإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى، يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلاَ يَذْكُرُونَ اللهَ إِلاَّ قَلِيلاً * مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ وَلاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ، وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٨ - ١٠ . (٢) النساء : ١٣٨ ، ١٣٩ . (٣) النساء : ١٤١ .
(٤) النساء : ١٤٢ ، ١٤٣

بعد أن جلى الله تعالى أوصاف المنافقين ، لم يغلق الباب في وجوههم ، بل فتح لهم باب التوبة بشروطها ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ للهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

فمن تمام توبتهم أن يصلحوا ما أفسدوه بالنفاق ، وأن يعتصموا بالله بدل اعتصامهم بالناس ، وأن يخلصوا دينهم لله ، حتى يخلصهم الله لدينه ، وبذلك ينضمون إلى قافلة المؤمنين الصادقين .

وفي سورة أخرى يقول تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ، فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ، وَإِنَ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ﴾ (٢) .

* * *

التوبة من الكبائر :

وكما ذكر القرآن التوبة من الشرك والنفاق ، ذكر التوبة كذلك من كبائر الذنوب ، مثل قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، والزنى الذي جعله الله فاحشة وساء سبيلا ، وقد عطف القرآن هاتين الكبيرتين على أكبر الكبائر ، وهي الشرك ، فقال سبحانه في وصف عباد الرحمن :

﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ١٤٥ ، ١٤٦ . (٢) التوبة : ٧٤ . (٣) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

ويلاحظ أن كثيرا من الآيات تتحدث عن الإيمان بعد التوبة ، وتعطفه عليها ، كما فى هذه الآية ، وفى قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَن يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾(1) ، وقوله تعالى بعد أن ذكر جملة من رسله وأنبيائه وأتباعهم الأخيار الذين إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدًا وبكيا ، ثم قال : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ، فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا * إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾(2) .

وكما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾(3) فما سر هذا العطف : عطف الإيمان على التوبة ؟ والذى يظهر لى أن الإيمان يُخدش خدشا كبيرا باقتراف الكبائر ، حتى إن بعض الأحاديث النبوية لتنفى الإيمان عن مقترف الكبيرة حين يقترفها - كما فى حديث الصحيحين عن النبى ﷺ قال : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » .

لهذا كانت التوبة إعادة أو ترميما لهذا الإيمان .

* * *

التوبة من كتمان الحق :

ومن الذنوب الكبيرة التى أشار القرآن إلى ضرورة التوبة منها : ذنب كتمان الحق وعدم بيانه للناس ، وهذا من ذنوب أهل العلم الذين يجب عليهم أن يبلغوا رسالات الله ، ويبينوا للناس حكم الله ، ويقولوا الحق ، ولا يكتموه عن الخلق ، كما فعل أهل الكتاب الذين ذمهم الله تعالى بقوله : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً ، فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾(4) .

---

(1) القصص: ٦٧ . (٢) مريم : ٥٩ - ٦٠ . (٣) طه : ٨٢ . (٤) آل عمران : ١٨٧

وذلك أنهم كتموا البشارة بمحمد ﷺ فى كتبهم ، وحرفوا وبدلوا ، من أجل متاع الدنيا ، الذى سماه الله (ثمنًا قليلا) كما قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ، والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١) .

ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِه ثَمَنًا قَلِيلاً ، أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ، فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ (٢) .

فانظر إلى هذا الوعيد الهائل البالغ لهؤلاء الكاتمين، الذى يتضمن العـــذاب المادى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ ﴾ ، والعذاب المعنوى : ﴿ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ ﴾ والخسران فى صفقتهم ،فقد ﴿ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ﴾ ، وما ذلك إلا لأنهم أضلوا عباد الله بكتمانهم الشهادة بالحق ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ ﴾(٣) .

من أجل هذا كانت التوبة مطلوبة طلبا مؤكدا من هؤلاء حتى ينجوا من هذا العذاب ، ومن لعنة الله ولعنة اللاعنين ، يقول سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى من بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِى الْكِتَابِ ، أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ، وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

فاشترط فى قبول توبتهم : أن يصلحوا ما أفسدوه ، ويبينوا ما كتموه .

---

(١) النساء : ٧٧ .   (٢) البقرة : ١٧٤ ، ١٧٥ .   (٣) البقرة : ١٤ .

(٤) البقرة : ١٥٩ ـ ١٦٠ .

وإذا كان هذا جرم من كتم الحق ، فما بالكم بجرم من « شوّه الحق » وحاول أن يجعله في صورة الباطل،ليصد الناس عنه ، ويزين لهم ضده ، بلسانه أو بقلمه ؟ لا ريب أن جرمه أعظم ، وذنبه أشد خطرا ، وهو ما يقع فيه كثير من الكاتبين والمؤلفين والصحفيين والإذاعيين والفنانين والخطباء ، وأمثالهم ممن يصنعون عقول الناس ، وميولهم واتجاهاتهم .

ولا تصح توبة هؤلاء بمجرد الندم والعزم ، بل لا بد أن (يصلحوا ويبينوا) ، لقد أفسدوا كثيراً من العقول والضمائر ، وضللوا كثيرا من الناس ، فعليهم أن يزيلوا أسباب هذا الإفساد من كتب أو أشرطة أو « أفلام » ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فإن لم يستطيعوا برئوا منها علانية في الصحف وغيرها من وسائل الإعلام الممكنة ، وعليهم أن يبينوا بوضوح : موقفهم الجديد ورجوعهم عما كانوا عليه من قبل ، في شجاعة ويقين [1] .

فضل التوبة والتائبين في القرآن :

وفي الحث على التوبة والترغيب فيها ، جاء قول الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [2] وأى درجة أعلى من درجة الحصول على حب رب العالمين ؟

وجاء في وصف عباد الرحمن الذين شرفهم الله بالانتساب إليه ، ووعدهم الجنة يلقون فيها تحية وسلاما خالدين فيها حسنت مستقرًا ومقاما قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ [3] .

وأى فضل أعظم من أن يقبل التائب عند الله ، حتى إنه ليبدل سيئاته حسنات ؟

---

(١) كما فعل ذلك الدكتور / مصطفى محمود ، والأستاذ خالد محمد خالد وآخرون ممن هداهم الله .

(٢) البقرة : ٢٢٢ .   (٣) الفرقان : ٦٨ - ٧٠ .

وفى بيان سعة مغفرة الله تعالى ورحمتــه للتائبين يقــول جل شأنه : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

فهذه الآية فتحت الباب على مصراعيه لكل مذنب وخطاء ، وإن بلغت ذنوبه عنان السماء ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ، ثم تبتم لتاب الله عليكم » (٢) .

ومن فضائل التائبين : أن الله شغل ملائكته المقربين بالاستغفار لهم ودعاء الله تعالى أن يقيهم عذاب الجحيم ، وأن يدخلهم جنات النعيم وأن يقيهم السيئات ، فهم فى همومهم فى الأرض ، وحملــة العرش مشــغولون بهم فى السموات ، يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيمِ * رَبَّنَا وأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ، إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَن تَقِ السيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾ (٣) .

وجاءت آيات وفيرة فى كتاب الله تنبىء عن قبــول توبة التائبين إذا صدقت توبتهم ، بأساليب شتى ، معللة بفضل الله تعالى ومغفرته ورحمته ، التى لا تضيق بعاصٍ ، وإن عظمت معصيته .

---

(١) الزمر : ٥٣ .

(٢) رواه ابن ماجه عن أبى هــريرة ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٥٢٣٥) .

(٣) غافر : ٧ - ٩ .

كما في قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٢) .

وفي وصف ذاته سبحانه ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾ (٣) .

وخصوصا من تاب وأصلح ، وبعبارة أخرى : من تاب وعمل صالحا كما في قوله في السارق والسارقة : ﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥) .

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦) .

وجاء مدح الله تعالى باســـمه (التواب) في أحد عشر موضعا في القرآن ، كما في دعاء إبراهيم وإسماعيل ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧) .

وكما في قول موسى لبني إسرائيل بعد عبادتهم العجل : ﴿ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ، ذَلِكُـــمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٨) .

وقال تعالى مخاطبًا رسوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ (٩) .

* * *

(١) التوبة : ١٠٤ . (٢) الشورى : ٢٥ . (٣) غافر : ٣ .
(٤) المائدة : ٣٩ . (٥) الأنعام : ٥٤ . (٦) النحل : ١١٩ .
(٧) البقرة : ١٢٨ . (٨) البقرة : ٥٤ . (٩) النساء : ٦٤ .

توبات الأنبياء فى القرآن :

وقد ذكر لنا القرآن توبات أنبيائه وأصفيائه مما وقعوا فيه من زلات ، سارعوا بالندم عليها ، والتوبة والاستغفار منها ، عسى الله أن يغفرها لهم ، ويتقبل توبتهم .

وقدوة التائبين هو أبو البشر آدم عليه السلام ، الذى خلقه الله بيديه ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء كلها ، وأظهر فضله على الملائكة بعلمه ، ولكن آدم الذى نجح فى امتحان العلم والمعرفة ، لم ينجح (من الدور الأول) فى امتحان الإرادة ، فقد ابتلاه الله بأول تكليف منه ، وهو النهى عن الأكل من الشجرة : شجرة واحدة نهى عنها ، وأبيح له أن يأكل من كل أشجار الجنة رغداً حيث شاء ، هو وزوجه ، وهنا ضعفت إرادته ، ونسى نهى ربه أمام وسوسة الشيطان وإغرائه ، فأكل منها ، ووقع فى المعصية ، ولكنه سرعان ما غسلها وطهر نفسه من آثارها ، بالتوبة والاستغفار : ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١) .

وذكر لنا القرآن توبة موسى الذى اصطفاه برسالاته وبكلامه ، وأنزل عليه التوراة ، وجعله من أولى العزم من الرسل ، وأيده بتسع آيات بينات ، وقد وقع منه ذنب قبل الرسالة ، وهو الحمية لرجل من شيعته استغاثه على رجل من قوم فرعون ، فوكزه موسى فقضى عليه ﴿ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

ووقع منه هفوة بعد الرسالة ، حين ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

وهنا قال الله له : ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ (٤) .

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ .   (٢) القصص : ١٥ ، ١٦ .

(٣) الأعراف : ١٤٣ .   (٤) الأعراف : ١٤٤ .

ولما رجع موسى إلى قومه من مناجاته لربه أربعين ليلة ، ووجد قومه قد عبدوا العجل الذى صنعه لهم السامرى ، واتخذوه إلها ، غضب غضبا شديداً ، وقال : بئسما خلفتمونى من بعدى ! وألقى الألواح التى فيها التوراة كلام الله ، ألقى بها فى الأرض من الغضب ، وفيها كلام الله ، وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه ، وهو رسول مثله ، وأخوه يقول له : يا بن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ، إن القوم استضعفونى ، وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ، ولا تجعلنى مع القوم الظالمين .

هنا أحس موسى عليه السلام بما دفعه إليه الغضب ، وإن كان غضبا لله : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (١) .

وذكر لنا القرآن توبة نبى الله يونس عليه السلام ، حين دعا قومه إلى الله ، فلم يستجيبوا له ، فلم يصبر عليهم ، وغاضبهم ، وهجرهم مفارقا لهم ، فأراد الله أن يبتليه بمحنة تطهره ، وتبرز نفاسة معدنه ، ومدى يقينه بربه ، وصدقه معه ، فقد ركب فى سفينة ، فلما كانت فى عرض البحر ، هاجت بها الرياح ، ولعبت بها الأمواج ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، وقال الركاب : لا بد أن نخفف السفينة حتى لا تغرق بالجميع ، فلابد من أن يلقوا ببعض من فيها فى البحر ليفدى بقية الركاب ، وتم ذلك بالقرعة والاستهام ، وجاء السهم على يونس ، ولم يكن بد من التسليم والرضوخ ، فألقى فى البحر ، فالتقمه الحوت - أو النون - وهو مليم ، أى ملوم على مغاضبته لقومه ، ويأسه منهم ، وتركه لهم ، دون تكرار المحاولة ، وهنا تجلى يقين يونس ذى النون - أو صاحب الحوت - فنادى فى الظلمات التى يعانيها : ظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، بكلمات سجلها الكتاب الخالد ، القرآن حين لخص قصته بقوله : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ، وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) الأعراف : ١٥١ (٢) الأنبياء : ٨٧ ، ٨٨ .

كلمات ثلاث قصار نادى بها يونس لها دلالاتها العظيمة :

الأولى : تدل على التوحيد - توحيد الألوهية · الذى به بعث الله الرسل وأنزل الكتب ، وقامت به سوق الجنة والنار : ﴿ لاَ إلهَ إلاَّ أَنتَ ﴾ ·

والثانية : تدل على التنزيه عن كل نقص ، وهو معنى التسبيح الذى تقوم به السموات والأرض وكل المخلوقات ،وإن من شيء إلا يسبح بحمده: ﴿ سُبْحَانَكَ ﴾·

والثالثة : تدل على الاعتراف بالذنب ، والتقصير فى حق الرب ، وظلم النفس بالتفريط ﴿ إنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ وهذا عنوان التوبة ·

فلا عجب ان كان لهذه الكلمات الصادقة المخلصة أثرها العاجل الناجز فى الدنيا قبل الآخرة﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ ،وَكَذَلِكَ نُنْجِي المُؤْمِنِينَ﴾(١) .

وأصبحت هذه الكلمات بدلالاتها الثلاث : التوحيد والتنزيه والاعتراف : أسوة فى الابتهال والدعاء عند الكرب ، حتى جاء فى الحديث الذى رواه الترمذى وصححه : « دعوة أخى ذى النون : ما دعا بها مكروب إلا فرج الله عنه : لاَ إلَه إلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » ·

وذكر لنا القرآن توبة داود عليه السلام ، فيما حكاه لنا فى سورة (ص) حين جاءه خصمان ، وتسورا عليه المحراب ، ففزع منهما ، فقالا : ﴿ لاَ تَخَفْ ، خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالحَقِّ وَلاَ تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إلى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إنَّ هَذَا أَخِــى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً ولِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى الخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إلِىَ نِعَاجِه ، وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الخُلَطَاءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ، وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ (٢) .

---

(١) الأنبياء : ٨٨ ·

(٢) سورة ص : ٢٢ - ٢٥ ·

ترى ماذا نفهمه هنا من خطيئة داود فى هذه القصة ، التى ظن أنها كانت فتنة ، وابتلاء له ، فاستغفر ربه ، وَخَرَّ راكعا وأناب :

الذى يبدو من ظاهر القصة : أنه عليه السلام تسرع ولم يتثبت ، واستجاب لداعى الانفعال بمجرد أن سمع كلام أحد الخصمين ، فبادر بالحكم على خصمه ، دون أن يسمع منه ، ويتيح له الفرصة للدفاع عن نفسه ، وما ينبغى للقاضى العادل أن يتأثر بكلام أي خصم أو بمظهره، حتى يحقق ويدقق ، ويسمع من كل الأطراف ، وتقوم لديه الحجة ، وتتضح له المحجة ، ولهذا قيل : إذا جاءك أحد الخصمين إحدى عينيه مقلوعة ، فانتظر حتى ترى خصمه ، فلعل عينيه مقلوعتان ! .

ومن هنا جاء الأمر الإلٰهى بعد ذلك لداود ينهاه عن التأثر بالعواطف والأهواء فى حكمه، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللهِ ﴾ (١) .

وهل كان هذا الخصمان رجلين من بنى آدم حقيقة أو كانا ملكين فى صورة رجلين ، عرضا عليه القضية امتحانا واختبارا ، ثم لم يلبثا أن إختفيا ، ولم يعرف لهما أثر ؟ .

أيا كان أحد الإحتمالين ، فالمغزى واحد ، ولا مبرر لاعتبار هذا من ضرب المثل ، وأنه تعريض بداود نفسه ، فى طمعه فى امرأة جاره ، كما تصوره الإسرائيليات المشوِّهة لصورة الرسل والأنبياء ، حتى نزلت بهم إلى درك يترفع عنه كثير من عامة الناس ، فكيف برجل سخر الله الجبال ليسبحن معه بالعشى والإشراق ، وقال عنه فى أول قصته : ﴿ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأَيْدِ ، إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ وقال فى آخرها : ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ .

والآيات المتعلقة بالتوبة كثيرة فى القرآن ، وستأتى فى مواضعها من هذا الكتاب إن شاء الله .

* * *

(١) سورة ص : ٢٦ .

التوبة فى السنة النبوية :

وفى السنة النبوية نجد الأحاديث الوفيرة فى الدعوة إلى التوبة ، وبيان فضلها ، والترغيب فيها ، بأساليب شتى ، حتى إن النبى ﷺ قال : « يا أيها الناس ، توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليــه فى اليــوم مائة مرة »[١] ، واكتفى ببعض ما ذكره الحافظ المنذرى فى كتابه « الترغيب والترهيب » واذكر أهم ما انتقيته منها فى كتابى (المنتقى من الترغيب والترهيب) .

عن أبى موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتــوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، ليتوب مسىء الليل ، حتى تطــلع الشمــس من مغربها » رواه مسلم والنسائى .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ الشمس ثم تبتم ؛ لتاب الله عليكم » رواه ابن ماجه بإسناد جيد[٢] .

وعن جابر رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من سعادة المرء أن يطول عمره، ويرزقه الله الإنابة »[٣] رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد[٤] . .

وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مثل المؤمن ومثل الإيمان كمثل الفرس فى آخيته يجول ثم يرجع إلى آخيته ، وإن المؤمن يسهو ثم يرجع ، فأطعموا طعامكـــم الأتقياء ، وأولوا معروفكم المؤمنين » رواه ابن حبان فى صحيحه[٥] .

« الآخية » - بمد الهمزة ، وكسر الخاء المعجمة ، بعدها ياء مثناة تحت مشددة - هى : حبل يدفن فى الأرض مثنياً ، ويبرز منه كالعروة تشد إليها الدابة ، وقيل : هو عود يعرض فى الحائط تشد إليه الدابة .

---

(١) رواه مسلم عن الأغر المزنى .

(٢) رواه ابن ماجه فى الزهد (٤٢٤٨) وفى الزوائد : هذا إسناد حسن .

(٣) الإنابة : الرجوع ، والمراد إلى الله بالتوبة والاستغفار ونحوهما .

(٤) ووافقه الذهبى (٤ / ٢٤٠) وأورده الهيثمى جزءاً من حديث وقال : رواه أحمد والبزار ، وإسناده حسن (١٠ / ٢٠٣) .

(٥) وهو فى الموارد (٢٤٥١) ورواه أيضًا أحمد وأبو يعلى كما قال الهيثمى ، ورجالهما رجال الصحيح ، غير أبى سليمان الليثى ، وعبد الله بن الوليد التميمى ، وكلاهما ثقة (١٠ / ٢٠١) .

وعن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « كل ابن آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون » رواه الترمذى ، وابن ماجه ، والحاكم ، كلهم من رواية على بن مسعدة [1] وقال الترمذى : حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث على بن مسعدة عن قتادة ، وقال الحاكم : صحيح الإسناد [2] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إن عبدًا أصاب ذنباً ، فقال : يارب إنى أذنبت ذنباً فاغفره ، فقال له ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر - فقال : يا رب إنى أذنبت ذنباً آخر فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فغفر له ، ثم مكث ما شاء الله ، ثم أصاب ذنباً آخر - وربما قال : ثم أذنب ذنباً آخر - فقال : يا رب ، إنى أذنبت ذنباً فاغفره لى ، قال ربه : علم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ، فقال ربه : غفرت لعبدى فليعمل ما شاء » رواه البخارى ، ومسلم .

قوله : « فليعمل ما شاء » معناه - والله أعلم - : أنه ما دام كلما أذنب ذنباً استغفر وتاب منه ، ولم يَعُد إليه ؛ بدليل قوله : « ثم أصاب ذنباً آخر » فليفعل إذا كان هذا دأبه ما شاء ؛ لأنه كلما أذنب كانت توبته واستغفاره كفارة لذنبه فلا يضره ، لا أنه يذنب الذنب ، فيستغفر منه بلسانه من غير إقلاع ثم يعاوده ، فإن هذه توبة الكذابين .

وقد تقدم حديث « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكتة سوداء فى قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر صقل منها » الحديث .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قالت قريش للنبى ﷺ : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا ، فإن أصبح ذهبا اتبعناك ، فدعا ربه فأتاه جبريل عليه السلام فقال : «إن ربك يقرئك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا ، فمن

---

(١) قال فيه ابن حجر فى (التقريب) : صدوق له أوهام .

(٢) رواه الترمذى فى صفة القيامة (١ ، ٢٥) وابن ماجه فى الزهد (٤٢٥٢) والحاكم (٤ / ٢٤٤) وقال الذهبى : على لين ، وانتصر ابن القطان للحاكم كما فى (الفيض) (٥ / ١٧) وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٥٤١٥) .

كفر منهم عذبته عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة » قال : « باب التوبة والرحمة » رواه الطبرانى ورواته رواة الصحيح (١) .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر » رواه ابن ماجه، والترمذى، وقال : حديث حسن (٢) .

« يُغَرْغِر » - بغينين معجمتين ، الأولى مفتوحة والثانية مكسورة وبراء مكررة - معناه : ما لم تبلغ روحه حلقومه ؛ فيكون بمنزلة الشىء الذى يتغرغر به .

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ عن النبى ﷺ قال : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » رواه ابن ماجه ، والطبرانى ، كلاهمـا من رواية أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه ، ولم يسمع منه، ورواة الطبرانى رواة الصحيح(٣)، ورواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى مرفوعاً أيضاً من حديث ابن عباس ، وزاد : « والمستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه»وقد روى بهذه الزيادة موقوفاً ، ولعله أشبه .

وعن عبد الله بن معقل (٤) قال : دخلت أنا وأبى على ابن مسعود رضى الله عنه ، فقال له أبى : سمعت النبى ﷺ يقول: « النـدم توبة » (٥) ؟ قال : نعم . رواه الحاكم ، وقال : صحيح الإسناد (٦) .

---

(١) ونحوه قال الهيثمى (١٠ / ١٩٦) كما رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد ووافقه الذهبى (٤ / ٢٤٠) .

(٢) رواه الترمذى فى الدعوات (٣٥٣١) وابن ماجه فى الزهد ، وجعله من حديث عبد الله بن عمرو ، كما رواه الحاكم أيضاً وصححه ووافقه الذهبى (٤ / ٢٥٧) وأورده الهيثمى فى المجمع جزءاً من حديث لأحد الصحابة وقال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح ، غير عبد الرحمن (بن البيلمانى) وهو ثقة (١٠ / ١٩٧) .

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد (٤٢٥٠) وحسنه ابن حجر ، باعتبار شواهده ، كما فى المقاصد والفيض والكشف وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع الصغير (٣٠٠٨) .

(٤) فى الأصل ، وفى طبعة الشيخ منير ، وكذا فى المستدرك : عبد الله بن مغفل ، وهو غلط ناسخ أو طابع ، والصواب : عبد الله بن معقل (بن مقرّن المزنى) كما هو واضح من سند الحديث عند أحمد ، فقد رواه فى مسند ابن مسعود برقم (٣٥٦٨) .

(٥) أى الركن الأعظم فى التوبة : الندم ، كما فى حديث : « الحج عرفة » فلا ينفى ذلك وجوب العزم والإقلاع فى تحقق التوبة النصوح .

(٦) ووافقه الذهبى (٤ / ٢٤٣) وفات المنذرى أن ينسبه إلى أحمد ، كما أشرنا ، وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، كما رواه ابن ماجه أيضاً (٤٢٥٢) .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله، فيغفر لهم » (١) . رواه مسلم ، وغيره .

وعن عمران بن الحصين رضى الله عنه أن امرأة من جهينة أتت رسول الله ﷺ ، وهى حبلى من الزنا ، فقالت : يا رسول الله أصبت حدًّا ، فأقمه علىَّ ، فدعا نبى الله ﷺ وليها ، فقال : « أحسن إليها ، فإذا وضعت فاتنى بها » ، ففعل ، فأمر بها النبى ﷺ ، فشدت عليها ثيابها ، ثم أمر بها فرجمت ، ثم صلى عليها ، فقال له عمر : تصلى عليها يا رسول الله وقد زنت ؟ قال : « لقد تابت توبة لو قسمت بين سبعين من أهل المدينة لوسعتهم ، وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل ؟ » رواه مسلم .

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن نبى الله ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب ، فأتاه فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم ، فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناساً يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ؛ فإنها أرض سوء ، فانطلق حتى إذا نصف الطريق ، فأتاه ملك الموت (٢) فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء

---

(١) ذلك لأن من أسمائه سبحانه (الغفار) فلمن يغفر إذا كان كل عباده معصومين لا يذنبون ؟!! فلا ينبغي لمذنب أن ييئس ، مهما يكن ذنبه كبيرا ، فإن مغفرة الله أكبر منه ، وهو تعالى يقول : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (الزمر : ٥٣) .

(٢) فى نسخة : « حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت » .

تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيتهما أدنى كان فهو له ، فقاسوا فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد، فقبضته ملائكة الرحمة» .

وفى رواية : « فكان إلى القرية الصالحة أقرب بشبر ، فجعل من أهلها» .

وفى رواية : « فأوحى الله إلى هذه أن تباعدى ، وإلى هذه أن تقربى ، وقال : قيسوا بينهما ، فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر ، فغفر له » .

وفى رواية : قال قتادة : قال الحسن : « ذكر لنا أنه لما أتاه ملك الموت نأى بصدره نحوها » رواه البخارى ، ومسلم ، وابن ماجه بنحوه .

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أنا عند ظن عبدى بى ، وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة ، ومن تقرب إلىّ شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً ، وإذا أقبل إلىّ يمشى أقبلت إليه أهرول » رواه مسلم ، واللفظ له ، والبخارى بنحوه .

وعن شريح - هو ابن الحارث - قال : سمعت رجلا من أصحاب النبى ﷺ يقول : قال النبى ﷺ : « قال الله عز وجل : يا بن آدم قم إلىّ أمش إليك ، وامش إلىّ أهرول إليك » رواه أحمد بإسناد صحيح (١) .

وعن أنس بن مالك ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضله بأرض فلاة » رواه البخارى ، ومسلم وقد روياه أيضًا عن ابن مسعود بصيغة أوسع من هذه ، وستأتى فى موضعها .

وعن أبى ذر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من أحسن فيما بقى غفر له ما مضى، ومن أساء فيما بقى أخذ بما مضى وما بقى»رواه الطبرانى بإسناد حسن(٢) .

---

(١) وقال الهيثمى : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير شريح بن الحارث وهو ثقة (١٠ / ١٩٦ ، ١٩٧) . (٢) وكذا قال الهيثمى (١٠ / ٢٠٢) .

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن مثل الذى يعمل السيئات ثم يعمل الحسنات كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى ، فانفكت أخرى ، حتى يخرج إلى الأرض » رواه أحمد ، والطبرانى بإسنادين رواة أحدهما رواة الصحيح (١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : إن رجلا أصاب من امرأة قبلة - وفى رواية : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ما دون أن أمسها (٢) ، فأنا هذا ، فاقض فىّ ما شئت ، فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت نفسك - قال : ولم يرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم شيئاً ، فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبى صلى الله عليه وسلم رجلاً فدعاه ، فتلا عليه هذه الآية: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴾ (٣) ، فقال رجل من القوم: يا نبى الله، هذا له خاصة ؟ قال: « بل للناس كافة » رواه مسلم ، وغيره .

وعن أبى طويل شطب الممدود أنه أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : أرأيت من عمل الذنوب كلها، ولم يترك منها شيئاً ،وهو فى ذلك لم يترك حاجة ولا داجة إلا أتاها(٤)، فهل لذلك من توبة ؟ قال : « فهل أسلمت ؟ » قال : أما أنا فأشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله ، قال : « تفعل الخيرات ، وتترك السيئات ، فيجعلهن الله لك خيرات كلهن » قال : وغدراتى وفجراتى ؟! قال : « نعم » قال: الله أكبر ! فما زال يكبر حتى توارى . رواه البزار ، والطبرانى واللفظ له، وإسناده جيد قوى(٥) .

---

(١) وقال الهيثمى : رواه أحمد والطبرانى وأحد إسنادى الطبرانى رجاله رجال الصحيح (١٠ / ٢٠١ ، ٢٠٢) .

(٢) « دون أن أمسها » أراد : أصبت منها شيئاً غير الجماع، وفى نسخة : « أصبت منها دون - إلخ » بغير « ما » .

(٣) هود : ١١٤ .

(٤) الحاجة : أراد به الصغير ، والداجة : أراد به الكبير من الذنوب .

(٥) وقال الهيثمى : (١٠ / ٢٠٢) : رواه الطبرانى والبزار بنحوه ، ورجال البزار رجال الصحيح ، غير محمد بن هارون أبى نشيط ، وهو ثقة .

هل تجب التوبة من الصغائر ؟

وقد أثار العلامة ابن رجب الحنبلى فى كتابه (جامع العلوم والحكم) سؤالا مهما عن صغائر الذنوب : هل تجب التوبة منها كالكبائر أو لا ؟ لأنها تقع مكفرة باجتناب الكبائر ، لقوله تعالى : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (1) قال : هذا مما اختلف الناس فيه .

فمنهم من أوجب التوبة منها ، وهو قول أصحابنا وغيرهم من الفقهاء والمتكلمين وغيرهم .

وقد أمر الله بالتوبة عقيب ذكر الصغائر والكبائر ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصنَعُونَ * وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (2) .

وأمر بالتوبة من الصغائر بخصوصها فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنهُم وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيراً مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ ، بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (3) .

ومن الناس من لم يُوجب التوبة منها ، وحكى عن طائفة من المعتزلة .

ومن المتأخرين من قال : يجبُ أحد أمرين ، إما التوبة منها ، أو الإتيان ببعض المكفرات للذنوب من الحسنات .

وحكى ابن عطية فى « تفسيره » فى تكفير الصغائر بامتثال الفرائض واجتناب الكبائر قولين :

---

(1) النساء : ٣١ . (2) النور : ٣٠ - ٣١ . (3) الحجرات : ١١ .

أحدهما : وحكاه عن جماعة من الفقهاء وأهل الحديث : أنه يقطع بتكفيرها بذلك قطعاً ، لظاهر الآية والحديث .

والثانى : وحكاه عن الأصوليين : أنه لا يُقطع بذلك ، بل يُحمل على غلبة الظن وقوة الرجاء ، وهو فى مشيئة الله عز وجل ، إذ لو قطع بتكفيرها ، لكانت الصغائر فى حكم المباح الذى لا تبعة فيه ، وذلك نقض لِعُرَى الشريعة .

قلت : قد يقال : لا يقطع بتكفيرها ، لأن أحاديث التكفير المطلقة بالأعمال جاءت مقيدة بتحسين العمل ، كما ورد ذلك فى الوضوء والصلاة ، وحينئذ فلا يتحقق وجود حسن العمل الذى يوجب التكفير ، وعلى هذا الاختلاف الذى ذكره ابن عطية ينبنى الاختلاف فى وجوب التوبة من الصغائر [1] . اهـ .

والحق أن التوبة مطلوبة من كل مكلف ، وأن جميع المؤمنين مأمورون بالتوبة ، كما ذكرته الآية الكريمة ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ .

وقد ذكرنا أن هناك من يتوب من الكبائر ، وهناك من يتوب من البدع ، وهناك من يتوب من صغائر الذنوب ، ومن يتوب من الشبهات .

وهناك من يتوب من الغفلات .

وهناك من يتوب من الحالة التى كان عليها إذا ترقى إلى حال أحسن ، وهذه هى توبة النبى ﷺ الذى كان يقول : « يا أيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة » .

* * *

(١) جامع العلوم والحكم : ١ / ٤٤٦ ، ٤٤٧ - طبعة مؤسسة الرسالة بيروت .

وجوب التوبة على الفور :

وإذا كانت التوبة واجبة على المؤمنين جميعا،فإن الإتيان بها على الفور: واجب آخر،فلا يجوز تأخيرها ولا التسويف بها،فإن ذلك خطر على قلب المتدين، إذا لم يسارع بالتطهر أولا بأول،فيخشى أن تتراكم آثار الذنوب،واحدا بعد الآخر، حتى تحدث سوادا فى القلب،أو زيغا فيه٠كما جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة ٠

عن النبى ﷺ قال :

« إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت فى قلبة نكتة فإن هو نزع واستغفر صقلت فإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه ، فذاك الران الذى ذكر الله تعالى : ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(1) .

وقال ابن القيم :

المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور ، ولا يجوز تأخيرها ، فمتى أخرها عصى بالتأخير ، فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى ، وهى توبته من تأخير التوبة ! وقل أن تخطر هذه ببال التائب ، بل عنده أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شىء آخر ، وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة ٠ ا ٠ هـ ٠

وأخطر شىء على من وقع فى المعصية هو : التسويف بمعنى أن يقول : سوف أرجع ، سوف أتوب ، ولا يفعل ، ولهذا قيل : (سوف) جند من جنود إبليس ! وقيل : أكثر أهل النار المسوفون ٠ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُـمْ عَن ذِكْرِ اللهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلكَ فَأُوْلَئكَ هُمُ الخَاسِرُونَ * وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَنْ يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ المْوْتُ فَيَقُولَ

---

(1) رواه الترمذى (٣٣٣١) وقال : حسن صحيح ، وكذلك النسائى ، وابن ماجه (٤٢٤٤) وابن حبان فى صحيحه كما فى الموارد (٢٤٤٨) والحاكم وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبى (٢ / ٥١٧) ، والآية من سورة المطففين : ١٤

رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ومن فضائل المبادرة : أنها تعين المكلف على اقتلاع الذنب قبل أن يستفحل ، ويرسخ فى أرض القلب أصله ، وتنتشر فى الأعمال فروعه ، ويزداد كل يوم تشبثا بالجذور ، وتشعبا فى الفروع .

وما مثل المسوف إلا كمثل من احتاج إلى قلع شجرة ، فرآها قوية ، لا تنقلع إلا بمشقة شديدة جلية ، فقال : أدخرها سنة ، ثم أعود لأقتلعها ، وهذا من حماقته وغبائه ، فهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها ، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه ! فلا حماقة فى الدنيا أعظم من حماقته ، إذ عجز - مع قوته - عن مقاومة ضعيف ، فكيف ينتظر الغلبة عليه ، إذا ضعف هو فى نفسه ، وقوى الضعيف ؟! .

وكثيرا ما يسوف المسوفون ، حتى يأتى الوقت الذى ترفض فيه التوبة ، ولا يقبلها الله تعالى ، وذلك حين يفقد الإنسان الاختيار ، وتكون توبته توبة اضطرار ، مثل توبة فرعون حينما أدركه الغرق ، فقال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ، فكان الرد الإلهى : ﴿ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

وإذا وصل المكلف إلى وقت معاينة الموت وحضوره فهنا لا تنفعه توبة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُوْلَئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٣) .

* * *

---

(١) المنافقون : ٩ - ١١ . (٢) يونس : ٩١ . (٣) النساء : ١٧ ، ١٨ .

مقومات التـــوبة

- التوبة النصوح .
- مجرد الكلام باللسان ليس توبة .
- التوبة كما شرحها الغزالى .
- شرح العناصر المكونة لحقيقة التوبة.
- الاستغفار .
- شروط الاستغفار وآدابه .

مقومات التوبة

مادة (ت و ب) فى لغة العرب : تدل على الرجوع والعودة ، والتوبة إلى الله تعنى : الرجوع إليه والعودة إلى رحابه والوقوف على بابه .

ذلك أن الأصل فى الإنسان : أن يكون مع الله تعالى ، موصول الحبال به ، لا يبعد عنه ، ولا يستغنى عنه سبحانه لحياة جسمه ، كما لا يستغنى عنه لحياة روحه ، بل لعل حاجته إليه فى الآخرة أشد من حاجته إليه فى الأولى ، لأن حاجة جسمه تشاركه فيها البهيمة العجماء ، أما حاجة الروح ، فهى التى تميزه عن غيره من الأنعام والحيوانات، فقد خلقه الله تعالى على طبيعة مزدوجة ، فيها : قبضة الطين ، كما فيها : نفخة الروح ، وهذه هى التى جعلته أهلا لأن تسجد له الملائكة تكريماً واحتفالا بشأنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾ (١) .

فلم يأمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم إلا بعد تسويته ونفخ الروح فيه .

فإذا أطاع الإنسان ربه فقد أعلى نفخة الروح على قبضة الطين ، وبعبارة أخرى : فقد أعلى الجانب الروحى على الجانب المادى ، أعلى الجانب الربانى الأعلى ، على الجانب الطينى الأدنى ، وبهذا يسمو الإنسان ويرتقى ، ويقرب من ربه سبحانه بقدر جهده فى الارتقاء الروحى .

وإذا عصى الإنسان ربه ، انعكست الآية ، واستعلى الطين على الروح ، وغلب الجانب المادى الأدنى على الجانب الربانى الأعلى ، وبهذا يهبط الإنسان ويتدنى ، ومن ناحية أخرى يبعد عن الله تعالى بقدر إيغاله فى الذنوب والمعاصى .

---

(١) سورة ص : ٧١ ، ٧٢ .

والتوبة تتيح له الفرصة لتدارك الفائت ، وتصحيح المسار ، فيرتقى بعد ما هبط ، ويقترب من ربه بعدما بعد ، ويرجع إليه بعدما شرد .

* * *

التوبة النصوح :

والتوبة التى أمر بها المؤمنون هى(التوبة النصوح) التى جاء فيها قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا . . . ﴾[1] ، فما معنى التوبة النصوح ؟

يقول الحافظ ابن كثير فى تفسيره : أى توبة صادقة جازمة ، تمحو ما قبلها من السيئات ، وتلم شعث التائب ، وتجمعه ، وتكفر عنه ما كان يتعاطاه من الدناءات .

فالنصوح : صيغة مبالغة من ناصح ، كالشكور والصبور ، مبالغة من : شاكر وصابر . ومادة (ن ص ح) فى العربية تعنى : الخلوص ، يقال : نصح العسل ، إذا خلا من الغش ، وسلم من الشوائب الغريبة ، فالنصح فى التوبة ، مثل النصح فى العبادة ، وفى المشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد ، وإيقاعها على أكمل الوجوه ، والنصح ضد الغش .

وقد اختلفت عبارات السلف فى بيان حقيقة التوبة النصوح ، حتى أوصلها الإمام القرطبى فى تفسيره إلى ثلاثة وعشرين قولا [2] ، والحق أن مرجعها إلى شىء واحد ، ولكن كل واحد منهم عبر عن حاله ، أو عن عنصر أو أكثر منها .

وذكر ابن جرير وابن كثير وابن القيم عن عمر وابن مسعود وأبى بن كعب ﷺ : التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه ، كما لا يعود اللبن إلى الضرع . وروى أحمد عن ابن مسعود مرفوعا : التوبة من الذنب : أن يتوب منه ثم لا يعود فيه » وسنده ضعيف ، والموقوف أصح كما قال ابن كثير .

---

(١) التحريم : ٨ . (٢) انظر : تفسير القرطبى للآية الثامنة من سورة التحريم .

وقال الحسن البصري : هي أن يكون العبد نادما على ما مضى ، مجمعا على ألا يعود فيه .

وقال الكلبي : أن يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك (أى يمتنع) بالبدن .

وقال سعيد بن المسيب : توبة نصوحاً : أى تنصحون بها أنفسكم ، جعلها بمعنى ناصحة للتائب ، مثل : ضروب ، مبالغة فى ضارب .

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول ، أى نصح فيها التائب ، ولم يشبها بغش ، فهى إما بمعنى : منصوح فيها ، كركوبة وحلوبة ، بمعنى : مركوبة ومحلوبة ، أو بمعنى الفاعل ، أى ناصحة كخالصة وصادقة .

وقال محمد بن كعب القرظبى : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، وإضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيىء الإخوان [1] .

* * *

مجرد الكلام باللسان ليس توبة :

ليست التوبة قولاً باللسان ، كما يفهم كثير من العوام ، حين يذهب أحدهم إلى بعض شيوخ الدين ، فيقول له : يا سيدى الشيخ تَوِّبنى ! فيقول الشيخ : ردد ورائى أو قل معى : تبت إلى الله ، ورجعت إلى الله ، وندمت على ما فعلت ، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصى أبدا ، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام .

فإذا ردد هذه الكلمات وراء الشيخ خرج من عنده ، وظن أنه قد تاب !

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ٣٠٩ ، ٣١٠ طبعة السنة المحمدية بتحقيق الشيخ محمد حامد الفقى ، وتفسير ابن كثير : ٤ / ٣٩١ ، ٣٩٢ .

وهذا من الجهل القبيح من الطرفين : من العامى ومن الشيخ أيضاً ، فالتوبة ليست مجرد كلام يلوكه اللسان ، ولو كانت كذلك ما كان أسهلها .

التوبة أمر أكبر من ذلك وأعمق وأصعب ، إن عمل اللسان مطلوب فيها بعد أن تتحقق وتتأكد ، ليعترف بالذنب ويسأل الله المغفرة ، أما مجرد الاستغفار أو إعلان التوبة باللسان - دون عقد القلب ـ فهو توبة الكذابين ، كما قال ذو النون المصرى ، وهو ما قالته السيدة رابعة : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار ! حتى قال بعضهم : استغفر الله من قولى : استغفر الله ، أى باللسان من غير توبة وندم بالقلب !

أما حقيقة التوبة فهى عمل عقلى وقلبى وبدنى ، تبدأ بعمل العقل يتبعه عمل القلب ، فيثمر عمل البدن ، ولذا قال الحسن: هى ندم بالقلب ، واستغفار باللسان ، وترك بالجوارح ، وإضمار ألا يعود إلى الذنب .

* * *

التوبة كما شرحها الغزالى :

والتوبة كما شرحها الإمام الغزالى فى (إحيائه) معنى مركب من ثلاثة عناصر : علم وحال وعمل . فالعلم :الأول ،والحال :الثانى،والعمل :الثالث .

قال : والأول موجب للثانى ، والثانى موجب للثالث ، إيجابا اقتضاه اطراد سنة الله فى الملك والملكوت .

قال رضى الله عنه :

أما العلم ، فهو معرفة عظم ضرر الذنوب ، وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب ، فإذا عرف ذلك معرفة محققة بيقين غالب على قلبه : ثار من هذه المعرفة تألم للقلب بسبب فوات المحبوب ، فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تألم ، فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل المفوت ، فيسمى تألمه بسبب فعله المفوت لمحبـوبه

(ندما) فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى ، انبعث من هذا الألم فى القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى وبالاستقبال ، أما تعلقه بالحال فبالترك للذنب الذى كان ملابسا ، وأما بالاستقبال فبالعزم على ترك الذنب المفوت للمحبوب إلى آخر العمر، وأما بالماضى فبتلافى ما فات بالجبر والقضاء إن كان قابلا للجبر .

فالعلم هو الأول ، وهو مطلع هذه الخيرات وأعنى بهذا العلم : الإيمان واليقين ، فإن الإيمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب سموم مهلكة ، واليقين عبارة عن تأكد هذا التصديق ، وانتفاء الشك عنه ، واستيلائه على القلب ، فيثمر (نور) هذا الإيمان مهما أشرق على القلب (نار) الندم ، فيتألم بها القلب ، حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه ، كمن يشرق عليه نور الشمس ، وقد كان فى ظلمة ، فيسطع النور عليه بانقشاع سحاب ، أو انحسار حجاب ، فرأى محبوبه ، وقد أشرف على الهلاك ، فتشتعل نيران الحب فى قلبه ، وتنبعث تلك النيران بإرادته للانتهاض للتدارك .

فالعلم والندم والقصد المتعلق بالترك فى الحال والاستقبال ، والتلافى للماضى : ثلاثة معان مرتبة فى الحصول ، فيطلق اسم (التوبة) على مجموعها ، وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى (الندم) وحده ، ويجعل العلم كالسابق والمقدمة ، والترك كالثمرة والتابع المتأخر ، وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة [1] » إذ لا يخلو الندم عن علم أوجبه وأثمره ، وعن عزم يتبعه ويتلوه ، فيكون الندم محفوفًا بطرفيه أعنى : ثمرته ومثمره [2] . ا . هـ .

* * *

(١) قال الحافظ العراقى فى تخريج (الإحياء) أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن مسعود ، ورواه ابن حيان والحاكم من حديث أنس وقال : صحيح على شرط الشيخين . أ . هـ .

(٢) إحياء علوم الدين (٤ / ٣ ، ٤) ط - دار المعرفة - بيروت .

شرح العناصر المكونة لحقيقة التوبة :

ومما ذكره الغزالى وغيره يتبين لنا : أن حقيقة التوبة التى أمر الله بها المؤمنين جميعا لعلهم يفلحون ، كما أمرهم أن تكون توبتهم إليه توبة نصوحا ، إنما تتكون من عناصر أو مقومات ثلاثة ، مرتبة بعضها على بعض ، كما بين أبو حامد رحمه الله ٠

١ - العنصر المعرفى فى التوبة :

أول هذه العناصر أو المقومات هو العنصر المعرفى الإدراكى ، الذى يتجلى فى معرفة الإنسان خطأه وخطيئته حين وقع فى معصية ربه ، وانكشاف الغشاوة عن عينيه حتى يبصر ، والوقر عن أذنيه حتى يسمع ، والظلمة عن عقله حتى يدرك ، فى لحظة من لحظات اليقظة والعودة إلى سلامة الفطرة ، هنا يعرف جلال ربه ، وعزة مقامه ، وعظيم حقه ، عز وجل ، ويعرف تفريط نفسه فى جنب الله تعالى ، وطاعته لعدوه الشيطان ، وخسرانه المبين فى الآخرة والأولى ، إن استمر سائرا فى ركاب إبليس وجنوده ٠

وهنا يحتاج الإنسان إلى تركيز فكره ، وإعمال عقله ، والتأمل العميق فى نفسه وفيما حوله : فى مبدئه ، ومسيره ، ومصيره ، فى معنى حياته ، وفى موته وما بعد موته ، فى نعم الله المتتابعة عليه ، وموقفه منها ، فى أن خير الله تعالى إليه نازل ، وشره إلى الله صاعد ، فى تحبب الله إليه بنعمه وهو الغنى عنه ، وتبغضه إلى الله بالمعاصى ، وهو أفقر شيىء إليه ، فى أنه تعالى لم يغلق بابه عن عباده ، وإن ظلموا وأسرفوا على أنفسهم ، وأنه يناديهم دائما : ﴿ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَحْمَةِ اللهِ ، إنَّ اللهَ يغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (١) .

هذه الوقفة اليقظة مع النفس هى حجر الأساس فى بنيان التوبة ، فهى التى تدفع القلب إلى الندم ، والإرادة إلى العزم ، واللسان إلى الاستغفار ، والبدن إلى الامتناع والإقلاع ٠

---

(١) الزمر : ٥٣ ٠

وهذا ما نبه عليه القرآن فى قول الله تعالى : ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ من ربِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) .

بهذا الترتيب الذى دل عليه العطف بحرف (الفاء) .

فالأول هو العلم الذى يعرف به أربابه أن الحق من ربهم ، فيترتب عليه أن يؤمنوا به ، فالعلم إذن دليل الإيمان وقائده ، ويترتب على الإيمان إخبات القلوب وخشوعها .

وقال تعالى فى وصف المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

فهؤلاء ذكروا الله تعالى ، فاستغفروه لذنوبهم ، فالاستغفار إنما جاء ثمرة لذكر الله ، والذكر هنا : إنما هو نوع من المعرفة ، لأن المقصود به ليس هو ذكر اللسان ، كما قد يتوهم بعض الناس ، إنما هو الذكر ضد النسيان ، وهو لون من ألوان المعرفة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ (٣) .

إن العلم فى الإسلام مقدم على أحوال النفس ، وعلى أعمال الجسم ، ولا غرو أن كانت أول آية نزلت فى القرآن : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ﴾ (٤). والقراءة هى مفتاح العلم .

وقال الإمام البخارى فى صحيحه : باب : العلم قبل العمل ، واستدل لذلك بقول الله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالمؤْمِنَاتِ ﴾ (٥) ، فقدم الأمر بالعلم على الأمر بالاستغفار .

---

(١) الحج : ٥٤ . (٢) آل عمران : ١٣٥ .
(٣) الكهف : ٢٤ . (٤) العلق : ١ .
(٥) محمد : ١٩ .

وقال القشيرى فى رسالته : أول التوبة : انتباه القلب عن رقدة الغفلة ، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة ، ويصل إلى هذه الجملة بالتوفيق والإصغاء إلى ما يخطر بباله من زواجر الحق سبحانه ، بسمع قلبه ، فإنه جاء فى الخبر : « واعظ الله فى قلب كل مسلم » [١] وفى الخبر : « وإن فى البدن لمضغة إذا صلحت صلح جميع البدن ، وإذا فسدت فسد جميع البدن ألا وهى القلب » [٢] فإذا فكر بقلبه فى سوء ما يصنعه ، وأبصر ما هو عليه من قبيح الأفعال : سنح فى قلبه إرادة التوبة ، والإقلاع عن قبيح المعاملات ، فيمده الحق سبحانه بتصحيح العزيمة ، والأخذ فى جميل الرُّجعى ، والتأهب لأسباب التوبة [٣] .

٢ - العنصر الوجدانى الإرادى :

والعنصر الثانى فى التوبة : هو عنصر نفسى ، يتعلق بالوجدان والإرادة ، وبتعبير آخر : بالانفعال والنزوع .

فى هذا العنصر : ما يتصل بالماضى ، وما يتصل بالمستقبل .

* * *

(أ) الندم اللاذع :

فما يتصل بالماضى ، فهو المعبر عنه بـ (الندم) وفيه ورد الحديث : « الندم توبة » وذلك لأنه الركن الأهم فى التوبة ، كما فى حديث « الحج عرفة » لأنه الركن الأهم فى الحج ، حتى نقل القشيرى عن بعض أهل التحقيق أنه قال : يكفى الندم فى تحقيق التوبة ؛ لأن الندم يستتبع الركنين الآخرين (العزم والإقلاع) فإنه يستحيل أن يكون نادما على ما هو مصر على فعله أو عازم على الإتيان بمثله .

---

(١) رواه أحمد عن النواس بن سمعان .

(٢) متفق عليه عن النعمان بن بشير .

(٣) الرسالة القشيرية بتحقيق د . عبد الحليم محمود ، و د . محمود بن الشريف (جـ ١ / ٢٥٤ ، ٢٥٥) .

والندم : شعور أو انفعال أو توتر عاطفى ، هو عبارة عن حسرة لما فرط من الإنسان من ذنوب فى حق ربه ، وفى حق خلقه ، وفى حق نفسه ، هذه الحسرة أشبه بالنار التى تلذع القلب لذعا ، بل قد تكويه كيّا ، كلما تذكر ذنبه ، وتفريطه ، وتذكر حق ربه تعالى عليه . إنها حالة (احتراق داخلى) عبر عنه بعض الصوفية بقوله فى تعريف التوبة : ذوبان الحشا لما سبق من الخطا ، وقال آخر : هى نار فى القلب تلتهب ، وصدع فى الكبد لا ينشعب ! .

وقد صور لنا القرآن الكريم هذا الجانب النفسى الانفعالى لبعض التائبين ، فأبدع التصوير ، وأحسن التعبير ، وذلك فى قصة الصحابة الثلاثة الذين خُلفوا ، ولم ينهضوا مع رسول الله فى غزوة العسرة ، غزوة تبوك التى كانت أول لقاء للرسول الكريم مع أقوى دولة فى الأرض : دولة الروم ، ولم يقدموا للرسول أعذارًا كاذبة ، كما فعل بعض المنافقين ، فأمر النبى ﷺ بمقاطعتهم ، فبلغ بهم الندم والأسى مبلغا عظيماً ، عبر عنه القرآن بقوله : ﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) .

ولهذا قال ذو النون : حقيقة التوبة : أن تضيق عليك الأرض بما رحبت ، حتى لا يكون لك قرار ، ثم تضيق عليك نفسك ؛ كما أخبر الله فى كتابه : ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ... ﴾ الآية .

ومن مظاهر هذا الندم : الاعتراف بالذنب ، وعدم الفرار من المسؤولية عنه ، وطلب الصفح والمغفرة عنه من الله تعالى .

كما رأينا فى قصة آدم بعد أكله هو وزوجه من الشجرة : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

وكما رأينا فى قصة نوح حين شفع إلى ربه فى ولده الكافر ، فكان الرد

---

(١) التوبة : ١١٨ . (٢) الأعراف : ٢٣ .

الإلهى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ﴾(١) .

هنا أحس نوح عليه السلام بخطئه، وندم عليه، وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ، وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِى أَكُن مِّنَ الخَاسِرِينَ﴾(٢) .

وكما رأينا في قصة موسى ، حين وكز الرجل القبطى فقضى عليه ، ﴿ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ * قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى ﴾ (٣) .

وكما رأينا فى قصة ذى النون يونس : ﴿ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِى الظُّلُمَاتِ أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾(٤) .

وغم أن هذه الذنوب التى وقعت من هؤلاء الرسل لا تعدو أن تكون من صغائر المعاصى ، وخصوصا إذا لاحظنا الظروف والملابسات التى وقعت فيها ، فسنجدها ظروفا مخففة ، ولكنهم - عليهم صلوات الله - لرهافة حسهم ، ويقظة ضمائرهم ، وقوة شعورهم بحق ربهم ، استعظموا هذه الذنوب، وأقروا بأنهم ظلموا بها أنفسهم ، فسارعوا إلى استغفار ربهم ، إنه هو الغفور الرحيم .

(ب) العزم الجازم :

وإذا كان الندم فى التوبة يتعلق بالماضى وما وقع فيه من تفريط ، فهناك أمر يتعلق بالمستقبل ، وما يتوقع فيه من تلاف للتفريط ، وتعويض بالإصلاح ، وذلك بالعزم الجازم على ترك المعصية التى يتوب منها ، تركا كليا لا رجعة فيه بحال ، كما لا يرجع اللبن إلى الضرع إذا خرج منه ، وهذا أمر مرده إلى الإرادة ، ويجب أن تكون إرادة قوية مصممة ، لا إرادة متراخية واهنة ، تقدم رجلاً ، وتؤخر أخرى ، تعزم اليوم ، وتفسخ فى الغد ، أو تتوب فى الصباح ، وتتراجع فى المساء !

والمهم فى هذا العزم : أن يكون قويا مصمما جازما ساعة التوبة ، بحيث لا

---

(١) هود : ٤٦ .
(٢) هود : ٤٧ .
(٣) القصص : ١٥ ، ١٦ .
(٤) الأنبياء : ٨٧ .

يشعر لحظتها بأى تردد أو حنين إلى المعصية ، أو تفكير فى إمكان معاودتها مرة أخرى . ولا ينقض التوبة : أن تضعف إرادة التائب بعد فترة ، ويغلبه هواه ، ويغره شيطانه ، فتزل قدمه ، ويسقط فى حفرة المعصية من جديد .

وهنا يطلب منه أن يبادر بالتوبة ، فيندم ويعزم من جديد ، ولا يقنط من قبول توبته إذا كانت صادقة ، فقد قال تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴾ (1) ، والأوّاب : كثير الأوبة إلى الله تعالى ، كلما أذنب ذنبا علم أن له ربا يغفر الذنوب ولا يبالى ، فرجع إليه واستغفره ، فغفر له .

قال الإمام ابن كثير : فأما إذا جزم بالتوبة ، وصمم عليها ، فإنها تجبّ ما قبلها من الخطيئات ، كما ثبت فى الصحيح : « الإسلام يجب ما قبله ، والتوبة تجب ما قبلها » .

قال ابن كثير : وهل من شرط التوبة النصوح : الاستمرار على ذلك إلى الممات ، كما تقدم فى الحديث وفى الأثر : ثم لا يعود فيه أبدا ، أو يكفى العزم على أن لا يعود فى تكفير الماضى ، بحيث لو وقع منه ذلك الذنب بعد ذلك ، لا يكون ضارا فى تكفير ما تقدم ، لعموم قوله عليه السلام : «التوبة تجب ما قبلها»(2)؟ .

وناقش ذلك ابن القيم فى (المدارج) ، وذكر الرأيين : رأى من يشترط عدم معاودة الذنب بحال ، وقال : متى عاد إلى الذنب ، تبينا أن توبته كانت باطلة غير صحيحة ، ورأى الأكثرين ، وهو أن ذلك ليس بشرط ، وإنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته ، فإذا عاوده مع عزمه حال التوبة على أن لا يعاوده ، صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل التوبة المتقدمة .

قال : والمسألة مبنية على أصل ، وهو: أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذى قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على

---

(1) الإسراء : ٢٥ (2) تفسير ابن كثير : ٤ / ٣٩٢ ط . الحلبى .

الأول والآخر ، إن مات مصرا ؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية ، فلا يعود إليه إثمه ، وإنما يعاقب على هذا الأخير ؟

وفى هذا الأصل قولان :

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول ، لفساد التوبة ، وبطلانها بالمعاودة قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر ، والكافر إذا أسلم هدم إسلامه ما قبله من إثم الكفر وتوابعه ، فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع إثم الردة ، كما ثبت فى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية ، ومن أساء فى الإسلام أخذ بالأول والآخر » فهذا حال من أسلم وأساء فى إسلامه ، ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإســـلام ، فإذا أخذ بعدها بما كان منه فى حال كفره ، ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما ، فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لا تسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها ، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط ، كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه ، قالوا : والتوبة واجبة وجوباً مضيقاً مدى العمر ، فوقتها مدة العمر ، إذ يجب عليه استصحاب حكمها فى مدة عمره ، فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم ، فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ما تقدم من صيامه ، ولم يعتد به ، وكان بمنزلة من لم يمسك شيئًا من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح ، وهو قوله ﷺ « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفراً موجباً للخلود ، أو معصية موجبة للدخول ، فإنه لم يقل « فيرتد فيفارق الإسلام » وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار ، وفى بعض السنن « إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة ، فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار » فالخاتمة السـيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية ، والأعمال بالخواتيم .

واحتج الفريق الآخر – وهم القائلون بأنه لا يعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة – بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة . وصار بمنزلة ما لم يعمله وكأنه لم يكن . فلا يعود إليه بعد ذلك ، وإنما العائد إثم المستأنف لا الماضى .

قالوا : ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات ، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك : مُحى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك . فإذا استأنفه استأنف إثمه .

قالوا : فليس هذا كالكفر الذى يحبط الأعمال . فإن الكفر له شأن آخر . ولهذا يحبط جميع الحسنات . ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات .

قالوا : والتوبة من أكبر الحسنات . فلو أبطلتها معاودة الذنب : لأبطلت غيرها من الحسنات . وهذا باطل قطعاً . وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب . والمعتزلة المخلِّدين فى النار بالكبيرة ، التى تقدمها الألوف من الحسنات . فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر فى النار . ولكن الخوارج كفروهم ،والمعتزلة فسقوهم . وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام . مخالف للمنقول والمعقول وموجب العدل ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(١) .

قالوا : وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعاً إلى النبى ﷺ « إن الله يحب العبد المفتن التواب » (٢) .

قلت : وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه ، فلو كانت معاودته تبطل توبته لما كان محبوباً للرب ، ولكان ذلك أدعى إلى مقته .

قالوا : وقد علق الله سبحانه قبول التوبة بالاستغفار ، وعدم الإصرار ، دون المعاودة ، فقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا

---

(١) النساء : ٤٠ . (٢) سنده ضعيف جداً .

اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) والإصرار: عقد القلب على ارتكاب الذنب متى ظفر به ، فهذا الذى يمنع مغفرته .

قالوا : وأما استمرار التوبة : فشرط فى صحة كمالها ونفعها ، لا شرط فى صحة ما مضى منها ، وليس كذلك العبادات ، كصيام اليوم ، وعدد ركعات الصلاة ، فإن تلك عبادة واحدة ، لا تكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها ، وأما التوبة : فهى عبادات متعددة بتعدد الذنوب ، فكل ذنب له توبة تخصه ، فإذا أتى بعبادة وترك أخرى ، لم يكن ما ترك موجباً لبطلان ما فعل ، كما تقدم تقريره .

بل نظير هذا : أن يصوم من رمضان ويفطر منه بلا عذر ، فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه ؟ .

بل نظير من صلى ولم يصم ، أو زكى ولم يحج .

ونكتة المسألة : أن التوبة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة ، فلا تبطل معاودته هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات .

قالوا : وهذا على أصول أهل السنة أظهر ، فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين ، ويكون محبوباً لله مبغوضاً له من وجهين أيضًا ، بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر ، ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر ، فيكون من أهله ، كما قال تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ (٢) وقال ، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (٣) أثبت لهم الإيمان به ، مع مقارنة الشرك ، فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم ما معهم من الإيمان بالله ، وإن كان معه تصديق لرسله ،

---

(١) آل عمران : ١٣٥ . (٢) آل عمران : ١٦٧ . (٣) يوسف : ١٠٦ .

وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لا تخرجهم عن الإيمان بالرسل وباليوم الآخر ، فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر ·

وشركهم قسمان : شرك خفى ، وشرك جلى ، فالخفى قد يغفر ، وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، فإن الله لا يغفر أن يشرك به ·

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار ، ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة ، لما قام بهم من السببين ·

فإذا ثبت هذا ، فمعاود الذنب : مبغوض لله من جهة معاودة الذنب ، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة ، فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة ، ولا يظلم مثقال ذرة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ا·هـ·[1] ·

* * *

(1) فصلت : ٤٦ ، المدارج جـ ١ : ٢٧٦ - ٢٨٢ ·

٣ - الجانب العملى فى التوبة :

وكما أن فى التوبة جانبا أو عنصرا معرفيا : يتمثل فى العلم بمقام الله تعالى وعظيم حقه على عباده ، وسابغ نعمه عليهم من ناحية ، والعلم بأضرار المعاصى والخطايا وآثارها فى الدنيا والآخرة ، ووقوفها حجابا بين الإنسان وربه ، وحاجزا دون وصوله إلى الفلاح والفوز المنشود ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ (١) .

وفى التوبة كذلك جانب أو عنصر قلبى وجدانى إرادى ، يتمثل فى نار الندم المحرقة لحطب الذنوب ، ودموع الأسف الغاسلة لأوحال الخطايا ، ونور العزيمة الصادقة المصممة على عدم العودة إلى المعصية المتوب منها مهما تكن المغريات بها والدوافع إليها .

فإن فى التوبة أيضاً جانبا أو عنصرا عمليا لابد منه ، لتتم به حقيقة التوبة ، وتؤتى ثمارها فى النفس وفى الحياة .

وهذا الجانب العملى له أصل ، يتفرع منه فرعان ، وربما فروع .

(أ) الإقلاع عن المعصية فى الحال :

أما الأصل فهو : الترك والإقلاع عن المعصية فى الحال ، ولا معنى للتوبة إذا ظل المرء مقيما على معصيته ، لم يفارقها ولم يهجرها ، فمم تاب إذن ؟! وإنما اعتبر الترك عملا ، لأنه كف النفس عما تشتهيه من المعصية إلى ما يجب عليها من الطاعة ، ولا ريب أن هذا الكف من هذه الوجهة عمل ورياضة وجهاد فى سبيل الله ، وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) آل عمران : ١٨٥ .

(٢) العنكبوت : ٦٩ .

(ب) الاستغفار :

وأما الفرعان لهذا الأصل فأولهما : (الاستغفار) بمعنى طلب المغفرة والعفو من الله تعالى ، كما قال الأب الأول : آدم ، والأم الأولى : حواء ، بعد أن أكلا من الشجرة : ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

وكل تائب في إمس الحاجة إلى الاستغفار ، كما دعا إلى ذلك القرآن والسنة وبينه السلف الصالحون .

ونظرًا لأهمية الاستغفار، وتكرر الأمر به ، والحث عليه ، في القرآن والحديث ، سنفرد له فصلا مستقلا للحديث عنه .



(جـ) تغيير البيئة والأصحاب :

والفرع الثاني : تغيير البيئة الاجتماعية المتلطخة بالقاذورات ، التي كان يعيش فيها في عهد المعصية والانحراف ، والبحث عن بيئة نظيفة طاهرة ، سليمة من الأمراض المعدية ، ونعني بهذه الأمراض : أمراض الخطايا والذنوب والانحرافات . ، فإنها أشد خطرا من أمراض الأبدان ، وأسرع تأثيرا منها .

وإذا كان تأثير الأمراض العضوية المعدية خطرًا على الفرد وحده ، فإن خطر الانحراف والمعاصي على الفرد والمجتمع كله ، وهو ليس خطرا على الماديات والمحسات وحدها ، بل على المعنويات والأخلاقيات أيضاً ، وهي ليست خطرا على الدنيا وحدها ، بل هي خطر على الدنيا والآخرة جميعا .

ومعنى هذا : أن على التائب أن يهجر (أصدقاء السوء) الذين أغروه بالمعصية ، وجروا إليها رجله ، حتى سقط فيما سقطوا فيه منها ، فشرب الخمر ،

---

(١) الأعراف : ٢٣ .

أو لعب القمار ، أو تعاطى المخدرات ، أو تاجر فى المحرمات ، أو قبل الرشـوة ، أو وقع فى حبائل النساء ، أو تجسس أو تعامل مع الأعداء ، أو أضاع الصلوات ، واتبع الشهوات .. إلى غير ذلك من صنوف الخطايا .. فلابد له أن يستبدل بهؤلاء الأصحاب الأشرار ، أصحابًا أخيارا أطهارًا ، مجرد رؤيتهم تذكر بالله ، وكلامهم يرشد إلى طاعة الله ، وأعمالهم تهدى إلى طريق الله .

لابد للتائب أن يدع مصـاحبة (نافخ الكير) إلى مصاحبة (حامل المسك) كما أرشدنا إلى ذلك المعلم الأول رسول الله ﷺ .

إن أثر الأصدقاء والأصحاب فى الإنسان : أثر عميق ، عبر عنه الحكماء والشعراء من قديم ، حتى قال الشاعر :

عن المرء لا تسأل ، وسل عن قرينه   فكل قريـن بالمقارن يقتدى !

وقال الآخر :

واحذر مصاحبة اللئيـم فإنها   تعدى ، كما يعدى السليم الأجربُ !

والأصدقاء نوعان: صديق يأخذ بيدك إلى الجنة ، والآخر يجرك إلى النار جرًّا ، وقد حكى القرآن لنا عن خطر هـذا الصنف الأخير فى الإضلال والصد عن سبيل الله ، وقد لا يعرف ذلك ضحاياهم إلا فى الآخرة ، حين ينكشف الغطاء ، ويرى الناس الحقائق مجردة ، يقول تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَالَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً ۞ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً ﴾ [1] .

وهكذا نرى كل الأصدقاء فى الدنيا أعداء يوم القيامة ، يكفر بعضهم ببعض ، ويلعن بعضهم بعضا ، ويبرأ بعضهم من بعض ، ويقول كل منهم لصاحبه : أنت الذى أضللتنى وأغويتنى ، إلا صنفا واحدا من الأصدقاء والأخلاء ، وهم أهل

---

(1) الفرقان : ٢٧ - ٢٩ .

التقوى ، الذين يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب . يقول تعالى : ﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ومن هنا نبه بعض علماء السلوك من السلف إلى تغيير الأصدقاء ، حين قال : التوبة : ندم بالجنان ، وعزم على ترك العصيان ، واستغفار باللسان ، وإقلاع بالأبدان ، وهجر سيىء الخلان .

وهذه نظرة تربوية صحيحة ومجربة ، وهو ما نبه عليه القشيرى ونصح به التائب أن يبدأ به : هجران إخوان السوء ، فهم الذين يحملونه على رد القصد إلى التوبة ، ويشوشون عليه صحة عزمه على الطاعة (٢) .

يؤيد هذا ما جاء في الحديث الصحيح : حديث الرجل الذى قتل مائة نفس ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدُل على رجل عالم ، فقال له : إنه قتل مائة نفس ، فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينه وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله ، فاعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك ، فإنها أرض سوء .. الحديث (٣) .

* * *

(د) اتباع السيئة الحسنة :

وهنا فرع آخر مكمل لهذين الفرعين ، ومؤكد للتوبة ، وهو : اتباع السيئة الحسنة لتمحو أثرها وتطهر نجسها ، وهو ما أمر به رسول الله ﷺ أبا ذر رضي الله عنه حين أوصاه تلك الوصية الجامعة ، فقال : « اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » (٤) .

---

(١) الزخرف : ٦٧ . (٢) الرسالة للقشيرى : ١ / ٢٥٥ .

(٣) الحديث متفق عليه عن أبى سعيد الخدرى ، ذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب ، انظر : المنتقى (١٩٣٦) وقد تقدم بتمامه فى صفحة ٣٣ .

(٤) رواه أحمد والترمذى عن أبى ذر وقال الترمذى : حسن صحيح ، والحاكم وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى والبيهقى فى الشعب ورواه أيضًا أحمد والترمذى والبيهقى والطبرانى عن معاذ ، وقال الذهبى فى المهذب : إسناده حسن (الفيض : ١ / ١٢١) .

والمراد : أن يبادر المسلم الذى صدرت منه المعصية أن يلحقها بطاعة ، من صلاة أو صدقة ، أوصيام ، أو فعل خير أو استغفار أو ذكر وتسبيح ، إلى غير ذلك من ألوان الحسنات ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (١) .

قال ابن العربى : والحسنة تمحو السيئة ، سواء كانت قبلها أم بعدها ، وكونها بعدها أولى ، إذ الأفعال تصدر عن القلوب ، وتتأثر بها ، فإذا فعل سيئة فقد تمكن فى القلب اختيارها ، فإذا اتبعها حسنة، نشأت عن اختيار فى القلب ، فتمحو ذلك ، وظاهر قوله « تمحها » : أنها تزال حقيقة من الصحيفة ، وقيل : عبر به عن ترك المؤاخذة (٢) .

وأفضل ما تكون الحسنة بعد السيئة إذا كانت من جنسها .

فمن كانت سيئته الغيبة لشخص معين ، فالحسنة ينبغى إن تكون مدحه أمام من اغتابه عنده ، أو الاستغفار له من الله .

ومن كانت سيئته السخرية بالناس ، فلتكن حسنته توقيرهم ، وإكرامهم وذكرهم بكل خير .

ومن كانت سيئته قراءة كتب السوء ، فلتكن حسنته قراءة القرآن ، وكتب الحديث ، وعلوم الإسلام .

ومن كانت سيئته عقوق الوالدين ، فلتكن حسنته المبالغة فى برهما وإكرامهما ، والإحسان إليهما ، وخصوصا فى حالة الكبر .

ومن كانت سيئته قطع الرحم ، والاساءة إلى ذوى القربى ، فلتكن حسنته الحرص على صلتهم ، وإن قطعوا ، وإعطائهم ، وإن حرموا .

ومن كانت سيئته الجلوس فى مجالس المجون واللهو المحرم ، فلتكن حسنته الجلوس فى مجالس الخير والذكر والعلم النافع .

ومن كانت سيئته العمل فى الصحافة المعادية للإسلام ودعاته ، فلتكن حسنته العمل فى الصحافة المضادة لها ، بنشر الخبر الصادق ، والرأى السديد .

---

(١) هود : ١١٤ .

(٢) انظر : فيض القدير : ١ / ١٢٠ .

ومن كانت سيئته تأليف الكتب المضللة ، الداعية إلى المنكر فى القول والعمل ، والمحرضة على إثارة الشبهات فى الفكر ، والشهوات فى السلوك ، فلتكن حسنته تأليف كتب مناقضة لها فى الاتجاه ، داعية إلى الخير ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر ٠

ومن كانت سيئته إشـــاعة الأغانى الخليعة ، وإثارة الغرائز الهاجعة بشتى المثيرات ، فلتكن حسنته نشر العفة ، والدعوة إلى الحياء والإحصان ٠

ومن كانت سيئته ظلم الناس ، والعدوان على الضعفاء ، وعلى حرماتهم وحقوقهم المادية والأدبية ، فلنكن حسنته الحرص على إقامة العدل ، وإنصاف المظلومين ، والوقوف بجانب المستضعفين والدفاع عنهم ورد ما أمكن من الحقوق إليهم ٠

ومن كانت سيئته السير فى ركاب الطغاة المستكبرين من الحكام وتصديقهم فى كذبهم ، وإعانتهم على ظلمهم لشعوبهم ، كانت حسنته مقاومة هؤلاء الظلمة ما استطاع ، وكشف المستور من مساوىء هؤلاء أمام الجماهير ، وفضح مخازيهم وسرقاتهم ، حتى ينفض الناس عنهم ٠

وهكذا ينبغى أن تكون الحسنة التى يمحو بها التائب سيئته ما اســتطاع : مناقضة لها ، مزيلة لأثرها ، مطهرة للنفس من رواسبها ، وذلك بسلوك طريق المضادة كما بين ذلك الإمام الغزالى ؛ فإنما يعالج المرض بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية ، فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هى المتناسبات ٠ فكذا ينبغى أن يمحو كل سيئة بحسنة من جنسها ما استطاع ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف فى طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات ، وإن كان ذلك أيضاً مؤثراً فى المحو ٠

هذا ، وسلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو : مشهود له فى الشرع حيث أوجب القرآن الكريم فى كفارة القتل الخطأ : تحرير رقبة ، وذلك أن الرق نوع من الموت الأدبى بفقد الحرية ، وفى عتق الرقيق وتحرير رقبته إحياء معنوى له ، فحيث لا يمكن الإنسان أحياء نفس حسـا ، فليحيها معنى ، وذلك بالتحرير ٠

٤ - أن تكون التوبة لله :

وهناك ركن مطلوب فى التوبة ، وإن لم يذكره الكثيرون ، أراه ملحوظا ، وإن لم يكن ملفوظا ، وهو : أن يكون الإقلاع عن الذنب والندم عليه والعزم على عدم معاودته كلها من أجل الله تعالى ، رغبة فى ثوابه ، وخشية من عقابه .

فمن أقلع عن شرب الخمر ، لأن الطبيب حذره من شربها ، وأنها ستودى بصحته ، فتركها من أجل ذلك لم يعد تائبا ، ولم يكن تركه توبة .

ومن أقلع عن الزنى ، لأنه أصيب بمرض (الإيدز) أو خشى الإصابة به ، أو غير ذلك من الأمراض التناسلية ، فخاف على نفسه ، وهجر الزنى ، لم يكن ذلك توبة شرعية .

ومن أقلع عن الاتجار بالمخدرات ، خوفا من مطاردة الشرطة ، ومن عقوبة الإعدام التى تنتظره ، لم يكن تائبا ، ولا إقلاعه توبة .

ومن خسر ماله فى القمار ، فأقلع عنه ، لإفلاسه وضياع ثروته ، لم يكن ذلك توبة منه ، ولم يدخل هو فى زمرة التائبين .

ومن عق أباه ، فحرمه من ماله وميراثه ، فندم على عقوقه ، لم يكن ندمه هذا توبة ، ولا جزءا منها ، لأنه ندم على الدنيا ، لا على معصية الله جل شأنه .

وقد رأينا القرآن الكريم يحكى لنا قصة ابنى آدم بالحق ، إذ قتل الشرير منهما أخاه الطيب ، وقد حمل جثته مدة طويلة ، ولم يعرف كيف يواريها ، إذ كان هذا أول ميت فى تاريخ البشرية : ﴿ فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ، قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى ، فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴾ (١) .

فندم هذا الأخ الشرير ليس لمعصيته لربه ، وقتله لأخيه ، بل لحمله تلك المدة ، وعجزه أن يعرف طريقة لدفنه ، ولذلك لم يشفع له هذا الندم .

ولكن إذا حركت مصائب الدنيا وخسائرها بواعث الإيمان فى قلب الإنسان ، وجعلته يراجع نفسه، ويتذكر آخرته، فتاب عند ذلك ، فهو من المقبولين إن شاء الله .

---

(١) المائدة : ٣١

الاستغفار

الاستغفار : طلب المغفرة ، أى محو الذنب وإزالة أثره ، ووقاية شره ، قال ابن القيم: وحقيقة المغفرة: وقاية شر الذنب ومنه: المِغْفَر لما يقى الرأس من الأذى (١)، وإنما تطلب المغفرة من الله عز وجل، فإن من أسمائه تعالى « الغفور » ، و « الغفار » و « غافر الذنب » ومن صفاته أنه : ﴿ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ (٢) .

والقرآن يذكر لنا أن رسل الله تعالى إلى الأمم قد أمروهم بالاستغفار . إما مفردا أو مقرونًا بالتوبة، كما ذكر تعالى عن نوح ودعوته لقومه : ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴾(٣) .

وكما ذكر سبحانه عن هود ودعوته إلى قومه عاد ، حيث قال : ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ (٤) .

وكذلك قال صالح لقومه ثمود : ﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ، هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ، فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾ (٥) .

وكذا قال شعيب لقومه أهل مدين : ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ، إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ (٦) .

---

(١) مدارج السالكين جـ ١ / ٣٠٨ .

(٢) الزمر : ٥٣ .   (٣) نوح : ١٠ - ١٢ .

(٤) هود : ٥٢ .   (٥) هود : ٦١ .   (٦) هود : ٩٠ .

وقال تعالى لخاتم رسله محمد ﷺ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾(١)

والاستغفار الحقيقى يتضمن التوبة ، كما أن التوبة تتضمن الاستغفار ، وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الانفراد .

وأما إذا اقترنا فى سياق واحد،كما فى قوله : « استغفروا ربكم ثم توبوا إليه » فالاستغفار يعنى : طلب وقاية شــــر ما مضى من ذنوبه ، والتوبة تعنى : الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله .

قال الإمام ابن القيم : فهاهنا ذنبان : ذنب قد مضى ، فالاستغفار منه : طلب وقاية شره ، وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على أن لا يفعله ، والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شر ما مضى ، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله . .

وأيضًا فالاستغفار من باب إزالة الضرر،والتوبة طلب جلب المنفعة ؛ فالمغفرة : أن يقيه شر الذنب ، والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه ، وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده (٢) .

وحاجة الإنسان إلى مغفرة الله: حاجة أساسية ، لأن نعم الله عليه لا تحصى ، وتقصيره فى حقه تعالى لا ينكر ، ولو قال امرؤ من الناس : أنا قد قمت لله بكل حقه ، ولم أقصر فى مثقال ذرة منه ، لكان هذا نفسه أول الذنوب ، لأنه العُجْب بعينه ، والغرور القاتل ، لهـذا كان كل الناس فى حاجـــة إلى المغفرة ، وفى هذا قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ﴾ (٣) فجعل المسارعة مطلوبة إلى المغفرة قبل الجنة ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ (٤) .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ

---

(١) فصلت : ٦ .

(٢) مدارج السالكين : ١ / ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

(٣) آل عمران : ١٣٣ .

(٤) الحديد : ٢١ .

عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [1] . فكان ربح تجارتهم : المغفرة ، ثم إدخال الجنات .

ومن حاجة الإنسان إلى المغفرة ، تنشأ حاجته إلى الاستغفار ، فهو لا يستغنى عنه أبدًا ، لا ليلاً ولا نهارًا ، كما لا يستغنى عن الطعام والشراب ، كما قال تعالى فى الحديث القدسى الشهير الذي رواه النبى عن ربه عز وجل : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم » [2] .

وقال ﷺ : « والذى نفسى بيده لو لم تذنبوا ، لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم » [3] .

ولهذا وصف القرآن خيار عباد الله بأنهم يستغفرون الله تبارك وتعالى ، وخصوصا فى ساعات الأسحار ، وعند الوقوع فى أوحال الذنوب .

وصف الله تعالى أهل التقوى الذين يستحقون جنته ورضوانه، فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ ، وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾ [4] .

وفى نفس السورة حدثنا الله عن الربانيين الذين قتل منهم من قتل فى سبيل الله ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا فقال : ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا

---

(1) الصف : ١٠ - ١٢ . (2) رواه مسلم من حديث أبى ذر .

(3) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة . صحيح الجامع الصغير (٧٠٧٤) .

(4) آل عمران : ١٥ - ١٧ .

وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [1] . فقبل أن يسألوا الله التثبيت والنصر ، سألوه المغفرة لذنوبهم وإسرافهم فى أمرهم ، وفى هذا اتهام لأنفسهم بالتفريط بدل أن يتهموا الله تعالى بأنه خذلهم !! .

وفى السورة أيضًا حديث عن (أولى الألباب) الذين دعوا ربهم بجملة أدعية ، فكان فيها : ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾[2]

وفى سورة أخرى أثنى الله على المتقين المحسنين من أوليائه ، فقال : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ*كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ *وبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[3] .

قال الحسن : كابدوا قيام الليل ، فلا ينامون إلا أقله ، ونشطوا فمدوا إلى السحر ، حتى كان الاستغفار بسحر .

فياعجبًا ! يقضون الليل فى عبادة وصلاة ، ثم يأتى السحر فيستغفرون ! كأنهم لازالوا يشعرون بالتقصير .

قال ابن كثير : وقد ثبت فى الصحاح وغيرها عن جماعة من الصحابة عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، حين يبقى ثلث الليل الأخير ، فيقول : هل من تائب فأتوب عليه ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ هل من سائل فيعطى سؤله ؟ حتى يطلع الفجر » .

وأوجب ما يكون الاستغفار عند الوقوع فى مهاوى المعاصى وأرجاس الذنوب ، ومن ذا الذى يسلم من ذلك ؟ وهنا يجد فى الاستغفار أداة يتعلق بها لتنهضه من عثرته ، ومغسلة يتطهر بها من أدران ذنبه ، فقد ذكر تعالى من أوصاف المتقين فى كتابه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا

---

(1) آل عمران : ١٤٧ .
(2) آل عمران : ١٩٣ .
(3) الذاريات : ١٥ - ١٨ .

لذُنُوبِهِمْ ، وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَافَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ (٢) .

ولقد مدح الله أنبياءه فى القرآن بالاستغفار ، فهم أسرع الناس إليه ، وأحرصهم عليه .

فى قصة آدم أبى البشر لجأ إلى الاستغفار حين وسوس إليه الشيطان حتى أكل من الشجرة التى نهى عن الأكل منها هو وزوجه ، فسرعان ما قرع باب الله مستغفراً منيبًا إليه : ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (٣) .

ونوح شيخ المرسلين عليه السلام يدعو ربه مستغفرًا له ولوالديه ، ولكل من له حق عليه ، وللمؤمنين والمؤمنات : ﴿ رَّبِّ اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِى مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (٤) .

وإبراهيم يقول : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِى وَلِوَالِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ (٥) .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٦) .

وموسى يتورط قبلَ بعثته فى قتل خطأ فلاذ بجناب ربه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَاغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُ ، إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٧) .

---

(١) آل عمران : ١٣٥ . (٢) النساء : ١١٠ .
(٣) الأعراف : ٢٣ . (٤) نوح : ٢٨ .
(٥) إبراهيم : ٤١ . (٦) الممتحنة : ٤ ، ٥ .
(٧) القصص : ١٦ .

وفى مقام آخر قال : ﴿ إنْ هِيَ إلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾[1] .

وقال سبحانه فى قصة داود : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [2] .

وقال فى قصة سليمان : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ﴾ [3] .

ومحمد عليه الصلاة والسلام أمر بالاستغفار فى آيات كثيرة ، كما فى قوله تعالى فى القرآن المكى : ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴾ [4] .

وفى القرآن المدنى أمره الله بالاستغفار فى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرِ اللهَ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [5] .

كما أمره الله تعالى بالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات ، فقال : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [6] .

وقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [7] .

وهذه السورة من أواخر ما نزل من القرآن ، أى أنها نزلت فى أواخر حياته ﷺ ، وبعد نزول قوله تعالى فى سورة الفتح ﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ

---

(١) الأعراف : ١٥٥ .
(٢) سورة ص : ٢ .
(٣) سورة ص : ٣٥ .
(٤) غافر : ٥٥ .
(٥) النساء : ١٠٦ .
(٦) محمد : ١٩ .
(٧) النصر : ١ - ٣ .

وَمَا تَأَخَّرَ ،وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ (١) ، فهذه نزلت فى السـنة السادسة من الهجرة بعد صلح الحديبية المعروف ، الذى سماه الله تعالى فتحًا مبينًا .

ومع هذا أمر بالاستغفار ، وكان أكثر الناس استغفاراً لربه ، كان أصحابه يعدون له فى المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يقولُ : رب اغفر لى وتب على . روى النسائى عن ابن عمر أنه سمع النبى ﷺ يقول :« استغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم ، وأتوب إليه » فى المجلس قبل أن يقوم : مائة مرة » وفى رواية : « إن كنا لنعد لرسول الله ﷺ فى المجلس : رب اغفر لى وتب على ، إنك أنت التواب الغفور : مائة مرة » (٢) .

وفى صحيح مسلم من حديث الأغر المزنى : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة : « والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وفسر العلماء (الغين) الذى يعترى قلبه عليه الصلاة والسلام بأنه : فترة الانشغال عن الذكر الذى شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر عنه لأمر ما ، عد ذلك ذنبا ، فاستغفر الله منه .

وقيل : هو شيىء يعترى القلب ، مما يقع من حديث النفس ، بحكم الطبيعة البشرية .

وقيل : الأنبيـاء أشـد الناس اجتهادا فى طاعة الله ، لما حباهم من المعرفة

---

(١) الفتح : ٢ .

(٢) فتح البارى : ١١ / ١٠١ ، ١٠٢ .

بحقه ، فهم دائبون فى شكره ، معترفون له بالتقصير أبدًا بما يجب له سبحانه وقال الغزالى فى (الإحياء) : كان ﷺ دائم الترقى ، فكلما ارتقى إلى حال رأى ما قبلها دونها ، فاستغفر من الحالة السابقة (١) .

وقال المحاسبى : الملائكة والأنبياء أشد لله خوفًا ممن دونهم ، وخوفهم خوف إجلال وإعظام ، واستغفارهم من التقصير لا من الذنب المحقق .

وقال القاضى عياض : يحتمل أن يكون قـوله : « رب اغفر لى خطيئتى » واغفر لى ما قدمت وما أخرت » على سبيل التواضع والاستكانة والخضوع ، والشكر لربه ، لما علم أنه قد غفر له (٢) .

وقد صح عنه ﷺ من صيغ الاستغفار وعباراته : ما لـم يرو عن رسـول ولا نبى ، مثل قوله فى الصلاة : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لي جِدي وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير » (٣) .

وقال : « سيد الاستغفار : أن تقـــول : « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت ! خلقتنى وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علىّ ، وأبوء بذنبى فاغفر لى ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٤) .

قال الشيخ ابن أبى جمرة : جمع ﷺ فى هذا الحديث ، من بديع المعانى ، وحسن الألفاظ : ما يحق له أن يسمى : « سيد الاستغفار » ، ففيه : الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية ، والاعتراف بأنه الخالق ، والإقرار بالعـــهد الذى أخذه

(١) فتح البارى : ١١ / ١٠١ ، ١٠٢ .   (٢) فتح البارى : ١١ / ١٩٨ .
(٣) رواه الشيخان عن أبى موسى ، الفتح ١١/ ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٤) رواه البخارى فى كتاب الدعوات عن شداد بن أوس برقم (٦٣٠٦) .

عليه ، والرجاء بما وعده به ، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه ، وإضافة النعمة إلى موجدها ، وإضافة الذنب إلى نفسه ، ورغبته فى المغفرة ، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو ، وفى كلٍّ ذلك الإشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة ، فإن تكاليف الشريعة لا تحصل إلا إذا كان فى ذلك عون من الله تعالى ، وهذا القدر هو الذى يكْنى عنه بالحقيقة » (١) (انتهى ملخصًا) .

* * *

شروط الاستغفار وآدابه :

للاستغفار المقبول عند الله شروط لابد منها ، وآداب مكملة لها :

١ - وأول هذه الشروط : صحة النية ، والإخلاص لله تعالى ، فإن الله سبحانه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجهه ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ (٢) .

وقال ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » متفق عليه .

٢ - وثانى هذه الشروط : أن يواطىء القلب اللسان على الاستغفار ، فلا يقول بلسانه : استغفر الله ، وقلبه مصر على المعصية ، وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما : المستغفر من الذنب وهو مقيم عليه كالمستهزىء بربه !

وقالت رابعة رضي الله عنها : استغفارنا يحتاج إلى الاستغفار ! وذلك لأنه يقول بلسانه ما ليس فى قلبه .

٣ - ومن الآداب المكملة : أن يكون على طهارة ، حتى يكون فى أكمل أحواله ظاهرا وباطنا ، كما فى حديث على بن أبى طالب ، قال : حدثنى أبو بكر الصديق رضي الله عنه - وصدق أبو بكر : سمعت النبى ﷺ يقول : « ما من رجل يذنب ذنبا ، ثم يقوم فيتطهر فيحسن الطهور ، ثم يستغفر الله عز وجل ، إلا غفر له ، ثم

---

(١) فتح البارى : ١١ / ١٠٠ .   (٢) البينة : ٥ .

تلا [1] : ﴿ والَّذينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [2] .

وفي حديث أبي بكر مرفوعا : « ما أصرَّ من استغفر ، ولو عاد في اليوم سبعين مرة » [3] .

٤ - ومن هذه الآداب : أن يستغفر الله تعالى ، وهو بين الخوف والرجاء ، فقد وصف الله تعالى نفسه بقوله ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ العِقَابِ ﴾ [4] : وقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [5] ، ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ ﴾ [6] .

﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [7] .

وأمثال هذه الآيات كثير، وكلها تغرس في القلب التوازن بين الخوف والرجاء. فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ، ولا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون .

فلا ينبغي للعاصي أن يدع الاستغفار مهما تكن ذنوبه من الكثرة ، والعظم ، فإن مغفرة الله تعالى أعظم منها ، ورحمته أوسع ، وعفوه أكبر .

وفي الحديث القدسي الشهير الذي رواه مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ عن ربه عز وجل : « يا عبادي ، إنكم تذنبون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعا ، فاستغفروني أغفر لكم » .

---

(١) قال الحافظ : أخرجه أحمد والأربعة وصححه ابن حبان ، الفتح: ١١ / ٩٨ . ونسبه في الجامع الصغير إلى أبي داود والترمذي . وذكره الألباني ضعيف الجامع (٥٠٠٦) .

(٢) آل عمران : ١٣٥ .

(٣) في الفتح : أخرجه أبو داود والترمذي - نفسه .

(٤) غافر : ٣ . (٥) المائدة : ٩٨ .

(٦) الرعد : ٦ . (٧) الحجر : ٤ .

٥ - ومن ذلك : أن يتخـــير الأوقات الفاضلة ، مثل أوقات السحر ، كما قال تعالى : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[1] ، ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[2] .

ولما قال أبناء يعقـــوب لأبيهـــم : ﴿ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[3] قال المفسرون : إنه آخر الاستـغفار إلى وقت السحر ، لأنه أقرب إلى الاستجابة ، وأبعد عن الرياء، وأصفى للقلوب ، وهو وقت التجلى الإلهى فى الثلث الأخير من الليل .

٦ - ومن الآداب : الاستغفار فى الصلاة : فى الســجود ، وقبل الســلام ، أو بعد السلام .

وقد علم النبى ﷺ أبا بكر الصديق أن يقول فى الصلاة قبل السلام : « اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفــرة من عندك ، وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

٧ - ومن الآداب : أن يدعو لنفسه وللمؤمنين ، فيدخل فى زمرتهم ، عسى أن يرحمه الله تعالى ويغفر له ببركتهم وفى زمرتهم .

ولهذا نجد الأنبياء لا يقتصرون على الاستغفار لأنفسهم ، بل لهم ولوالديهم وللمؤمنين والمؤمنات كما فى دعاء نوح وإبراهيم وغيرهما .

فمن دعاء نوح : ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾[4] .

ومن دعاء إبراهيم : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾[5] .

---

(١) آل عمران : ١٧ . (٢) الذاريات : ١٨ .
(٣) يوسف : ٩٧ ، ٩٨ . (٤) نوح : ٢٨ .
(٥) إبراهيم : ٤١ .

٨ - ومن الآداب : أن يدعو ويستغفر بالصيغ المذكورة فى القرآن ، والمأثورة فى السنة ، فهى أنصع بيانا ، وأرجح ميزانا ، وأجمع للمعانى ، وأروع فى المبانى ، وأعظم تأثيرا فى القلوب ، بخلاف ما يصنعه الناس من صيغ يختارونها ، وأوراد يؤلفونها ، فلن يكون لها حلاوة الكلمات القرآنية ، وطلاوة العبارات النبوية .

على أن فى الاستغفار والدعاء بالمأثور أجرين :

١ - أجر الدعاء والاستغفار .

٢ - وأجر الاتباع والاقتداء .

ومن الصيغ والأدعية القرآنية : الأدعية التى ذكرها القرآن عن آدم ونوح وإبراهيم وغيرهم من الرسل والأنبياء والصالحين . مثل :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

﴿ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ المصيرُ * رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا ، إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٢) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ (٣) .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (٥) .

---

(١) الأعراف : ٢٣ .　(٢) الممتحنة : ٤ ، ٥ .

(٣) آل عمران : ١٤٧ .　(٤) الحشر : ١٠ .　(٥) آل عمران : ١٩٣ .

ومن الحديث : جاءت صيغ كثيرة متنوعة ، منها : سيد الاستغفار ، الذى تقدم ذكره ·

ومنها : اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى وإســـرافى فى أمرى ، وقد تقدم ·

ومنها : « اللهم باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم اغسلني من خطاياى بالماء والثلج والبرد ، اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » رواه البخارى عن أبى هريرة ورواه الشيخان عن عائشة · وقد كان يدعو به بعد تكبيرة الإحرام ، وقبل قراءة الفاتحة ·

ومنها : « اللهم اغفر لى ذنبى ، ووسع لى فى دارى ، وبارك لى فى رزقى » رواه أحمد والترمذى وحسنه أبو يعلى وغيرهم عن أبى موسى ·

هل ينفع الاستغفار مع الإصرار ؟ :

ومن الأسئلة التى تبرز هنا : هل ينفع الاستغفار صاحبه مع إصراره على المعصية ، صغيرة كانت أو كبيرة ؟ ·

اختلف أرباب السلوك فى ذلك :

فمنهم من قال : ينفع بإطلاق ، وإن لم يكن معه عزم وتوبة ·

ومنهم من قال : لا ينفع بإطلاق ، حتى يكون معه توبة ·

ومنهم من فصل فى ذلك ·

وأنا من هذا الصنف الثالث ، فأقول : إن الاستغفار بمجرد اللسان ينفع المستغفر ، إذا صحبه حرارة الابتهال ، والصدق فى السؤال ، والتضرع فى الحال ، والشعور بالفقر إلى المغفرة فى الاستقبال ، فهو يسأل الله المغفرة سؤال عبد فقير إلى مولاه الغنى ، وسؤال مخلوق ضعيف إلى خالقه القوى ، وسؤال كائن صغير إلى ربه الكبير ، بل ربه الأكــبر ، الذى لا تضيق به رحمته ، ولا تعجزه مغفرته ، لا

تنفعه طاعته ، ولا تضره معصيته ، فهو إذا استغفر بهذا الشعور ، وبهذه الروح ، جدير ألا يضيع استغفاره هباء · ومن الأدلة على ذلك :

أولا : ما سبق إيراده من آيات القرآن وأحاديث الرسول فى فضل الاستغفار ، وهى غزيرة وفيرة ، وقد وردت مطلقة ، تشمل المصر وغيره ، فلماذا نقيدها بقيد عدم الإصرار ؟ ·

ثانيا : أن الاستغفار - ولو كان باللسان - حسنة فى ذاته تصلح لتكفير السيئات ، فكيف إذا كان معه التضرع والابتهال ؟ ·

وقد قال الإمام الغزالى رحمه الله : بل أقول : الاستغفار باللسان أيضًا : حسنة ؛ إذ حركة اللسان بها عن غفلة : خير من حركة اللسان بغيبة ، أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب ، ولذا قال بعضهم لشيخه أبى عثمان المغربى : إن لسانى يجرى بالذكر والقرآن ، وقلبى غافل ! فقال له : اشكر الله تعالى ، إذ استعمل جارحة من جوارحك فى خير ، وعوده الذكر ، ولم يستعمله فى الشر ، ولم يعوده الفضول (1) !

ثالثا : أن لله تعالى وعد - ووعده الحق - أنه لا يضيع عمل عامل ، ولا أجر محسن ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (2) ﴿ فَإِنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ المحْسِنِينَ ﴾ (3)، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾(4) ، ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (5) ، ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ﴾ (6) والاستغفار - كما ذكرنا - عمل ، وعمل حسن فى حد ذاته ·

---

(1) الإحياء : 4 ·
(2) الكهف : 30 ·
(3) هود : 11 ·
(4) الزلزلة : 7 ·
(5) النساء : 40 ·
(6) آل عمران : 195 ·

وأما الحـــــديث الـذى رواه ابن أبى الدنيـــا والبيهـــقى فى الشـعب عـن ابن عباس مرفوعا : « المســـتغفر من الذنب - وهو مصر عليه - كالمستهزىء بربه » فهو حديث ضعيف ، والراجح أنه موقوف على ابن عباس ، وليس بحديث نبوى[1]، وعلى فرض التسليم بثبوته ، فهو محمول على من قال ذلك بحكم العادة ، ومجاراة للآخرين ، مع الغفلة عن المعنى ، ودون تضرع ولا ابتهال .

وكذا ما نقل عن بعضهم من قوله : الاستغفار من غير إقلاع : توبة الكذابين ! وقول الآخر : أستغفر الله من قولى : أستغفر الله ! فهو محمول على الاستغفار بمجرد القول باللســـــان ، من غير أن يكون للقلب فيه شركة عمل .

وما قالته رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير ! فلا تظن أنها تذم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله ، بل تذم غفلة القلب ، فهو يحتاج إلى استغفار من غفلة جنانه ، لا من حركة لسانه ، فإن من سكت عن الاستغفار باللسان أيضاً يحتاج إلى استغفارين ، لا إلى استغفار واحد ! .

فهكذا ينبغى أن تفهم حمد ما يحمد ، وذم ما يذم ، وإلا جهلت معنى قول القائل : حسنات الأبرار سيئات المقربين ! فإن هذه أمـــور تثبت بالإضافة (أى أمور نسبية) فلا ينبغى أن تؤخذ عن غير إضافة ، بل ينبغى ألا يستحقر ذرات الطاعات والسيئات .

ولقد قال الإمام جعفر الصادق : إن الله تعالى خبأ ثلاثا فى ثلاث : خبأ رضاه فى طاعته ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل رضاه فيه ، وخبأ سخطه فى معاصيه ، فلا تحقروا منها شيئاً ، فلعل غضبه فيه ، وخبأ وليه فى عباده ، فلا تحقروا من عباد الله أحدا ، فلعله ولى الله .

وقال سهل بن عبد الله : لابد للعبد فى كل حال من مولاه ، فأحسن أحواله :

---

(١) ذكر الحافظ فى الفتح حديث ابن عباس ولفظه : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من الذنب وهو مقيم علـيه كالمســتهزئ بربه » فــقال : الراجــح أن قــوله : المستغفر إلى آخره : موقوف ، وأوله عند ابن ماجه والطبـــرانى من حديث ابن مسعود وسنده حسن .(الفتح : ١٣ / ٤٧١) .

أن يرجع إليه فى كل شىء مما قدره وقضاه ، فإن عصاه قال : يا رب استر علىّ ، فاذا فرغ من المعصية قال : يارب تب على ! فإذا تاب قال : يارب ، ارزقنى العصمة ! فإذا عمل الطاعة قال : يا رب تقبل منى ! .

وقال الغزالى فى الإحياء : إياك أن تستحقر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تبقيها ، كالمرأة الخرقاء ، تكسل عن الغزل ، تعللا بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد ، تقول : وأى غنى يحصل فى خيط واحد ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ لا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا [(١)] .

وذكر فى « كتاب الأذكار » عن الربيع بن خيثم أنه قال لا تقل : أستغفر الله وأتوب إليه ، فيكون ذنبا وكذبا إن لم تفعل ، بل قل : اللهم اغفر لى وتب على ، قال النووى : هذا حسن ، وأما كراهية (أستغفر الله) وتسميته كذبا ، فلا يوافق عليه ؛ لأن معنى (أستغفر الله) أطلب مغفرته ، وليس هذا كذبا . قال : ويكفى فى رده حديث ابن مسعود بلفظ : « من قال : أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه : غفرت ذنوبه وإن كان قد فر من الزحف » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه الحاكم . قال الحافظ بن حجر : هذا فى لفظ (أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم » وأما « أتوب إليه » فهو الذى عنى الربيع رحمه الله أنه كذب ، وهو كذلك إذا قاله ولم يفعل التوبة كما قال » وفى الاستدلال للرد عليه بحديث ابن مسعود نظر ؛ لجواز أن يكون المراد منه ما إذا قالها وفعل شروط التوبة ، ويحتمل أن يكون الربيع قصد مجموع اللفظين ، لا خصوص (أستغفر الله) فيصح كلامه كله ، والله أعلم .

قال الحافظ : ورأيت فى الحلبيات للسبكى الكبير : الاستغفار طلب المغفرة إما

---

(١) من إحياء علوم الدين ، كتاب التوبة بتصرف .

باللسان أو بالقلب أو بهما ، فالأول فيه نفع لأنه خير من السكوت ، ولأنه يعتاد قول الخير ، والثاني نافع جداً ، والثالث أبلغ منهما ، لكنهما لا يمحصان الذنب حتى توجد التوبة ، فإن العاصي المصر يطلب المغفرة ، ولا يستلزم ذلك وجود التوبة منه ، إلى أن قال : والذي ذكرته من أن معنى الاستغفار هو غير معنى التوبة ، هو بحسب وضع اللفظ ، لكنه غلب عند كثير من الناس أن لفظ (أستغفر الله) معناه التوبة ، فمن كان ذلك معتقده ، فهو يريد التوبة لا محالة ، ثم قال : وذكر بعض العلماء أن التوبة لا تتم إلا بالاستغفار لقوله تعالى ﴿ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ والمشهور أنه لا يشترط [1] .

* * *

---

(١) فتح الباري : ١٣ / ٤٧٢ .

تتمات التوبة وأحكامها

- تمام التوبة ودوامها .
- قضاء حقوق الله .
- مظالم الخلق .
- التوبة من حقوق العباد .
- توبة من تعذر عليه رد الحقوق المالية .
- من عاوض غيره معاوضة محرمة .
- مظالم العباد الأدبية كالغيبة والسب .
- توبة العاجز عن المعصية .
- قبول التوبة .
- التوبة مقبولة من ناحية سنن الله .
- علامات التوبة المقبولة .
- القائلون : لا توبة للقاتل وأدلتهم .
- حجج الجمهور على قبول التوبة من القاتل .
- حكم القاتل إذا اقتص منه .
- أقسام الناس فى التوبة .

تمام التوبة ودوامها

قال الإمام الغزالى :

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا ، وذلك الندم أورثه العلم بكون المعاصى حائلا بينه وبين محبوبه ، ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتمام ، ولتمامها علامة ، ولدوامها شرط ، فلابد من بيانها .

أما العلم فالنظر فيه نظر فى سبب التوبة وسيأتى .

وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب ، وعلامته طول الحسرة والحزن ، وانسكاب الدمع ، وطول البكاء والفكر ، فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو ببعض أعزته،طال عليه مصيبته وبكاؤه ، وأى عزيز أعز عليه من نفسه؛وأى عقوبة أشد من النار ؟ وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصى ؟ وأى مخبر أصدق من الله ورسوله ؟ ولو حدثه إنسان واحد يسمى طبيبا : أن مرض ولده المريض لا يبرأ ، وأنه سيموت منه ، لطال فى الحال حزنه ، فليس ولده بأعز من نفسه ، ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ، ولا الموت بأشد من النار ، ولا المرض بأدل على الموت من المعاصى على سخط الله تعالى ، والتعرض بها للنار : فألم الندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى ، فعلامة صحة الندم : رقة القلب ، وغزارة الدمع ، وفى الأثر : « جالسوا التوابين ، فإنهم أرق أفئدة » ومن علامته : أن تتمكن مرارة تلك الذنوب فى قلبه بدلا عن حلاوتها ، فيستبدل بالميل كراهية ، وبالرغبة نفرة .

وفى الإسرائيليات : أن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه ، وقد سأله قبول توبة عبد ، بعد أن اجتهد سنين فى العبادة ، ولم ير قبول توبته : فقال : وعزتى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته ، وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه فى قلبه .

وأما القصد الذى ينبعث منه ، وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال ، وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له ، وأداء كل فرض هو متوجه عليه فى الحال ، وله تعلق بالماضى ؛ وهو تدارك ما فرط منه،وبالمستقبل ؛ وهو دوام الطاعة ، ودوام ترك المعصية إلى الموت .

* * *

قضاء حقوق الله :

" وشرط صحتها فيما يتعلق بالماضى : أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالسن أو الاحتلام (أقول : والمرأة بالسن أو بالحيض) ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة ، وشهرا شهرا ، ويوماً يوماً ، ونفَسا نفَسا ، وينظر إلى الطاعات : ما الذى قصر فيه منها ؟ وإلى المعاصى : ما الذى قارفه منها ؟ .

فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها فاقدة شرطا من شروط صحتها ، فيقضيها عن آخرها ، فإن شك فى عدد ما فاته منها : حسب من مدة بلوغه ، وترك القدر الذى يستيقن أنه أداه ، ويقضى الباقى ، وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ، ويصل إليه على سبيل التحرى والاجتهاد .

وأما الصوم فإن كان قد تركه فى سفر أو مرض (أو : أفطرت المرأة بسبب الحيض أو النفاس ولم تقضه) ، فيتعرف مجموع ذلك بالتحرى والاجتهاد ، ويشتغل بقضائه .

وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أوّل ملكه - لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة فى مال الصبى [1] - فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه فى ذمته .

وأما الحج فإن كان قد استطاع فى بعض السنين ، ولم يتفق له الخروج

---

(١) هذا هو رأى جمهور الأئمة وهو الذى رجحته فى كتابى (فقه الزكاة) .

إلى الحج والآن قد أفلس فعليه الخروج ، فإن لم يقدر مع الإفلاس ، فعليه أن يكتسب من الحلال قدر الزاد ، فإن لم يكن له كسب ولا مال ، فعليه أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به، فإنه إن مات قبل الحج مات عاصيا ، والعجز الطارىء بعد القدرة لا يسقط عنه الحج ، فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها .

وأما المعاصي ، فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه ، وبصره .، ولسانه ، وبطنه ، ويده ، ورجله ، وفرجه ، وسائر جوارحه ، ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ، ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه ، حتى يطلع على جميعها صغائرها وكبائرها ، ثم ينظر فيها ، فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد ، كنظر إلى غير محرم ، وقعود في مسجد مع الجنابة ، ومس مصحف بغير طهارة ، واعتقاد بدعة ، وشرب خمر ، وسماع ملاه ، وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد ، فالتوبة عنها بالندم والتحسر عليها ، وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ، ومن حيث المدة ، ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسيها ، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات ، أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها »[1] ، بل من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾[2] فيكفر سماع الملاهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ، ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ، ويكفر مس المصحف محدثا بإكرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه ، وكذلك بأن يكتب مصحفا ويجعله وقفا ، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه ، وعدّ جميع المعاصي غير ممكن ، وإنما المقصود سلوك الطريق المضادة ، فإن المرض يعالج بضده ، فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمعصية فلا يمحوها إلا نور يرتفع إليها بحسنة تضادها ، والمتضادات هي المتناسبات ، فلذلك ينبغي أن تمحى كل سيئة بحسنة من جنسها ، لكن تضادها ،

---

(١) رواه الترمذي عن أبي ذر وصححه وقد تقدم . (٢) هود ، ١١٤ .

بين البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة ، وهذا التدريج والتحقيق من التلطف في طريق المحو ، فالرجاء فيه أصدق ، والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المحو . فهذا حكم مابينه وبين الله تعالى . ويدل على أن الشيء يكفر بضده : أن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، وأثر اتباع الدنيا في القلب : السرور بها والحنين إليها ، فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم ينبو بسببه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له ، إذ القلب يتجافى بالهموم والغموم عن دار الهموم .

* * *

مظالم الخلق :

وأما مظالم العباد ، ففيها أيضاً معصية وجناية على حق الله تعالى ، فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضًا ، فما يتعلق منه بحق الله تعالى ، تداركه بالندم والتحسر ، وترك مثله في المستقبل ، والإتيان بالحسنات التى هى أضدادها ، فيقابل إيذاءه الناس بالإحسان إليهم ، ويكفر غصب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ، ويكفر تناول أعراضهم بالغيبة والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين ، وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ، ويكفـر قتل النفوس بإعتاق الرقاب ، لأن تلك إحياء ، إذ العبد الرقيق مفقود لنفسه موجود لسيده ، والإعتاق إيجاد لا يقدر الإنسان على أكثر منه ، فيقابل الإعدام بالإيجاد المقدور . وبهذا تعرف أن ماذكرناه من سلوك طريق المضادة فى التكفير والمحو مشهود له فى الشرع حيث كفر القتل بإعتاق رقبة . ثم إذا فعل ذلك كله لم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ، ومظالم العباد إما فى النفوس أو الأموال أو الأعراض أو القلوب ، أعنى به الإيذاء المحض .

أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية[1] ، ووصولها إلى المستحق ، إما منه ، أو من عاقلته ، وهو فى عهدة ذلك قبل الوصول ، وإن كان عمدا موجبا للقصاص فبالقصاص ، فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولى الدم ، ويحكمه فى روحه ، فإن شاء عفا عنه ، وإن شاء قتله ، ولا تسقط عهدته إلا بهذا ، ولا يجوز له الإخفاء .

---

(١) وعليه أيضا كفارة : تحرير رقبة مؤمنة ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين .

وليس هذا كما لو زنى أو شرب ، أو سرق ، أو قطع الطريق ، أو باشر ما يجب عليه فيه حد لله تعالى، فإنه لا يلزمه فى التوبة أن يفضح نفسه، ويهتك ستره ، ويلتمس من الوالى استيفاء حق الله تعالى ، بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ، ويقيم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب ، فالعفو فى محض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين ، فإن أمر هذه إلى الوالى ، حتى إذا أقام عليه الحد وقع موقعه ، وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى ، بدليل ما صح أن ماعز بن مالك أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى قد ظلمت نفسى وزنيت ، وإنى أريد أن تطهرني ! فرده ، فلما كان من الغد أتاه فقال : يا رسول الله ، إنى قد زنيت ! فرده الثانية ، فلما كان فى الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم ، فكان الناس فيه فريقين : فقائل يقول : لقد هلك ، وأحاطـــت به خطيئته ! وقائل يقول : ما توبة أصدق من توبته ، فقال رسول الله ﷺ « لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لوسعتهم » (١) .

وأما القصاص وحدّ القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه .

وإن كان المتناول مـــالا تناوله بغصب، أو خيانة ، أو غبن فى معاملة بنوع تلبيس ، كترويج زائف ، أو ستر عيب من المبيع ، أو نقص أجرة أجير ، أو منع أجرته . . فكل ذلك يجب أن يفتش عنه ، لا من حد بلوغه ، بل من أول مدة وجوده ، فإن ما يجب فى مال الصبى يجب على الصبى إخراجه بعد البلوغ ، إن كان الولى قد قصر فيه ، فإن لم يفعل كان ظالما مطالباً به ، إذ يستوى فى الحقوق المالية ، الصبى والبالغ ، وليحاسب نفسه على الحبات والدوانق ، من أول يوم حياته إلى يوم توبته ، قبل أن يحاسب فى القيامة ، وليناقش قبل أن يناقَش ، فمن لم يحاسب نفسه فى الدنيا ، طال فى الآخرة حسابه .

فإن حصل مجموع ما عليه بظن غالب ، ونوع من الاجتهاد ممكن ، فليكتبه ،

---

(١) أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الخصيب .

وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحدا ، وليطف فى نواحى العالم ، وليطلبهم وليستحلّهم ، أو ليؤد حقوقهم ، وهذه التوبة تشق على الظلمة ، وعلى التجار ، فإنهم لا يقدرون على طلب المعاملين كلهم ، ولا على طلب ورثتهم ، ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه ، فإن عجز فلا يبقى له طريق ، إلا أن يكثر من الحسنات ، حتى تفيض عنه يوم القيامة ، فتؤخذ حسناته ، وتوضع فى موازين أرباب المظالم ، ولتكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه ، فإنه إن لم تف بها حسناته ، حُمِّل من سيئات أرباب المظالم ، فيهلك بسيئات غيره !! ٠

فهذا طريق كل تائب فى رد المظالم،وهذا يوجب استغراق العمر فى الحسنات ، لو طال العمر ، بحسب طول مدة الظلم ، فكيف وذلك مما لا يعرف ؟ وربما يكون الأجل قريبا ؟ فينبغى أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذى كان فى المعاصى فى متسع الأوقات ٠٠ هذا حكم المظالم الثابتة فى ذمته ٠

أما أمواله الحاضرة ، فليرد إلى المالك ما يعرف له مالكا معينا ، وما لا يعرف له مالكا ، فعليه أن يتصدق به ، فإن اختلط الحلال بالحرام ، فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد، ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله فى كتاب الحلال والحرام ٠

وأما الجناية على القلوب بمشافهة الناس بما يسوؤهم ، أو يعيبهم فى الغيبة ، فيطلب كل من تعرض له بلسان ، أو آذى قلبه بفعل من أفعاله ، وليستحل واحدا واحدا منهم ، ومن مات أو غاب فقد فات أمره ، ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضا فى القيامة،وأما من وجده ، وأحله بطيب قلب منه ، فذلك كفارته ، وعليه أن يعرفه قدر جنايته وتعرضه له ، فالاستحلال المبهم لا يكفى ، وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه ، لم تطب نفسه بالإحلال ، وادخر ذلك فى القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمّله من سيئاته ٠

فإن كان فى جملة جنايته على الغير ما لو ذكره وعرفه لتأذى بمعرفته ، كزناه بجاريته أو أهله ، أو نسبته باللسان إلى عيب من خفايا عيوبه ، يعظم أذاه مهما شوّفه به ، فقد انسد عليه طريق الاستحلال ، فليس له إلا أن يستحل منها ثم تبقى له مظلمة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلمة الميت والغائب ٠

وأما الذكر والتعريف ، فهو سيئة جديدة يجب الاستحلال منها ، ومهما ذكر جنايته وعرفه المجنى عليه ، فلم تسمح نفسه بالاستحلال بقيت المظلمة عليه ، فإن هذا حقه ، فعليه أن يتلطف به ، ويسعى فى مهماته وأغراضه ، ويظهر من حبه والشفقة عليه ، ما يستميل به قلبه ، فإن الإنسان عبد الإحسان ، وكل من نفر بسيئة مال بحسنة ، فإذا طاب قلبه بكثرة تودده وتلطفه ، سمحت نفسه بالإحلال ، فإن أبى إلا الإصرار ، فيكون تلطفه به واعتذاره إليه ، من جملة حسناته التى يمكن أن يجبر بها فى القيامة جنايته ، وليكن قدر سعيه فى فرحه وسرور قلبه بتودده وتلطفه ، كقدر سعيه فى أذاه ، حتى إذا قاوم أحدهما الآخر ، أو زاد عليه ، أخذ ذلك منه عوضا فى القيامة يحكم الله به عليه ، كمن أتلف فى الدنيا مالا فجاء بمثله ، فامتنع من له المال من القبول ومن الإبراء فإن الحاكم يحكم عليه بالقبض منه ، شاء أم أبى ، فكذلك يحكم فى صعيد القيامة أحكم الحاكمين ، وأعدل المقسطين .

وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعقد مع الله عقدا مؤكدا ، ويعاهده بعهد وثيق : أن لا يعود إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها ، كالذى يعلم فى مرضه « أن الفاكهة تضره مثلا ، فيعزم عزما جزماً أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه ، فإن هذا العزم يتأكد فى الحال وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة فى ثانى الحال ، ولكين لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه فى الحال [(1)] .

وما ذكره الغزالى فيما يتعلق بحقوق العباد : مسلّم فى جملته ، وإن كان فيه بعض تفصيلات لابن القيم سنذكرها .

وأما فيما يتعلق بحقوق الله ، فهناك رأى آخر بالنسبة للصلاة ، وقضائها ، فرأى المذاهب الأربعة : وجوب قضاء الفوائت ، وإن مضت عليها عشرات السنين ، يقضى منها ما قدر عليه على مرور الوقت .

---

(1) الإحياء : جـ ٤ صـ ٣٤ - ٣٨ ببعض تصرف .

والرأى الآخر يقول : إن الصلاة التى تقضى ما كان فواتها عن نوم أو نسيان ، كما جاء فى الحديث الصحيح ، وما عدا ذلك فقد انتهى وقتها ، ولا يمكنه قضاؤها ، وإنما عليه أن يعوض ما فاته بصلاة النوافل، وإحسان الفرائض بإتمامها كما يحب الله : ركوعها وسجودها وخشوعها .

وكأنما يعتبر هذا الرأي من بدأ الصلاة بعد إضاعتها دهرًا طويلا ، كأنه دخل الإسلام من جديد ، فعليه أن يبدأ صفحة جديدة مع الله ، ويستبق الخيرات ، ويسارع إلى مغفرة من ربه وجنة عرضها السموات والأرض .

والموضوع فيه كلام كثير ، يرجع إليه فى الجزء الأول من (مدارج السالكين) لابن القيم ، وقد رجح هو وشيخه شيخ الإسلام ابن تيمية عدم القضاء ، وهو الذى أميل إليه لمن ضيع من عمره سنوات لم يحن فيها ظهره لله راكعا ، أو يعفر جبهته لله ساجداً .

ونقف بعض الوقفات فى حقوق العباد .

* * *

التوبة من حقوق العباد :

وللتشديد فى حقوق العباد ، وقيامها أصلا على المشاحّة ، كانت التوبة منها بأحد أمرين : إما أن يردها إلى صاحبها إن كان حيا ، أو ورثته إن مات .

وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به ؛ إن كان حقًّا ماليًّا أو جناية على بدنه أو بدن موروثه ، كما ثبت عن النبى ﷺ قال : « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض ، فليتحلله اليوم ، من قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات » (١) .

* * *

(١) رواه البخارى .

توبة من تعذر عليه رد الحقوق المالية :

وكل من ثبت عليه حقوق مالية للناس يجب عليه أن يرجعها إليهم ، أو إلى ورثتهم ، فإن لم يكن عنده ما يكفى سعى فى ذلك طول حياته ما استطاع ، وكلما حصَّل شيئاً قضى بعض ما عليه ، كل بنسبة حقه ودينه عند التائب وفق قسمة الغرماء ، فمن كان فى ذمته هذه الحقوق المالية ، ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها ، أو إلى ورثتهم ، لجهله بهم ، أو لانقراضهم ، أو لغير ذلك ، فاختلف فى توبة مثل هذا .

فقالت طائفة : لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها ، فإذا كان ذلك قد تعذر عليه ، فقد تعذرت عليه التوبة ، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا .

قالوا : فإن هذا حق الآدمى لم يصل إليه ، والله سبحانه لا يترك من حقوق عباده شيئًا ، بل يستوفيها لبعضهم من بعض ، ولا يجاوزه ظلم ظالم ، فلابد أن يأخذ للمظلوم حقه من ظالمه ، ولو لَطْمة ، ولو كلمة ، ولو رَمْية بحجر .

قالوا : وأقرب ما لهذا فى تدارك الفارط منه : أن يكثر من الحسنات ، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم ، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها . ومن أنفع ما لَهُ : الصبر على ظلم غيره له وأذاه ، وغيبته وقذفه ، فلا يستوفى حقه فى الدنيا ، ولا يقابله ، ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته ، فإنه كما يؤخذ منه ما عليه : يستوفى أيضًا ماله ، وقد يتساويان ، وقد يزيد أحدهما عن الآخر .

ثم اختلف هؤلاء فى حكم ما بيده من الأموال .

فقالت طائفة : يوقف أمرها ، ولا يتصرف فيها ألبتة .

وقالت طائفة : يدفعها إلى الإمام أو نائبه ، لأنه وكيل أربابها ، فيحفظها لهم ، ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة .

وقالت طائفة أخرى : بل باب التوبة مفتوح لهذا ، ولم يغلقه الله عنه ، ولا عن مذنب ، وتوبته : أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها بأن يدفعها إلى الفقراء والمحتاجين ، أو إلى جهات الخير ومصالح المسلمين .

ومنها : جماعات الجهاد فى سبيل الله ، ومراكز الدعوة إلى الإسلام ، فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لأرباب المال الخيار : بين أن يجيزوا ما فعل ، وتكون أجورها لهم ، وبين أن لا يجيزوا ، فيأخذوا من حسناته بقدر أموالهم ، ويكون ثواب تلك الصدقة له ، إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها ، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوَّض ، فيغرمه إياها ، ويجعل أجرها لهم ، وقد غرم من حسناته بقدرها .

قال ابن القيم :

وهذا مذهب جماعة من الصحابة ، كما هو مروى عن ابن مسعود ، ومعاوية وحجاج بن الشاعر .

فقد رُوى أن ابن مسعود « اشترى من رجل جارية ، ودخل يَزن له الثمن ، فذهب رب الجارية ، فانتظره حتى يئس من عوده ، فتصدق بالثمن ، وقال : اللهم هذا عن رب الجارية ، فإن رضى فالأجر له ، وإن أبى فالأجر لى ، وله من حسناتى بقدره .

و « غَلَّ رجل من الغنيمة ، ثم تاب ، فجاء بما غَلَّه إلى أمير الجيش ، فأبى أن يقبله منه ، وقال : كيف لى بإيصاله إلى الجيش ، وقد تفرقوا ؟ فأتى حجاج بن الشاعر ، فقال : يا هذا ، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم ، فادفع خُمسه إلى صاحب الخمس ، وتصدق بالباقى عنهم ، فإن الله يوصل ذلك إليهم - أو كما قال - ففعل . . فلما أخبر معاوية قال : لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إلىَّ من نصف ملكى ! .

قالوا : وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربَّها ، بعد تعريفها ، ولم يُرِدْ أن يتملكها ، تصدق بها عنه ، فإن ظهر مالكها خيَّره بين الأجر والضمان .

قالوا : وهذا لأن المجهول فى الشرع كالمعدوم ، فإذا جهل المالك صار بمنزلة المعدوم ، وهذا مال لم يعلم له مالك معين ، ولا سبيل إلى تعطيل الانتفاع به ، لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه وبالفقراء ، وبمن هو فى يده ، أما المالك : فلعدم وصول نفعه إليه ، وكذلك الفقراء ، وأما من هو فى يده : فلعدم تمكنه من الخلاص

من إثمه ، فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به ، ومثل هذا لاتبيحه شريعة ، فضلا عن أن تأمر به وتوجبه ، فإن الشرائع مبناها على (تحصيل) المصالح بحسب الإمكان وتكميلها ، وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليلها ، وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به : مفسدة محضة ، لا مصلحة فيها ، فلا يصار إليه .

إن المعلوم - كما ذكر ابن القيم - أن صاحب هذا المال الذى قد حيل بينه وبينه : أشد شىء رضا بوصول نفعه الأخروى إليه ، وهو أكره شىء لتعطيله ، أو إبقائه مقطوعاً عن الانتفاع به دنيا وأخرى ، وإذا وصل إليه ثواب ماله سَرَّه ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه فى الدنيا ، فكيف يقال : مصلحة تعطيل هذا المال - عن انتفاع الميت والمساكين به ومن هو بيده - أرجح من مصلحة إنفاقه شرعا ؟ بل أى مصلحة دينية أو دنيوية فى هذا التعطيل ؟ وهل هو إلا محض المفسدة ؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية - قدس الله روحه - سأله شيخ ، فقال : هَرَبت من أستاذى (أى سيدى) وأنا صغير وإلى الآن لم أطَّلِع له على خبر ، وأنا مملوك ، وقد خفت من الله عز وجل ، وأريد براءة ذمتى من حق سيدى من رقبتى ، وقد سألتُ جماعة من المفتين ، فقالوا لى : اذهب فاقعد فى المستودع ! فضحك شيخنا ، وقال : تصدق بقيمتك - أعلى ما كانت - عن سيدك ، ولا حاجة لك بالمستودع ، تقعد فيه عبثاً فى غير مصلحة ، وإضراراً بك ، وتعطيلا عن مصالحك ، ولا مصلحة لأستاذك فى هذا ، ولا لك ولا للمسلمين ، أو نحو هذا من الكلام . والله أعلم [1] .

* * *

(١) انظر : مدارج السالكين : ١ / ٣٨٧ - ٣٩٠ .

من عاوض غيره معاوضة محرمة :

المسألة الثانية : إذا عاوض غيره معاوضة محرمة ، وقبض العوض - كالزانية ، والمغنِّى ، وبائع الخمر ، وشاهد الزور ونحوهم - ثم تاب والعوض بيده .

فقالت طائفة : يرده إلى مالكه ، إذ هو عين ماله ، ولم يقبضه بإذن الشارع ، ولا حصل لربه فى مقابلته نفع مباح .

وقالت طائفة : بل توبته بالتصدق به ، ولا يدفعه إلى من أخذه منه ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية ، وهو أصوب القولين ، فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له ، ورضاه ببذله ، وقد استوفى عوضه المحرم ، فكيف يجمع له بين العوض والمعوض ؟ وكيف يرد عليه مالاً قد استعان به على معاصى الله ، ورضى بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانياً وثالثاً ؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان ؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع : أن يُقْضَى للزانى بكل مادفعه إلى من زنى بها ، ويؤخذ منها ذلك طوعاً أو كرهًا ، فيعطاه وقد نال عوضه ؟

وهَبْ أن هذا المال لم يملكه الآخذ ، فملكُ صاحبه ، زال عنه بإعطائه لمن أخذه ، وقد سَلَّم له ما فى قبالته من النفع ، فكيف يقال : ملكه باق عليه ، ويجب رده إليه ؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به ، فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضا صاحبه وبذله له بذلك ، وصاحبه قد رضى بإخراجه عن ملكه بذلك ، وأن لا يعود إليه ، فكان أحق الوجوه به : صرفه فى المصلحة التى ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم ، ولا يُقَوَّى الفاجر به ويُعان ، ويجمع له بين الأمرين .

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام ، وتعذر عليه تمييزه : أن يتصدق بقدر الحرام ، ويطيِّب باقى ماله ، والله أعلم .

* * *

مظالم العباد الأدبية كالغيبة والسب :

تلك هى التوبة من حقوق الخلق المالية ، فكيف تكون التوبة من حقوقهم الأدبية ، ومظالمهم المعنوية ، كأن تكون مظلمة الإنسان المعتدى عليه : بقَدْح فيه ، بغيبة أو قذف أو سب أو سخرية واستهزاء ، أو نحو ذلك ، فهل يشترط فى توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه ، أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه ، ولا يشترط تعيينه ، أو لايشترط لا هذا ولا هذا ، بل يكفى فى توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام مَنْ قذفه وإعتابه ؟

على ثلاثة أقوال ، وعن أحمد روايتان منصوصتان فى حد القذف ، هل يشترط فى توبة القاذف : إعلام المقذوف ، والتحلل منه أو لا ؟ ويخرَّج عليهما توبة المغتاب والشاتم ·

والمعروف فى مذهب الشافعى ، وأبى حنيفة ، ومالك : اشتراط الإعلام والتحلل ، هكذا ذكره أصحابهم فى كتبهم ·

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمى ، فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه ·

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول ، شرط إعلامه بعينه كأن يقول له : أنا سببتك وشتمتك ، أو أنا سخرت منك ، أو أنا اغتبتك وذكرتك بسوء ، لاسيما إذا كان من عليه الحق عارفا بمقداره ، فلا بد من إعلام مستحقه بحجم هذا الحق ، لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف مقداره ، فيقول له : أنا ظللت أغتابك عشر سنوات ، فقد يسامح فى غيبته مرة أو مرات ، ولا يسامح فى غيبته سنوات ·

واحتجوا بالحديث المذكور ، وهو قوله ﷺ : « من كان لأخيه عنده مظلمة - من مال أو عرض - فليتحلَّله اليوم » ·

قالوا : ولأن فى هذه الجناية حقين : حقا لله ، وحقا للآدمى ، فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه ، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه تعالى ·

قالوا : ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه ، إن شاء اقتص ، وإن شاء عفا ، وكذلك توبة قاطع الطريق .

والقول الآخر : أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه ، بل يكفى توبته بينه وبين الله ، وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه بضد ما ذكره به من الغيبة ، فيبدِّل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقَذْفَه بذكر عِفَّته ،وإحصانه ، ويستغفر له بقدر ما اغتابه .

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية ، قدس الله روحه .

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لا تتضمن مصلحة ، فإنه لا يزيده إلا أذًى وحنقا وَغَمًّا ، وقد كان مستريحاً قبل سماعه ، فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثه ضررا فى نفسه أو بدنه .

وما كان هكذا فإن الشارع لا يبيحه ، فضلا عن أن يوجبه ويأمر به .

قالوا : وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل ، فلا يصفو له أبداً ، ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولِّدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف . وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب ، والتراحم والتعاطف والتحابب .

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين :

أحدهما : أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه ، فلا يجوز إخفاؤها عنه ، فإنه محض حَقِّه ، فيجب عليه أداؤه إليه ، بخلاف الغيبة والقذف ، فإنه ليس هناك شىء ينفعه ، يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط ، فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس .

والثانى : أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ، ولم تهج منه غضباً ولا عداوة ، بل ربما سره ذلك وفرح به ، بخلاف إعلامه بما مَزَّق به عرضه طول عمره ، ليلاً ونهاراً ، من أنواع القذف والغيبة والهجو ، فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد ، وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت ، والله أعلم [1] .

* * *

(١) انظر : المدارج : ١ / ٢٨٩ - ٢٩١ .

التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره :

ومن الأسئلة المهمة المطلوب إجابتها وبيان حكمها هنا ، هذا السؤال وهو :

هل تصح التوبة من ذنب ، مع الإصرار على غيره ؟ .

فيه قولان لأهل العلم ، وهما روايتان عن الإمام أحمد ، ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها ، كالنووى وغيره .

وقد نقل أبو طالب المكى فى (قوت القلوب) عن بعض العلماء قوله : من تاب عن تسعة وتسعين ذنبا ، ولم يتب من ذنب واحد : لم يكن عندنا من التائبين [1] !

قال الإمام ابن القيم :

والمسألة مشكلة ، ولها غَوْر ، ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم ، والذين صححوها احتجوا بأنه لما صح الإسلام - وهو توبة من الكفر - مع البقاء على معصية لم يتب منها ، فهكذا تصح التوبة من ذنب ، مع بقائه على آخر .

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره ، لقوته ونفاذه ، وحصوله - تبعاً بإسلام الأبوين أو أحدهما - للطفل .

واحتج الآخرون بأن التوبة : هى الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته ، وأى رجوع لمن تاب من ذنب واحد ، وأصر على ألف ذنب ؟ .

قالوا : والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب ، لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته ، وتاب توبة نصوحا ، والمصرّ على مثل ما تاب منه - أو أعظم - لم يراجع الطاعة ، ولم يتب توبة نصوحا .

قالوا : ولأن التائب إذا تاب إلى الله ، فقد زال عنه اسم « العاصى » كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم « الكافر » وأما إذا أصر على غير الذنب الذى تاب منه فاسم « المعصية » لا يفارقه ، فلا تصح توبته .

---

(١) قوت القلوب : ١ / ١٩١ .

وسر المسألة : أن التوبة هل تتبعّض ، كالمعصية ، فيكون تائبا من وجه دون وجه ، كالإيمان والإسلام ؟

والراجح: تبعّضها، فإنها كما تتفاضل فى كيفيتها ، كذلك تتفاضل فى كميتها ، ولو أتى العبد بفرض وترك فرضاً آخر ، لاستحق العقوبة على ما تركه دون ما فعله ، فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر ؛ لأن التوبة فرض من الذنبين · فقد أدى أحد الفرضين وترك الآخر ، فلا يكون ما ترك موجبا لبطلان ما فعل ، كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة ·

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد ، معناه الإقلاع عما يكرهه الله ، والندم عليه ، والرجوع إلى طاعته ، فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة ، إذ هى عبادة واحدة ، فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالإتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها ، فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض ·

وأصحاب القول الآخر يقولون : كل ذنب له توبة تخصه ، وهى فرض منه ، لا تتعلق بالتوبة من الآخر ، كما لا يتعلق أحد الذنبين بالآخر ·

قال ابن القيم :

والذى عندى فى هذه المسألة : أن التوبة لا تصح من ذنب ، مع الإصرار على آخر من نوعه ، وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لا تعلق له به ، ولا هو من نوعه : فتصح ، كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلا ؛ فإن توبته من الربا صحيحة ، وأما إذا تاب من ربا الفَضْل ، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه ، أو بالعكس ، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر ، أو بالعكس : فهذا لا تصح توبته ، وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها ، أو تاب من شرب عصير العنب المسكر ، وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة ، فهذا فى الحقيقة لم يتب من الذنب ، وإنما عدل

عن نوع منه إلى نوع آخر ، بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها فى الجنس ، إما لأن وزرها أخف ، وإما لغلبة دواعى الطبع إليها ، وقهر سلطان شهوتها له ... وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة ، لا يحتاج إلى استدعائها ، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها .. وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه ، فلا يدعونه يتوب منها ، وله بينهم حظوة بها وجاه ، فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة (١) .

والذى يترجح لى فى هذه القضية : أن كل من تاب من ذنب توبة صادقة ، فإن المأمول فى أكرم الأكرمين : أن يقبل توبته ، من هذا الذنب بعينه ، وإن بقى متعلقا بذنب آخر من جنسه ، فمن تاب من عمل قوم لوط بصدق قبل الله توبته ، وإن ضعفت إرادته عن التوبة من الزنى ، ومن تاب عن ربا النسيئة ، قبل الله منه ، وإن بقى يمارس ربا الفضل ، أو تاب من الغيبة والنميمة ، وإن ظل يسخر من الناس أو يكذب فى القول أو غير ذلك من آفات اللسان .

وإنما صحت التوبة هنا ، لأن التوبة فى حد ذاتها حسنة ، بل حسنة عظيمة ، والله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢) .

ثم إنه تعالى قد وعد بقبول التوبة من عباده بوجه عام ، ولم يخص ذنبا من آخر ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ ﴾ (٣) وهذا قد تاب من ذنبه ، فهو أهل أن يقبل الله منه ، ويعفو عنه .

ثم إن هذا يوافق ما هو معروف فى هذا الباب من سعة الرحمة والمغفرة ، التى تسع كل مذنب،وكل تائب كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ .

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ٢٧٣ - ٢٧٥ .

(٢) النساء : ٤٠ .   (٣) الشورى : ٢٥ .

ثم هو أيضا الذى يعالج ضعف الإنسان ، ويأخذه بالتدرج ، ويفتح له الباب ، ليترقى شيئا فشيئا ، ويترك المعصية خطوة وخطوة ، ومرحلة بعد مرحلة ، حتى يهديه الله فى النهاية إلى تركها جميعا ، وقد جاء فى الحديث الصحيح « إنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين » .

ومما يدل لرأى الأكثرين فى قبول توبة التائب إذا تكرر منه الذنب ، وتكررت منه التوبة : ما رواه الشيخان البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « إن عبدا أذنب ذنبا ، فقال : رب ؛ أذنبت ، فاغفر لى ، فقال ربه : أعلم عبدى إن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به؟غفرت لعبدى . ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبا ، فقال: رب ! أذنبت آخر ، فاغفره ! فقال تعالى : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ، ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى. ثم مكث ما شاء الله ، ثم أذنب ذنبا . قال : قال : رب ! أذنبت آخر فاغفره لى ! فقال : أعلم عبدى أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى . . ثلاثا فليعمل ما شاء » [1].

قال العلامة القرطبى فى كتابه (المفهم فى شرح مسلم) :

يدل هذا الحديث على عظيم فائدة الاستغفار ، وعلى عظيم فضل الله ، وسعة رحمته ، وحلمه وكرمه ، لكن هذا الاستغفار هو الذى ثبت معناه فى القلب مقارنًا للسان ، لتنحل به عقد الإصرار ، ويحصل معه الندم ، فهو ترجمة للتوبة ، ويشهد له حديث : « خياركم كل مفتّن تواب » ومعناه : الذى يتكرر منه الذنب والتوبة ، فكلما وقع فى الذنب عاد إلى التوبة ، لا من قال بلسانه : استغفر الله ، وقلبه مصر على تلك المعصية ، فهذا الذى استغفاره يحتاج إلى الاستغفار !

قال الحافظ ابن حجر فى (الفتح) معلقا : ويشهد له ما أخرجه ابن أبى الدنيا من حديث ابن عباس مرفوعا : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له ، والمستغفر من

(١) متفق عليه : اللؤلؤ والمرجان (١٧٥٤) وأنظر : فتح البارى جـ ١٣ صـ ٤٦ وما بعدها .

الذنب ، وهـو مقيـم عليـه - كالمسـتهزئ بربـه » قال : والراجـح أن قـوله : « والمسـتغفر ... » إلى آخره : موقوف ، أى من كلام ابن عباس ، وليس حديثا نبويا ، وأوله عند ابن ماجه والطبرانى من حديث ابن مسعود ، وسنده حسن .

قال القرطبى : وفائدة هذا الحديث : أن العود إلى الذنب ، وإن كان أقبح من ابتدائه ، لأنه انضاف إلى ملابسة الذنب نقض التوبة ، لكن العود إلى التوبة أحسن من ابتدائها ، لأنه انضاف إليها ملازمة الطلب من الكريم ، والإلحاح فى سؤاله ، والاعتراف بأنه لا غافر للذنب سواه .

وقال الإمام النووى : فى الحديث أن الذنوب ، ولو تكررت مائة مرة - بل ألفا أو أكثر - وتاب فى كل مرة ، قبلت توبته ، أو تاب عن الجميع توبة واحدة صحت توبته ، وقوله : « اعمل ما شئت » - أو « فليعمل ما شاء » - معناه : ما دمت تذنب فتتوب ، غفرت لك . أ . هـ [1] .

صحيح أن التوبة الكاملة هى التوبة من جميع الذنوب ، وهى التى يترتب عليها الفلاح المذكور فى قـوله تعـالى : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [2] .

وهى التى تكفر بها جميع السيئات ، وتغفر بها جميع الذنوب ، وتدخل صاحبها جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه .

وهى التى توجب حب الله المطلق لأصحابها ، كما توجب فرحه بهم ، وضحكه لهم .

بل التوبة الكاملة ليست هى التى تمنع صاحبها من اقتراف المعاصى فقط ، بل هى التى تحفزه إلى اكتساب الطاعات ، وعمل الصالحات ، والالتزام بأحكام الشرع

---

(١) انظر : فتح البارى : ١٤ / ٤٧١ ، ٤٧٢ ط . دار الفكر المصورة عن السلفية .

(٢) النور : ٣١ .

وآدابه ظاهرا وباطنا فيما بينه وبين ربه ، وفيما بينه وبين نفسه ، وفيما بينه وبين خلقه أجمعين ، حتى يستحق الفلاح فى الأولى والآخرة ، والفوز بالجنة والنجاة من النار .

فينبغى أن نفرق بين هذه التوبة الكلية المطلقة التى توجب لأهلها الفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، وبين التوبة الجزئية المقيدة التى يتحرر بها صاحبها من ذنب معين ، وإن بقى مغلولا بذنوب أخرى ، فلكل من هاتين التوبتين حكمها .

توبة العاجز عن المعصية :

ومن الأسئلة التى ترد هنا : ما حكم العاصى إذا حيل بينه وبين أسباب المعصية ، وعجز عنها ، بحيث يتعذر وقوعها منه ، هل تصح توبته ؟ وهذا كالكاذب والقاذف ، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه ، والزانى إذا فقد الشهوة إلى الزنى ، والوالى الظالم إذا عزل عن سلطانه ، وفقد القدرة على الظلم ، وكل من وصل إلى حَدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتكبها .

يقول ابن القيم هنا : فى هذا قولان للناس :

فقالت طائفة : لا تصح توبته ؛ لأن التوبة إنما تكون ممن يمكنه الفعل والترك فالتوبة من الممكن ، لا من المستحيل ، ولهذا لا تتصور التوبة من نقل الجبال عن أماكنها ، وتنشيف البحار ، والطيران إلى السماء ، ونحوه .

قالوا : ولأن التوبة مخالفة داعى النفس ، وإجابة داعى الحق ، ولا داعى للنفس هنا ، إذ يعلم استحالة الفعل منها .

قالوا : ولأن هذا كالمكره على الترك ، المحمول عليه قهرا ، ومثل هذا لا تصح توبته .

قالوا : ومن المستقر فى فطر الناس وعقولهم : أن توبة المفاليس وأصحاب الجوائح : توبة غير معتبرة ، ولا يحمدون عليها ، بل يسمونها توبة إفلاس ، وتوبة جائحة .

قال الشاعر :

ورحت عن توبته سائلا وجدتها توبة إفلاس !

قالوا : ويدل على هذا أيضًا : أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التوبة عند معاينة الموت لا تنفع ، لأنها توبة ضرورة لا اختيار ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ، أُوْلَئِكَ اعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (١) و « الجهالة » ههنا : جهالة العمل ، وإن كان عالماً بالتحريم · قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ماعُصى الله به فهو جهالة ، عمداً كان أو لم يكن ، وكل من عصى الله فهو جاهل ·

وأما التوبة من قريب : فجمهور المفسرين : على أنها التوبة قبل المعاينة ، قال عكرمة : قبل الموت ، وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت ، وقال السدى والكلبى : أن يتوب فى صحته قبل مرض موته (٢) ، وفى المسند وغيره عن ابن عمر

(١) النساء : ١٧ ، ١٨ ·

(٢) قال السيد رشيد رضا رحمه الله ، معلقا على هذه الأقوال : اغتر الناس بظواهر هذه الأقوال فى تفسير الآية ، وهذه الأحاديث ، فصاروا يسوِّفون فى التوبة ، ويصرون على المعاصى ، فترسخ فى قلوبهم ، وتأنس بها أنفسهم ، وتصير ملكات وعادات يتعذر عليهم - أو يتعسر - على غير الموفق النادر الإقلاع عنها حتى يجيئهم الأجل الموعود . وليس معنى الآية : أن التوبة المقبولة المرضية التى أوجب الله على نفسه قبولها : هى ما كانت عن معاصٍ يصر المرء عليها إلى ما قبل غرغرة الموت ، ولو بساعات أو دقائق ، بل المراد القرب من وقت الذنب المانع مع الإصرار ، كما فى الآية الأخرى ، ولعل مراد عكرمة والضحاك وأمثالهما موافقة معنى الحديث ، من أن الله يقبل توبة العاصى ما لم يغرغر ، أى أنه على فرض أنه تاب فى أى وقت من الأوقات ، قبل الغرغرة والمعاينة ، تقبل توبته ، ولا يكون ذلك منافيا للآية ، فإن الإنسان قد يتوب قبل الغرغرة من ذنب عمله من عهد قريب ، ولكن قلما يتوب من الإصرار الذى رسخ فى الزمن البعيد ، فإن تاب فقلما يتمكن من إصلاح ما أفسده الإصرار من نفسه ليصدق عليه قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ · =

ﷺ عن النبى ﷺ قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر » وفى نسخة دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد مرفوعاً « إن الشيطان قال : وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الرب عز وجل : وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى (١) » ٠

فهذا شأن التائب من قريب ، وأما إذا وقع فى السياق - أى فى سياق الموت - فقال : إنى تبت الآن ! لم تقبل توبته ، وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار ، فهى كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، ويوم القيامة ، وعند معاينة بأس الله ٠

قالوا : ولأن حقيقة التوبة : هى كف النفس عن الفعل الذى هو متعلق النهى ، والكف إنما يكون عن أمر مقدور ، وأما المحال ، فلا يعقل كف النفس عنه ، ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب ، وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع ٠

قالوا : ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم ، يقترن به فعله المقدور ., والتوبة منه : عزم جازم على ترك المقدور ، يقترن به الترك ، والعزم على غير المقدور محال ، والترك فى حق هذا ضرورى ، لا عزم غير مقدور ، بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء ، ونقل الجبال ، وغير ذلك ٠

والقول الثانى - وهو الصواب - أن توبته صحيحة ممكنة ، بل واقعة ، فإن أركان التوبة مجتمعة فيه ، والمقدور له منها : الندم ، وفى المسند مرفوعاً « الندم توبة » فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه ، فهذه توبة ، وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه ، مع شدة ندمه على الذنب ، ولومه نفسه عليه ، ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه ، وعزمه الجازم ، ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله ٠

= وجملة القول : إن المراد أن الإصرار والتسويف خطر ، وإن كانت التوبة تقبل فى كل حال اختيار ، إذ الغالب أن المرء يموت على ما عاش عليه ، فليحذر المغرورون ٠

(١) الحديث ضعيف ، لأنه من رواية دراج وهو ضعيف ، وخصوصا فى روايته عن أبى الهيثم ٠

وإذا كان الشارع قد نَزَّل العاجــز عن الطـاعة منزلة الفاعل لها ، إذا صحت نيته ، كقوله فى الحديث الصحيح « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيما » وفى الصحيح أيضاً عنه « إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم ، قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة ، حبسهم العذر » وله نظائر فى الحديث ، فتنزيل العاجز عن المعصية ، التارك لها قهراً – مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه – منزلة التارك المختار أولى .

يوضحه : أن مفسدة الذنب التى يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة ، ومنشأ المفسدة معدوم فى حق هذا العاجز فعلا وعزمًا ، والعقوبة تابعة للمفسدة .

وأيضًا فإن هذا تعذر منه الفعل وما تعذر منه التمنى والوداد ، فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب ، ومن نيته : أنه لو كان سليما لباشره ، فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمنى ، والحزن على فوته ، فإن الإصرار متصور فى حقه قطعاً ، فيتصور فى حقه ضده ، وهو التوبة ، بل هى أولـى بالإمكان والتصور من الإصرار ، وهذا واضح .

والفرق بين هذا وبين المعاين ، ومن ورد القيامة : أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة ، والتوبة إنما تكون فى زمن التكليف ، وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف ، فالأوامر والنواهى لازمة له ، والكف متصـــور منه عن التمنى والوداد ، والأسف على فوته ، وتبديل ذلك بالنـــدم والحزن على فعله ، والله أعلم [1] .

* * *

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ٢٨٣ – ٢٨٦ .

هل يرجع التائب من الذنب إلى درجته قبل الذنب ؟ :

ومن الأسئلة الواردة هنا : أن العاصى إذا تاب من الذنب : هل يرجع إلى ما كان عليه من الدرجة التى حطه عنها الذنب ، أو لا يرجع إليها ؟ .

قال ابن القيم : اختلفوا فى ذلك .

فقالت طائفة : يرجع إلى درجته ، لأن التوبة تَجّب الذنب بالكلية ، وتُصَيِّره كأن لم يكن ، والمقتضى لدرجته : ما معه من الإيمان والعمل الصالح ، فعاد إليها بالتوبة .

قالوا : لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح ، فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته ، فحسنته بالتوبة رَقَّته إليها ، وهذا كمن سقط فى بئر ، وله صاحب شفيق ، أدلَى إليه حبلاً تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه ، فهكذا التوبة والعمل الصالح ، مثل هذا القرين الصالح ، والأخ الشفيق .

وقالت طائفة : لا يعود إلى درجته وحاله ، لأنه لم يكن فى وقوف ، وإنما كان فى صعود ، فبالذنب صار فى نزول وهبوط ، فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعدا به للترقى .

قالوا : ومثل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيراً واحدا ، ثم عرض لأحدهما ما رده على عقبه أو أوقفه، وصاحبه سائر ، فإذا استقال هذا رجوعَه ووقفته ، وسار بإثر صاحبه ، لم يلحقه أبدا ، لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى .

قالوا : والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه ، وكلما ازداد سيراً ازدادت قوته ، وذلك الواقف الذى رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - يحكى هذا الخلاف - ثم قال : والصحيح : أن من التائبين من لا يعود إلى درجته ، ومنهم من يعود إليها ، ومنهم من يعود إلى أعلى منها ، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب ، وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة .

قال : وهذا بحسب حال التائب بعد توبته ، وجدّه وعزمه ، وحذره وتشميره ، فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة ، وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله ، وإن كان دونه لم يعد إلى درجته ، وكان منحطا عنها ، وهذا الذى ذكره هو فصل النزاع فى هذه المسألة (١) .

وقد ضُرب لذلك مثل برجل خرج من بيته يريد الصلاة فى الصف الأول ، لا يلوي على شيء فى طريقه ، فعرض له رجل من خلفه جَبَذ ثوبه وأوقفه قليلاً ، يريد تعويقه عن الصلاة ، فله معه حالان :

أحدهما : أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة ، فهذه حال غير التائب .

الثاني : أن يجاذبه على نفسه ، ويتفلت منه ، لئلا تفوته الصلاة .

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال :

أحدها : أن يكون سيره جَمْزًا ووثباً ، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة ، فربما استدركه وزاد عليه .

الثاني : أن يعود إلى مثل سيره .

الثالث : أن تورثه تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً ، فيفوته فضيلة الصف الأول ، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت ، فهكذا حال التائبين السائرين سواء .

أيهما أفضل : المطيع أم التائب توبة نصوحا ؟ :

ومن الأسئلة المهمة فى باب التوبة هذا السؤال : هل المطيع الذى لم يعْصِ خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحاً ، أو هذا التائب أفضل منه ؟ .

قال ابن القيم : اختلف فى ذلك .

فطائفة رجحت مَنْ لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً ، واحتجوا بوجوه :

(١) المدارج : ١ / ٢٩٢ .

أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهـــم لله ، وهذا الذى لم يعص أطوع ، فيكون أفضل ·

الثانى : أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصـــيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى فوق ، فتكون درجته أعلى من درجته ·

الثالث : أن غاية التوبة : أن تمحو عن هذا سيئاته ، ويصير بمنزلة من لم يعملها ، فيكون سعيه فى مدة المعصية لا له ولا عليه ، فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح ؟ ·

الرابع : أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره ، ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب : كان حظه المقت ، وحظ المطيع الرضا ·

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم ، والتوبة ترياقه ودواؤه ، والطاعة هى الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة ، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه ·

السادس : أن العاصى على خطر شديد ، فإنه دائر بين ثلاثة أشياء :

أحدها : العطب والهلاك بشرب السم ·

الثانى : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك ·

والثالث : عود قوَّته إليه كما كانت أو خيراً منها ·

والأكثر إنما هو القسمان الأولان ، ولعل الثالث نادر جداً ، فهو على يقين من ضرر السم ، وعلى رجاء من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك ·

السابع : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطاً حصيناً ، لا يجد الأعداء إليه سبيلاً ، فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبداً ، والعاصى قد فتح فيه ثغراً ، وثَلَم فيه ثُلْمَةً ·

والثامن : أن طمع العدو فى هذا العاصـى إنما كان لضـعف علمه وضعف عزيمته ، ولذلك يسمى جاهلاً ، قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عُصى الله به فهو جهالة ، وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم﴿ وَلَمْ نَجِدْ

لَهُ عَزْمًا ﴾[1] وقال فى حق غيره ﴿ فاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[2] وأما من قويت عزيمته ، وكمل علمه ، وقوى إيمانه : لم يطمع فيه عدوه ، وكان أفضل .

التاسع : أن المعصية لابد أن تؤثر أثراً سيئاً ولابد : إما هلاكاً كلياً ، وإما خسراناً وعقاباً ، يعقبه : إما عفو ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خمود مصباح الإيمان ، وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير ، وعمل المطيع فى الزيادة ، ورفع الدرجات .

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى ﷺ خاصة ، فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات ، وأين هذا من هذا ؟ .

العاشر : أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله ، وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم ، وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله ، فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه ، فكسب عشرة أضعافه أيضًا ، فسافر ثالثاً أيضًا بهذا المال كله ، وكان ربحه كذلك ، وهلم جرا ، فإذا فَتَر عن السفر فى آخر أمره ، مرة واحدة ، فاته من الربح بقدر جميع ما ربح أو أكثر منه .

وطائفة رجحت التائب ، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه ، واحتجت بوجوه :

أحدها : أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله ، وأكرمها عليه ، فإنه سبحانه يحب التوابين .

الوجه الثانى : أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات ، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر ، ولم يجىء هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة ، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيما فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه .

---

(١) طه : ١١٥ .　　(٢) الأحقاف : ٣٥ .

الوجه الثالث : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ، ومخها ولبها . يوضحه :

الوجه الرابع : أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ، فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذُل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية ، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذُله ، وانكسار قلبه ، كما فى الأثر الإسرائيلى « يارب أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه .

ولعل هذه المعانى ترجح حال التائب إذا صدقت توبته وعوض ما فاته ، والله أعلم بالسرائر .

* * *

قبول التوبة

من تأمل ما جاء فى القرآن من آيات ، وفى السنة من أحاديث ، وعن الصحابة من آثار ، تبين له أن هذه النصوص تدلُّ بوضوح على أنَّ من تاب إلى الله توبةً نصوحاً ، واجتمعت شروطُ التوبة فى حقه ، فإنه يُقطع بقبول الله توبته ، كما يُقطع بقبول إسلام الكافر إذا أسلم إسلاماً صحيحاً ، وهذا قولُ الجمهور ، وكلامُ ابن عبد البرِّ يدلُّ على أنَّه إجماع .

ومن الناس من قال : لا يقطع بقبول التوبة ، بل يُرجى ، وصاحبُها تحت المشيئة وإن تاب ، واستدلوا بقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (١) فجعل الذنوب كُلها تحت مشيئته ، وربما استدل بالآيات التى استخدم القرآن فيها أداة الترجى ، مثل (عسى) و (لعل) ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (٢) ، وبقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) وقوله : ﴿ وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ (٥) .

والظاهر أن هذا فى حقِّ التائب ، لأن الاعتراف يقتضى الندم ، وفى حديث عائشة عن النبىِّ ﷺ قال : « إنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ، ثم تاب ، تاب الله عليه » (٦) .

---

(١) النساء : ٤٨ .
(٢) التحريم : ٨ .
(٣) القصص : ٦٧ .
(٤) النور : ١٦ .
(٥) التوبة : ١٠٢ .
(٦) رواه البخارى (٤١٤١) و (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠) وأحمد ٦ / ١٩٦ .

والصحيح قول الأكثرين ، وأن هذه الآيات لا تدلُّ على عدم القطع ، فإن الكريم إذا أطمع ، لم يقطع من رجائه المطمع ، ومن هنا قال ابنُ عباس : إن « عسى » من الله واجبة ، نقله عنه عليٌّ بن أبى طلحة [1] ، وقد ورد جزاءُ الإيمان والعمل الصالح بلفظ : « عسى » أيضًا ، ولم يدلَّ ذلك على أنه غيرُ مقطوع به ، كما فى قوله : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ فَعَسَى أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [2] .

وأما قوله : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [3] ، فإن التائب ممن شاء أن يغفر له ، كما أخبر بذلك فى مواضع كثيرة من كتابه .

التوبة مقبولة قطعا من ناحية وعد الله :

ولا ريب أن التوبة إذا استوفت أركانها ومقوماتها ، واستجمعت شرائطها : مقبولة عند الله تعالى لا محالة ، حسب وعده ، وحسب سنته سبحانه فى خلقه .

أما وعده فقد وصف نفسه بقوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ﴾[4] .

قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [5] .

وقال عز وجل : ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [6] .

فبين أن من أسمائه الحسنى (التواب) وهو الذى يوفق العاصى للتوبة ، ويقبلها منه ، فكل توبة من العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى : توبة قبلها للهداية والتوفيق ، وتوبة بعدها للقبول .

---

(١) رواه ابن جرير (١٦٥٥) وعلى بن أبى طلحة روايته عن ابن عباس مرسلة ، فإنه لم يره .

(٢) التوبة : ١٨ .

(٣) النساء : ٤٨ .

(٤) غافر : ٣ .

(٥) الشورى : ٢٥ .

(٦) التوبة : ١٠٤

وقال رجل لرابعة : إنى أكثرت من الذنوب والمعاصى ، فلو تبت هل يتوب الله على ؟ فقالت : لا ، بل لو تاب عليك لتبت !

تشير ﷺ إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾ (١) أى وفقهم للتوبة ليتوبوا ، فتوبتهم ثمرة لتوبته عز وجل ٠

ولذلك قال بعض الصالحين : أنا لا أحمل هم المغفرة ، بل أحمل هم التوبة !

وذلك لأن المغفرة نتيجة حتمية للتوبة ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) وإنما يغفر الله الذنوب جميعا بالتوبة ، حتى الشرك والكفر بالله تعالى وبرسله ، يغفره بالتوبة منه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾ (٣) .

حتى كفر الردة - وهو شر أنواع الكـفر - إن تاب منه ، ورجع عنه قبلت توبته ، ومحيت خطيئته ، كما قال تعالى : ﴿ كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ * إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) ،فلم يغلق فى وجوههم باب التوبة ، برغم عظم جريمتهم التى استوجبت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، ولكنهم إذا تابوا تاب الله عليهم ، فإن الله غفور رحيم ، فهذا مقتضى أسمائه وصفاته ، فمن يغفر إذا هو لم يغفر ؟ ومن يرحم إذا هو سبحانه لم يرحم ؟!

وآيات القرآن فى هذا الباب غزيرة وفيرة ، كلها تحمل وعد الله تعالى بالمغفرة

---

(١) التوبة : ١١٨ ٠ (٢) الزمر : ٥٣ ٠ (٣) الأنفال : ٣٨ ٠
(٤) آل عمران : ٨٦ - ٨٩ ٠

وقبول التوبة ، ووعده تعالى حق ، وقوله صدق: ﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴾ [1] ، ﴿ وَعْدَ اللهِ ، لاَ يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ ﴾ [2] .

يؤكد ذلك ما جاء فى الأحاديث النبوية الشريفة ، مثل :

ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى موسى أن النبى ﷺ قال : « إن الله يبسط يده بالليل حتى يتوب مسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ، حتى يتوب مسيىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها » .

وبسط اليد كناية عن طلب التوبة ، والطلب أبلغ وأخص من القبول ، إذ الطالب أبلغ من القابل ، فرب قابل ليس بطالب ، ولا طالب إلا وهو قابل .

وما رواه ابن ماجه عن أبى هريرة أنه ﷺ قال : « لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ، ثم تبتم لتاب الله عليكم » [3] .

فهذا ما يتعلق بقبول التوبة من ناحية وعده عز وجل فى كتابه وعلى لسان رسوله .

التوبة مقبولة من ناحية سنن الله :

وأما قبول التوبة من ناحية سنته سبحانه فى الخلق ، وما أقام عليه هذا الكون من شبكة الأسباب والمسببات ، فإن من عرف هذه السنن الإلهية واطرادها وثباتها : يعرف أن نور التوبة إذا سطع يمحو ظلمة الذنوب وآثارها فى القلوب ، كما يمحو بزوغ الفجر ، ونور الشمس ظلام الليل ، وكما يمحو الماء والصابون الوسخ والدرن ، من الثوب والبدن ، وكما يمحو الصقل صدأ الحديد .

ولهذا قالوا : إن نار الندم تحرق غبرة الذنب ، ونور الحسنة يزيل عن وجه القلب ظلمة السيئة ، وأنه لا طاقة لظلام السيئات مع نور الحسنات ، ومن توهم أن

---

(1) الكهف : ٩٨ .   (2) الروم : ٦ .

(3) حسنه فى صحيح الجامع الصغير برقم (٥٢٣٥) .

التوبة تصح بشرائطها ولا تقبل - فهو كمن يتوهم أن الشمس تطلع ، والظلام لا يقلع ، وأن الثوب يغسل ، والوسخ لا يزول .

نعم ، إذا تغلغل الوسخ لطول تراكمه فى تجاويف الثوب ، فلا يقوى الصابون على قلعه من أصله ، وكذلك إذا توغل الصدأ فى الحديد ، فقد لا يصقله الجلاء ، وهذا مثل القلب إذا تراكمت عليه الذنوب حتى صارت رينا وطبعا على القلب ، فمثل هذا القلب المطبوع عليه ، لا يتوب ، ولا يرجع إلى الرب ، كما قال تعالى فى شأن قوم : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ * لاَ جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخِرَةِ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ (١) .

ولكن هذا غير الذى نذكره هنا ، وهو من تاب توبة استجمعت أركانها وشرائطها .

كما أن من حق التائب - بل من واجبه - أن يشك فى قبول توبته ، إذا شك فى استكمال أركانها ، أو فى استيفاء شروطها ، وما أدقها وما أصعبها وما أشق تحصيلها بكمالها على وجهها ، ولهذا روى عن الربيع بن خيثم أنه كان يقول : لا تقل : أستغفر الله ، وأتوب إليه ، فيكون ذنبا وكذبا إن لم تفعل ، بل قل : اللهم اغفر لى ذنبى وتب علىّ !

وكلما ارتقى الإنسان فى سلم الصالحات : (اتهم) توبته ، وارتاب فى صحتها ، كما قال ابن القيم رحمه الله :

« وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه ، لا يتيقن أنه أدَّى هذا الحقَّ على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يُؤدِّيه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقَّها ، وأنها لم تُقبل منه ، وأنه لم يبذُل جهده فى صحتها ، وأنها توبة علة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه

---

(١) النحل : ١٠٨ ، ١٠٩ .

تاب محافظة على حاله ، فتاب للحال ، لا خوفاً من ذى الجلال ، أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافُه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفاً من الله ، وتعظيماً له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدنيا والآخرة ، فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون آخر » (١) .

* * *

علامات التوبة المقبولة :

وللتوبة المقبولة علامات تعرف بها ، وتميزها عن التوبة المردودة عند الله تعالى .

منها : أن يكون التائب بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها : أنه لا يزال الخوف مصاحباً له ،ولا يأمن مكر الله طرفة عين ، فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه ﴿ أَلاَّ تَخَافُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (٢) فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفا ، وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها ، وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى : ﴿ لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ (٣) قال : تقطعها بالتوبة ، ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه ، وهذا هو تقطعه ، وهذا حقيقة التوبة ، لأنه يتقطع قلبه حسـرة على ما فرط منه ، وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرط حسرة وخوفا ، تقطع فى الآخرة

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ١٨٥ .

(٢) فصلت : ٣٠ .　　　(٣) التوبة : ١١٠ .

إذا حَقَّت الحقائق ،وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين ، فلا بد من تقطع القلب إما فى الدنيا وإما فى الآخرة .

ومن علامات التوبة الصحيحة أيضًا : كسرة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد ، وإنما هى أمرٌ وراء هذا كله ، تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة .. قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحاً ذليلا خاشعاً ، لم يجد منه بدأ ، ولا عنه غناء ، ولا منه مهربا ، وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه ، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته ، هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع ، ما أنفعها للعبد ، وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جَبْره بها ! وما أقربه بها من سيده ! فليس شىء أحبَّ إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين يديه ، والاستسلام له ، فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال : أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، وبغناك عنى وفقرى إليك ، هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير ، وليس لى سيد سواك ، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورَغِمَ لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذَلَّ لك قلبه .

يا من أَلُوذ بـــه فيمـــا أُؤمِّله ومن أعـوذ به مما أُحـــاذره
لا يَجْبُر الناسُ عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة ، فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التـوبة الصحيحة بالحقيـقة ، وما أسهلها

باللسان ، والدعوى ! وما عالج الصادق بشيء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله (1) .

هل هناك ذنوب لا تقبل التوبة منها كالقتل ؟ :

اختلف الناس : هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أوْ لا ؟

رأى الجمهور بقبول التوبة إذا صحت :

فقال الجمهور : التوبة تأتى على كل ذنب ، فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل ، ولو كان قتل النفس بغير حق .

القائلون : لا توبة للقاتل وأدلتهم :

وقالت طائفة : لا توبة للقاتل ، وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه ، وإحدى الروايتين عن أحمد ، وقد ناظر ابن عباس في ذلك أصحابه . فقالوا « أليس قد قال الله تعالى فى سورة الفرقان ﴿ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بالحَقِّ - إلى أن قال - إلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ (2) ؟ فقال : كانت هذه الآية فى الجاهلية ، وذلك أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا ، فأتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : إن الذى تدعو إليه لحسن لو تُخبرنا أن لما عملناه كفارة ، فنزل : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ﴾ (3) الآية ، فهذه فى أولئك ، وأما التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ (4) فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه ، ثم قتل ، فجزاؤه جهنم » وقال زيد بن ثابت « لما نزلت التى فى الفرقان ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهاً آخَرَ ﴾ عجبنا من

---

(1) المدارج : 1 / 186 ، 187 .
(2) الفرقان : 68 - 70 .
(3) الفرقان : 68 .
(4) النساء : 93 .

لينها ، فلبثنا سبعة أشهر ، ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة » وأراد بالغلـيظة : هذه الآية التى فى سورة النساء ، وباللينة : آية الفرقان ، قال ابن عباس « آية الفرقان مكية ، وآية النساء مدنية ، نزلت ولم ينسخها شيء » .

قال هؤلاء : ولأن التوبة من قتل المؤمن عمداً متعذرة ؛ إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله ، أو إعادة نفسه - التى فوَّتها عليه - إلى جسده ، إذ التوبة من حق الآدمى ، لا تصح إلا بأحدهما ، وكلاهما متعذر على القاتل ، فكيف تصح توبته من حق آدمى لم يصل إليه ، ولم يستحلّه منه ؟ .

ولا يرد عليهم هذا فى المال إذا مات ربه ولم يُوَفِّه إياه ، لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة .

قالوا : ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل ، وتصح التوبة منه ؛ فإن ذلك محض حق الله ، فالتوبة منه ممكنة ، وأما حق الآدمى : فالتوبة موقوفة على أدائه إليه أو استحلاله ، وقد تعذر .

حجج الجمهور على قبول التوبة من القاتل :

واحتج الجمهور بقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١) فهذه فى حق التائب ، وبقوله : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٢) فهذه فى حق غير التائب ، لأنه فرق بين الشرك وما دونه ، وعلق المغفرة بالمشيئة ، فخصص وعلق ، وفى التى قبلها عَمَّم وأطلق .

واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ (٣) فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحاً ، فإن الله عز وجل غفَّار له .

---

(١) الزمر : ٥٣ . (٢) النساء : ٤٨ . (٣) طه : ٨٢ .

قالوا : وقد صح عن النبى ﷺ حديث الذى قتل المائة ثم تاب فنفعته توبته ، وألحق بالقرية الصالحة التى خرج إليها ، وصح عنه ﷺ - من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال - وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئًا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، فمن وَفَّى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئًا ، فعوقب به فى الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئًا ، فستَره الله عليه ، فهو إلى الله : إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ·· فبايعناه على ذلك » قالوا : وقد قال ﷺ - فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى : « ابن آدم ، لو لقيتنى بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئًا ، لقيتك بقرابها مغفرة » ، وقال ﷺ : « من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة » ، وقال : « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله دخل الجنة » ، وقال : « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » وفى حديث الشفاعة : « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان » وفيه يقول الله تعالى : « وعزتى وجلالى ، لأخرجَنَّ من النار من قال لا إله إلا الله » وأضعاف هذه النصوص كثير ، تدل على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد [1] · أ · هـ ·

وهكذا نرى رأى الجمهور أقوى حجة ، وهو الذى يتفق مع رحمة الله الواسعة ، ومغفرته التى تسع كل الذنوب ·

حكم القاتل إذا اقتص منه :

واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسَلَّم نفسه ، فقتل قصاصاً ، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق ؟

---

(١) مدارج السالكين : ١ / ٣٩٢ - ٣٩٤ ·

فقالت طائفة : لا يبقى عليه شيء ، لأن القصاص حده ، والحدود كفارة لأهلها ، وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم ، وهم قائمون مقامه فى ذلك ، فكأنه قد استوفاه بنفسه ، إذ لا فرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله .

يوضح هذا : أنه أحد الجنايتين ، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شيء ، كما لو جنى على طَرَفه فاستقاد منه ، فإنه لا يبقى له عليه شيء .

وقالت طائفة : المقتول قد ظلم ، وفاتت عليه نفسه ، ولم يستدرك ظلامته . والوارث إنما أدرك ثأر نفسه ، وشفاء غيظه ، وأى منفعة حصلت للمقتول بذلك ؟ وأى ظلامة استوفاها من القاتل ؟ .

قالوا : فالحقوق فى القتل ثلاثة : حق لله ، وحق للمقتول ، وحق للوارث ، فحق الله : لا يزول إلا بالتوبة ، وحق الوارث : قد استوفاه بالقتل ، وهو مخير بين ثلاثة أشياء : بين القصاص ، والعفو مجاناً ، أو إلى مال ، فلو أحله ، أو أخذ منه مالا لم يسقط حق المقتول بذلك ، فكذلك إذا اقتص منه ، لأنه أحد الطرق الثلاثة فى استيفاء حقه ، فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين ؟ .

قالوا : ولو قال القتيل : لا تقتلوه لأطالبه بحقى يوم القيامة ، فقتلوه ، أكان يسقط حقه ولم يسقطه ؟ فإن قلتم : يسقط ، فباطل ، لأنه لم يرض بإسقاطه ، وإن قلتم : لايسقط ، فكيف تسقطونه إذا اقتص منه ، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه ؟ .

وهذه حجج كما ترى فى القوة ، لا تندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها .

فالصواب - والله أعلم - أن يقال : إذا تاب القاتل من حق الله ، وسلم نفسه طوعاً إلى الوارث ، ليستوفى منه حق موروثه : سقط عنه الحقان ، وبقى حق الموروث لا يضيعه الله ، ويجعل من تمام مغفرته للقاتل : تعويض المقتول ، لأن مصيبته لم تنجبر بقتل قاتله ، والتوبة النصوح تهدم ما قبلها ، فيعوِّض هذا عن مظلمته ، ولا يعاقَب هذا لكمال توبته ، وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا

قتل مسلماً فى الصف ، ثم أسلم وحسن إسلامه ، فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول ، ويغفر للكافر بإسلامه ، ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلماً ، فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله ٠

وعلى هذا إذا سلّم نفسه وانقاد ، فعفا عنه الولى ، وتاب القاتل توبة نصوحاً ، فالله تعالى يقبل توبته ، ويعوّض المقتول ٠

فهذا الذى يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده ، والحكم بعد ذلك لله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴾ (١) ٠

* * *

---

(١) النمل : ٧٨ ؛ المدارج : ١/ ٣٩٨ ، ٣٩٩ ٠

أقسام الناس فى التوبة

قال صاحب (قوت القلوب) :

الناس فى التوبة على أربعة أقسام ، فى كل قسم طائفة ، لكل طائفة مقام :

١ - منهم تائب من الذنب مستقيم على التوبة والإنابة ، لا يحدث نفسه بالعود إلى معصية أيام حياته ، مستبدل بعمل سيآته صالح حسناته ، فهذا هو (السابق بالخيرات) ، وهذه هى التوبة النصوح .

ونفس هذا هى (المطمئنة المرضية) والخبر المروى فى مثل هذا « سيروا ، سَبَق المفردون ، المستهترون بذكر الله ، وضع الذكر أوزارهم ، فوردوا القيامة خفافا » (١) .

٢ - والذى يلى هذا فى القرب : عبد عقده التوبة ، ونيته الاستقامة ، لا يسعى فى ذنب ، ولا يقصده ولا ينحوه ، ولا يهتم به ، وقد يبتلى بدخول الخطايا عليه من غير قصد منه ، ويمتحن بالهم واللمم ، فهذا من صفات المؤمنين ، يرجى له الاستقامة ، لأنه فى طريقها ، وهو ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ المَغْفِرَةَ ﴾ (٢) وداخل فى وصف المتقين الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ (٣) .

ونفس هذا هى (اللوامة) التى أقسم الله تعالى بها ، وهو من (المقتصدين) ، وهذه الذنوب تدخل على النفوس من معانى صفاتها وغرائز جبلاتها ، وأوائل أنسابها

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٩٦) بلفظ (سبق المفردون) دون كلمة (سيروا) وقال : حسن غريب ، وصححه الحاكم جـ ١ ص ٤٨٥ عن أبى هريرة .

(٢) النجم : ٣٢ . (٣) آل عمران : ١٣٥ .

من نبات الأرض ، وتركيب الأطوار فى الأرحام خلقًا من بعد خلق ، ومن اختلاط الأمشاج بعضها ببعض ، ولذلك عقبه تعالى بقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ (١) ، فلذلك نهى عن تزكية النفس المنشأة من الأرض ، والمركبة فى الأرحام بالأمشاج للاعوجاج فقال تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ أى فهذا وصفها من بدء إنشائها ، وكذلك وصف مشيج خليقته بالابتلاء فى قوله : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٢) وشرح هذا يطول .

وفى مثل هذا العبد معنى الخبر الذى جاء « المؤمن مفتَّن تواب » (٣) و « المؤمن كالسنبلة تفىء أحياناً وتميل أحيانًا » (٤) فإزراء هذا العبد على نفسه . ومقته لها عن معرفته بها ، وترك نظره إليها ، وسكونه إلى خير إن ظهر عليها : يكون من كفارات ذنوبه ، لأنه من تدبر الخطاب فى قوله تعالى : ﴿ فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ .

٣ - والعبد الثالث هو الذى يقرب من هذا الثانى فى الحال ، عبد يذنب ثم يتوب ، ثم يعود للذنب ، ثم يحزن عليه ، بقصد له وسعْى فيه ، وإيثاره إياه على الطاعة ، إلا إنه يسوّف بالتوبة ، ويحدث نفسه بالاستقامة ، ويحب منازل التوابين ، ويرتاح قلبه إلى مقام الصديقين ، ولم يأن حينه ، ولا ظهر مقامه ، لأن الهوى يحركه ، والعادة تجذبه ، والغفلة تغمره ، إلا أنه يتوب خلال الذنوب ويعاود ، لتقدم المعتاد ، فتوبة هذا فوات من وقت إلى وقت ، ومثله ترجى له الاستقامة لمحاسن عمله ، وتكفيرها السالف سيئته ، وقد يخاف عليه الانقلاب ، لمداومة خطئه .

ونفس هذا هى (المسوِّلة) ، وهو ممن خلط عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله

(١) النجم : ٣٢ . (٢) الإنسان : ٢ .

(٣) رواه أحمد بسند ضعيف جدا . .

(٤) أحمد ٣ / ٣٩٤ بلفظ (مثل المؤمن . .) وحسنه المناوى فى (الفيض) جـ ٥ / ٨١٤٩ .

أن يتوب عليه ، فيستقيم فيلحق بالسابقين ، فهذا بين حالين: بين أن يغلب عليه وصف النفس ، فيحق عليه ما سبق من القول ، وبين أن ينظر إليه مولاه نظرة تجبر له كل كسر ، وتغنى له كل فقر ، فيتداركه بمنة سابقة ، فتلحقه بمنازل المقربين ، لأنه سلك طريقهم ، بفضله ورحمته ونيته الآخرة ٠

٤ - والعبد الرابع ، أسوأ العبيد حالاً ، وأعظمهم على نفسه وبالاً ، وأقلهم من الله نوالاً ، عبد يذنب ثم يتبع الذنب مثله ، أو أعظم منه ، ويقيم على الإصرار ، ويحدث نفسه به متى قدر عليه ، ولا ينوى توبة ، ولا يعقد استقامة ، ولا يرجو وعدًا بحسن ظنه ، ولا يخاف وعيداً لتمكن أمنه ، فهذا هو حقيقة الإصرار ومقام بين العتو والاستكبار ، وفى مثل هذا جاء الخبر « هلك المصرون قدمًا إلى النار » [1] .

ونفس هذا هى « الأمارة » ، وروحه أبدًا من الخير فرارة ، ويخاف على مثله سوء الخاتمة ، لأنه فى مقدماتها وسالك طريقتها ، ولا يبعد منه سوء القضاء ودرك الشقاء ، ولمثل هذا قيل : من سوّف الله تعالى بالتوبة أكذبه ، وإن اللعنة خروج من ذنب إلى أعظم منه ٠

وهذه الطائفة فى عموم المسلمين ، وهم فى مشيئة الله من الفاسقين ، كما قال تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللهِ ﴾ أى مؤخَّرون لحكمه ﴿ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ بالإصرار : ﴿ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ﴾ [2] بما سبق من حسن الاختيار ٠ نعوذ بالله تعالى من عذابه ، ونسأله نعيماً من ثوابه ٠

* * *

(١) ذكره فى زاد المسير : ج ٤ ص ٢٠٤ ٠

(٢) التوبة : ١٠٦ ٠

الذنوب التى يتاب منها وأقسامها

- مم نتوب ؟ .
- الإنسان والخطيئة .
- الذنوب ترك مأمور وفعل محظور .
- ذنوب الجوارح وذنوب القلوب .
- الذنوب معاصٍ وبدع .
- الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية .
- الذنوب المتعلقة بحقوق الله وحقوق العباد .
- صغائر الذنوب وكبائرها .
- حقائق حول الكبائر والصغائر .
- مكفرات الذنوب .

مم نتوب ؟
أقسام الذنوب والمعاصى

الأصل فى التوبة : أنها لا تكون إلا عن ذنب ومعصية لله جل شأنه ، ومن هنا كان علينا أن نتعرف على حقيقة الذنوب والخطايا التى نتوب منها ، والتى تباعد بيننا وبين ربنا ، وتحرمنا حبه ونصره ، ودفاعه ومَعيّته وتأييده لنا فى الدنيا ، كما تحرمنا رضوانه ومثوبته وجنته فى الآخرة .

والذنوب أو الخطايا أو المعاصى التى يقع فيها المكلفون : تنقسم إلى أقسام ، وتتنوع إلى أنواع كثيرة ، ينبغى أن نلقى عليها بعض الأشعة حتى تتضح حقائقها ، وتتجلى الفوارق بين بعضها وبعض ، لنعرف أيها أشد خطرا وأيها أخوف على المكلف من غيره ، وإن كانت كلها خطرة ، ومبعدة عن الله سبحانه ، وحاجبة عن الخير والفلاح بمقادير متفاوتة .

تنقسم المعاصي والذنوب والخطايا بحسب طبيعتها إلى ترك مأمور ، وإلى فعل محظور ، كما تنقسم بحسب موضعها وآليات اكتسابها إلى (معاصى جوارح) تؤدى بأعضاء الجسم ، وإلى (معاصى قلوب) تؤدى بواسطة القلب ، وقد لا تظهر للحواس .

كما تنقسم إلى معاصٍ أى مخالفات ظاهرة لأمر الله تعالى وإلى بدعٍ يتقرب بها فاعلها إلى الله .

وتنقسم بحسب أثرها إلى ذنوب ومعاصٍ قاصرة لا تتعدى حدود مقترفها وذنوب ومعاصٍ متعدية ، تتجاوز صاحبها إلى التأثير فى غيره .

وتنقسم إلى ذنوب تتعلق بحق الخالق فقط ، وذنوب تتعلق بحقوق العباد .

وما يتعلق بحقوق العباد منه ما يتعلق بحق الفرد ، ومنه ما يتعلق بحق المجتمع أو الأمة .

وتنقسم بحسب زمنها ومداها إلى ما ينتهى بمجرد الانتهاء من فعله ، وإلى ما يبقى بعد ذلك مُددا تقصر أو تطول .

ثم هى تنقسم بحسب درجتها إلى كبائر وصغائر .

ولكل قسم من هذه الأقسام حكمه وأثره .

فلنبدأ ببيان هذه الأقسام وأحكامها وآثارها ، وقبل ذلك نستفتح بكلمة عن الإنسان والخطيئة فى نظر الإسلام .

الإنسان والخطيئة :

يولد الإنسان فى الإسلام على الفطرة ، طاهرا من كل دنس ، غير ملوث بأى خطيئة من الخطايا .

ولا يوجد فى الإسلام ما عرف فى النصرانية من أن كل إنسان يولد وفى عنقه خطيئة أبيه آدم ، حين أكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ، وذلك لجملة وجوه :

أولا : لأن آدم تاب من هذه الخطيئة ، وتقبل الله توبته ، وغسل منها نهائيا كما وضح ذلك القرآن : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴾ (١) ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٢) .

وثانيا : لأن عدالة الله لا تحمّل أحدًا وزر غيره ، ولو كان هذا الأحد أباه الذى هو من صلبه ، فكيف يتحمل الإنســـان وزر خطيئة ، لم يشهدها ولا آباؤه ، وأجداده ، بل مرت عليها ألوف السنين التى لا يعلمها إلا الله، يقول تعالى : ﴿ وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا ، وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (٣) ، ﴿ كُلُّ نَفْسٍ

---

(١) طه : ١٢١ ، ١٢٢ . (٢) البقرة : ٣٧ .

(٣) الأنعام : ١٦٤ .

بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴾[1] بل أعلن القرآن : أن هذه القاعدة مقررة من قبل فى صحف إبراهيم وموسى ، كما قال تعالى ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾[2] .

إنما الإنسان هو الذى يكتسب خطاياه بإرادته وقدرته هو ، باختياره وسعيه هو ، فهو وحده يتحمل مسئوليتها ، ومن شاركه فيها بإغراء أو تحريض أو تسهيل أو معاونة بأى صورة من الصور ، فهو يتحمل معه بقدر إسهامه .

وثالثا : لأن الواقع المشاهد أن الإنسان يولد على الفطرة السليمة ، التى فطر الله الناس عليها ، وهى فطرة قابلة للخير قبولها للشر ، مستعدة للتقوى استعدادها للفجور ، وإنما تؤثر فيه البيئة والتربية ، وإن كان ذلك لا يعفيه من المسؤولية فى وجوب تزكية نفسه ، وإبعادها عن التدسية والتدنيس كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[3] ، وقال عز وجـــل : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[4] ، وقال عليه الصلاة والسلام : « كل مولود يولد على الفطرة » متفق عليه .

ورابعا : لأن الخطيئة لا تعتبر خطيئة فى نظر الإسلام إلا إذا توافر فيها عنصر القصد والاختيار . لهذا رفع الإثم عن النـاسى والمخطىء والمكره ، كما جـاء فى الحديث :

« إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » .

وفى القرآن إن الله علم المسلمـين الدعاء فى خاتمة سورة البقرة ، فكان منه : ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾[5] .

---

(١) المدثر : ٣٨ .
(٢) النجم : ٣٦ - ٣٨ .
(٣) الشمس : ٧ - ١٠ .
(٤) الروم : ٣٠ .
(٥) البقرة : ٢٨٦ .

وجاء فى الصحيح عن ابن عباس أن الله تعالى قال : قد أجبت .

وفى القرآن أيضًا : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ (١) .

وفيه فيمن قال كلمة الكفر بلسانه تحت وطأة التعذيب: ﴿ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ ﴾ (٢) .

بل فى القرآن أن من ارتكب فعلا بإرادته تحت ضغط الضرورة القاهرة ، مثل ضرورة الجوع ، فإن الله قد رفع عنه الإثم ، كما قال تعالى: ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٣) ، ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤) .

فكيف يحمل الإنسان خطيئة لم يرتكبها ولم يشهدها ، ولم ينوها ، وليس له بها أدنى علاقة ؟؟!! .

* * *

---

(١) الأحزاب : ٥ . (٢) النحل : ١٠٦ .
(٣) الأنعام : ١٤٥ . (٤) البقرة : ١٧٣ .

الذنوب ترك مأمور وفعل محظور

تنقسم الذنوب أول ما تنقسم إلى قسمين : ترك المأمور ، وفعل المحظور .

وكثير من الناس يحسبون أن الذنوب إنما هى فعل المحظورات والمحرمات فقط ، ناسين أن أول معصية عُصِىَ الله بها لم تكن فعل محظور ، بل ترك مأمور ، وهى معصية إبليس ، فقد أمره الله سبحانه بالسجود لآدم الذى خلقه الله بيديه ، ونفخ فيه من روحه ، فخالف أمر الله تباركت أسماؤه ، وجل ثناؤه ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِين ﴾ (١) .

وكانت المعصية الثانية فعل محظور نهى الله عنه ، وهى معصية آدم ، فقد نهاه الله وزوجه عن الأكل من الشجرة ، بعد أن أسكنهما الجنة ، وقال لهما : ﴿ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢) .

ولكن آدم عليه السلام غلب عليه ضعف البشر ، فنسى ، ووهن عزمه أمام إغراء إبليس وقسمه له : إنى لك لمن الناصحين ، مستعينا فى إغوائه بغرائز الإنسان فى تزيين المعصية له ، إذ قال له : ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى ﴾ (٣) .

واستجاب آدم لوسوسة الشيطان ، وأكل وأكلت معه زوجه من الشجرة المنهى عنها كما قال الله تعالى : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ، وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٤) .

---

(١) البقرة : ٣٤ . (٢) البقرة : ٣٥ .

(٣) طه : ١٢٠ . (٤) البقرة : ٣٦ ، ٣٧ .

وهكذا نرى الذنوب والخطايا تتنوع إلى ترك ما أمر الله به ، أو فعل ما نهى الله عنه .

وما أمر الله بفعله درجات بعضها فوق بعض .

فأعظم ما أمر الله به : التوحيد والإيمان ، وتركه هو الشرك والكفر الأكبر .

ويأتى بعده الفرائض الركنية ، التى هى أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، من إقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت ، فترك أى واحدة من هذه الفرائض العظيمة ، والشعائر المقدسة ، من أعظم الذنوب ، وأكبر الآثام عند الله .

وهى فيما بينها متفاوتة ، فأعظمها : الصلاة ، فهى عماد الدين ، وعلامة المؤمنين ، والفيصل الفارق بين المسلم والكافر ، وقد جعل الله تركها من سمات الكافرين : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لاَ يَرْكَعُونَ ﴾ (١) .

كما جعل أداءها بكسل وتثاقل من صفات المنافقين : ﴿ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاَةِ قَامُوا كُسَالَى ﴾ (٢) .

وجعل سبحانه الويل لمن سها عنها حتى أخرها عن وقتها : ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ (٣) ، حتى ذهب من ذهب من أئمة المسلمين إلى أن تارك الصلاة كافر ، مارق من الملة ، خارج على الأمة .

وبعد الصلاة : فريضة الزكاة التى قرنها الله بها فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا ، وفى السنة فى عشرات الأحاديث ، حتى قال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة .

وقال ابن مسعود : الزكاة قنطرة الإسلام ، من عبر عليها نجا ، ومن تخلف عنها هلك .

---

(١) المرسلات : ٤٨ . (٢) النساء : ١٤٢ . (٣) الماعون : ٤ ، ٥ .

ثم يجىء بعد الزكاة : صوم رمضان ، الذى كتبه الله على المؤمنين ، فيدع المسلم طعامه وشرابه وشهوته من أجل الله ، إيمانا واحتسابا ، هذا الشهر من كل عام ﴿ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (١) .

وختام هذا الفرائض الشعائرية هو : الحج إلى بيت الله الحرام ، وهو فرض فى العمر مرة واحدة ، تيسيراً من الله على عباده ، وهو فرض على من استطاع إليه سبيلا ، وملك نفقة السفر ونفقة الإقامة أقصر مدة ممكنة للحج وهو خمسة أيام : من يوم الثامن من ذى الحجة إلى يوم الثانى عشر منه ، وما يلزم لذلك من أيام قبله وبعده ، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ومن ترك فريضة من هذه الفرائض منكرا لفرضيتها أو مستخفا ومستهزئا بها ، فقد ارتد عن الإسلام لأنه أنكر أمرا بينا معلوما من الدين بالضرورة ، ولا يكون ذلك إلا بتكذيب الله ورسوله ، والكفر بهما .

ومن ترك واحدة منها ، اتباعا لهوى ، أو حبا للدنيا ، أو كسلا أو شحا أو تهاونا ، أو نحو ذلك ، فقد فسق عن أمر الله ، واقترف إثما عظيما .

أما من تركهن جميعا ، فماذا بقى له من الإسلام إلا اسمه ، ويخشى أن يفضى به ذلك إلى الكفر البواح ، والعياذ بالله ، فإن المعاصى بريد الكفر ، ولاسيما هذه المعاصى الكبار .

وبعد ذلك تأتى الفرائض الأخرى : مثل بر الوالدين ، الذى جعله القرآن بعد عبادة الله وحده كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ (٢) .

ومثل صلة الأرحام ، التى قال الله فيها : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٣) وقوله : ﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ﴾(٤) . وقوله : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِى

(١) البقرة : ١٨٥ . (٢) الإسراء : ٢٣ . (٣) النساء : ١ . (٤) البقرة : ٢١٥ .

الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾ (١) .

ومثل الإحسان إلى اليتامى والمساكين والجيران وغيرهم من أصحاب الحقوق ، كما فى آية (الحقوق العشرة) كما سماها العلماء ، وهى قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (الزوج أو الرفيق) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (٢) .

إلى غير ذلك من المأمورات ، التى تتعلق بحق الله ، وحق النفس ، وحق الأسرة ، وحق المجتمع ، وحق الإنسان ، وحق الحيوان · وحق الكون ·

ومن المقرر هنا : أن المأمورات المتعلقة بفرض العين - وهو ما يجب عينا على كل إنسان ، أو على إنسان بعينه ، مقدم على فرض الكفاية ، وهو الذى يجب على مجموع الأمة بالتكافل ، مثل تفوقها العلمى أو التكنولوجى أو العسكرى ، فإذا فرطت الأمة فى هذه الفرائض الكفائية كان الإثم عليها جميعا ، كل بمقدار مسؤوليته وثقافته ومكنته ·

ومن الذنوب التركية : ذنوب فى غاية العظم ، ونهاية الخطر ، لا يتنبه إليها الكثيرون من الناس ، وهى التى تتعلق بترك فروض الكفاية الواجبة على مجموع الأمة ، وبتضيبعها تضيع الأمة ، ويأثم أبناؤها جميعا ، كل على قدر علمه وقدرته ومكانته فى الناس ·

وذلك مثل ترك تحكيم شريعة الله فى حياة الناس ، وعدم الحكم بما أنزل الله ، وظلم الفقراء ، والمستضعفين من العمال والفلاحين ، ومثل ترك فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ولاسيما المنكرات الكبرى مثل : إباحة المسكرات ، وإباحة الربا والزنى وإشاعة الخلاعة ، والتكشف ، وظهور الكاسيات العاريات ، المميلات المائلات ·

---

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣ ·   (٢) النساء : ٣٦ ·

ومثل: ترك الدعوة إلى الله، وتبليغ رسالة الإسلام إلى العالم، كما نرى اليوم خلال الأمم التى لا تعرف عن الإسلام شيئاً، أو تعرف صورة مشوهة منفرة عنه، والمسلمون عامة -والعرب خاصة- مسؤولون عن توصيل الدعوة سليمة مشوقة إلى هؤلاء.

ومثل: ترك إقامة العدل بين الناس، وإيتاء كل ذى حق حقه، وإقامة الموازين القسط بين الحاكم والمحكوم، ورعاية حقوق الإنسان، وتمكين كل إنسان أن يقول رأيه بصراحه، ويدلى بصوته بنزاهة، ويرشح نفسه إن أراد، ويعارض ما يراه خطلا إن شاء.

ومثل ترك أعداء الأمة يأكلون حقوقها، ويحتلون أرضها، ويتحكمون فى رقاب أهلها، وترك الدفاع عن المستضعفين من الرجال والنساء، والولدان الذين يقولون: ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا.

ومثل ترك الأمة ممزقة، لا تجمعها راية، ولا تضمها رابطة قوية، مع إيجاب الإسلام، أن تكون مرجعيتها واحدة، ودارها واحدة، وقيادتها واحدة.

هذه آثام وذنوب يغفل آحاد الناس عنها لأنها لا تخصهم شخصيا، ولكنهم مسؤولون عنها بصفتهم أعضاء فى جسم الأمة.

وفى مقابل ترك هذه المأمورات: يوجد فعل المحظورات، وهى المحرمات التى حرمها الله تعالى: من المأكولات والمشروبات والملبوسات والأدوات والمعاملات والتصرفات.

وقد أسرف أهل الجاهلية فى التحليل والتحريم، فحرموا ما أحل الله، وأحلوا ما حرم الله كما قال تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللهِ، قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَا أَنزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ، أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (٢).

---

(١) الأنعام: ١٤٠.　　(٢) يونس: ٥٩.

﴿ وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الكَذِبَ، إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ ﴾(١) .

ولقد بين القرآن أن من أوصاف رسول الله ﷺ المعروفة عند أهل الكتاب : التوراة والإنجيل أنه : ﴿ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ ﴾ (٢) .

فالتحريم فى الإسلام يتبع الخبث والضرر ، وليس كما كان فى اليهودية ، حيث حرم الله عليهم بعض الطيبات ، عقوبة من الله لهم على بغيهم وتجاوزاتهم ، كما قال تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا * وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴾ (٣) .

ومن المقرر عند المسلمين : أن الأصل فى الأشياء - ولاسيما المنافع - والتصرفات ، ولاسيما الدنيوية والعادية ، منها : الإذن والإباحة - فلا يسأل المسلم : لماذا أبيح هذا ؟ لأنه هو الأصل ، وما جاء على الأصل لا يسأل عن علته ، إنما يسأل : لماذا حرم هذا ؟ .

وقد بين الإسلام الحلال من الحرام ، كما جاء فى الحديث المتفق عليه : « الحلال بين ، والحرام بين ، وبينهما كثير من المشتبهات ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه » .

وقد كتبنا كتابنا « الحلال والحرام فى الإسلام » لنبين للناس ما يحرم على المسلم فى حياته الفردية الخاصة ، وحياته الأسرية ، وحياته الاجتماعية ، حتى لا يسقط المسلم فى هوة المحرمات من حيث لا يدرى .

* * *

---

(١) النحل : ١١٦ .　　(٢) الأعراف : ١٥٧ .

(٣) النساء : ١٦٠ ، ١٦١ .

ذنوب الجوارح وذنوب القلوب

كثير من الناس لا يكادون يعرفون من المعاصي والذنوب ، إلا ما يدركه الحس ، وما يتعلق بالجوارح الظاهرة ، من معاصي الأيدى والأرجل ، والأعين والآذان ، والألسنة والأنوف ، ونحوها مما يتصل بشهوتى البطن والفرج ، والغرائز الدنيا للإنسان .

ولا يكاد يخطر ببال هؤلاء : الذنوب والمعاصى الأخرى التى تتعلق بالقلوب والأفئدة ، والتى لا تدخل ، فيما تراه الأبصار ، أو تسمعه الآذان ، أو تلمسه الأيدى ، أو تشمه الأنوف ، أو تتذوقه الألسنة .

فى القسم الأول تقع معاصى العين من النظر إلى ما حرم الله ، من العورات ، ومن النساء غير المحارم .

ومعاصى الأذن من الاستماع إلى ما حرم الله من آفات اللسان ، فالمستمع شريك المتكلم .

ومعاصى اللسان ، من الكلام بما حرم الله من الآفات التى بلغ بها الإمام الغزالى عشرين آفة : من الكذب والغيبة والنميمة والسخرية واليمين الفاجرة والوعد الكاذب ، والخوض فى الباطل ، والكلام فيما لا يعنى وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، وشهادة الزور ، والنياحة ، واللعن والسب ... إلخ .

ومعاصى اليد من البطش والضرب بغير حق ، والقتل ، ومصافحة أعداء الله ، وكتابة ما لا يجوز كتابته ، مما يروج الباطل أو يشيع الفاحشة ، وينشر الفساد .

ومعاصى الرجل ، من المشى إلى معصية الله ، وإلى زيارة ظالم أو فاجر ، ومن السفر فى إثم وعدوان .

ومعاصى الفرج ، من الزنى وعمل قوم لوط ، وإتيان امرأته فى دبرها ، أو فى المحيض ، وهو أذى كما قال الله ·

ومعاصى البطن ، من الأكل والشرب مما حرم الله ، مثل أكل الخنزير ، وشرب الخمر ، وتعاطى المخدرات ، وتناول التبغ (التدخين) وأكل المال الحرام من الربا ، أو الميسر ، أو بيع المحرمات ، أو الاحتكار ، أو قبول الرشوة أو غيرها من وسائل أكل مال الناس بالباطل ·

وهذه الأعمال كلها محرمات ومعاص معلومة ، وبعضها يعتبر من عظائم الآثام ، وكبائر الذنوب ، ولكنها جميعا تدخل فى المعاصى الظاهرة ، أو معاصى الجوارح ، أو ظاهر الإثم ، والمسلم مأمور أن يجتنب ظاهر الإثم وباطنه جميعا ، كما قال تعالى : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴾ (١) .

بل إن المعاصى الباطنة أشد خطرا من المعاصى الظاهرة ، وبعبارة أخرى : معاصى القلوب أشد خطرا من معاصى الجوارح ، كما أن طاعات القلوب أهم وأعظم من طاعات الجوارح ، حتى إن أعمال الجوارح كلها لا تقبل إلا بعمل قلبى ، وهو النية والإخلاص ·

ونقصد بمعاصى القلوب ما كانت آلته القلب ، مثل : الكبر ، العجب ، الغرور ، الرياء ، الشح ، حب الدنيا ، حب المال والجاه ، الحسد ، البغضاء ، الغضب ، ونحوها ، مما سماه الإمام الغزالى فى (إحيائه) : المهلكات ، أخذا من الحديث الشريف : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه » ·

---

(١) الأنعام : ١٢٠ ·

وإنما اشتد خطر هذه المعاصى والذنوب لعدة أمور :

أولها : أنها تتعلق بالقلب ، والقلب هو حقيقة الإنسان ، فليس الإنسان هو الغلاف الجسدى الطينى الذى يأكل ويشرب وينمو ، بل هو الجوهرة التى تسكنه ، والتى نسميها : القلب أو الروح أو الفؤاد ، أو ما شئت من الأسماء . وفى هذا قال عليه الصلاة والسلام : « ألا إن فى الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب » متفق عليه عن النعمان بن بشير .

وقال : « إن الله لا ينظر إلى أجسامكم وصوركم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » رواه مسلم .

وجعل القرآن أساس النجاة فى الآخرة هو سلامة القلب ، كما قال تعالى على لسان إبراهيم : ﴿ وَلاَ تُخْزِنِى يَوْمَ يُبْعَثُونَ * يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ (1) .

وسلامة القلب تعنى : سلامته من الشرك جليه وخفيه ، ومن النفاق أكبره ، وأصغره ، ومن الآفات الأخرى التى تلوثه ، من الكبر والحسد والحقد ، وغيرها .

وقال ابن القيم : سلامته من خمسة أشياء : من الشرك الذى يناقض التوحيد ومن البدعة التى تناقض السنة ، ومن الشهوة التى تخالف الأمر ، ومن الغفلة التي تناقض الذكر ، ومن الهوى الذى يناقض التجريد والإخلاص .

ثانيها : أن هذه الذنوب والآفات القلبية ، هى التى تدفع إلى معاصى الجوارح ، فكل هذه المعاصى الظاهرة إنما يدفع إليها : اتباع الهوى ، أو حب الدنيا ، أو الحسد ، أو الكبر ، أو حب المال والثروة ، أو حب الجاه والشهرة ، أو غير ذلك .

حتى الكفر نفسه ، كثيرا ما يدفع إليه الحسد ، كما حدث لليهود ، فقد قال

---

(1) الشعراء : 87 - 89 .

تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ (١) .

أو يدفع إليها الكبر والعلو فى الأرض ، كما قال تعالى عن فرعون وملئه وموقفهم من آيات موسى عليه السلام : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٢) .

أو حب الدنيا وزينتها ، كما رأينا ذلك فى قصة هرقل ملك الروم ، وكيف تبين له صدق الرسول ﷺ فى دعوته ، وصحة نبوته ، ثم لما هاج عليه القسس ، غلّب حب ملكه على اتباع الحق ، فباء بإثمه وإثم رعيته .

وإذا نظرت إلى من يقتل نفسا بغير حق ، وجدت وراءه دافعا نفسيا أو قلبيا ، من حقد أو غضب ، أو حب لدنيا ، حتى إن أول جريمة قتل فى تاريخ البشرية ، كان سببها الحسد ، وذلك فى قصة ابنى آدم ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) إلى أن قال تعالى : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾(٤) .

وكذلك كل من ارتكب معصية ظاهرة من شهادة زور أو نميمة ، أو غيبة أو غيرها ، فلابد أن وراء تلك المعاصي شهوة نفسية ، وفى هذا جاء الحديث : « إياكم والشح ، فإنما هلك من كان قبلكم بالشح ، أمرهم بالبخل فبخلوا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا ، وأمرهم بالفجور ففجروا » (٥) .

ثالثها : إن المعاصى الظاهرة التى سببها ضعف الإنسان وغفلته ، سرعان ما يتوب منها ، بخلاف المعاصى الباطنة ، التى سببها فساد القلوب ، وتمكن الشر منها ، فقلما يتوب صاحبها منها ، ويرجع عنها .

---

(١) البقرة : ١٠٩ . (٢) النمل : ١٤ .
(٣) المائدة : ٢٧ . (٤) المائدة : ٣٠ .
(٥) رواه أبو داود والحاكم عن عبد الله بن عمر ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٢٦٧٨) .

وهذا هو الفارق بين معصية آدم ، ومعصية إبليس .

معصية آدم كانت معصية جارحة ، حين أكل من الشجرة ، ومعصية إبليس كانت معصية قلب ، حين أبى واستكبر ، وكان من الكافرين .

معصية آدم كانت زلة عارضة ، نتيجة النسيان وضعف الإرادة ، أما معصية إبليس فكانت غائرة متمكنة ، ساكنة فى أعماقه .

لهذا ما أسرع ما أدرك آدم خطأه واعترف بزلته ، وقرع باب ربه نادما تائبا هو وزوجته ﴿ قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أنفُسَنَا وَإن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ (١) .

أما إبليس ، فاستمر فى غلوائه ، متمردا على ربه ، مجادلا بالباطل ، حين قال له : ﴿ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَستَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ العَالِينَ * قَالَ أَنَا خَيرٌ مِّنْهُ ، خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (٢) .

ولهذا كانت عاقبة آدم : ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ، إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (٣) .

وكانت عاقبة إبليس : ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِى إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (٤) .

رابعا : وهذا ثمرة للوجوه السابقة ، وهو تشديد الشرع فى الترهيب من معاصى القلوب ، وآفات النفوس لشدة خطرها ، كما فى قوله عليه الصلاة والسلام : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » رواه مسلم عن

---

(١) الأعراف : ٢٣ . (٢) سورة ص : ٧٥ ، ٧٦ .
(٣) البقرة : ٣٧ . (٤) سورة ص : ٧٧ ، ٧٨ .

ابن مسعود ، وقوله : « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين » [١].

وقوله : « لا تغضب » وكررها ثلاثا ، لمن قال له : أوصنى [٢] .

وقوله فى الحديث القدسى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيرى ، تركته وشركه » [٣] .

وقوله : « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » [٤] .

* * *

---

(١) رواه البزار عن الزبير بإسناد جيد كما قال المنذرى . انظر : المنتقى (١٦١٥) والهيثمى (٨ / ٣٠) .

(٢) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٣) رواه مسلم عن أبى هريرة وفى معناه عدة أحاديث - انظر : المنتقى (١٦٥١ - ١٦٥٤) .

(٤) رواه مسلم عن جابر .

الذنوب معاص وبدع

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى معاص وبدع ، وكل منهما ارتكاب لما يسخط الله تعالى ، وشرود عن صراطه المستقيم .

وقد جاء فى الحديث الشريف الذى رواه العرباض بن سارية أن النبى ﷺ قال : « إياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة » (١) .

وقال عليه الصلاة والسلام : « من أحدث فى أمرنا (أى فى ديننا) ما ليس منه فهو رد » (٢) أى مردود عليه ، غير مقبول منه ، لأنه تقرب إلى الله بما لم يأمر به ، وشرع فى الدين ما لم يإذن به الله ، فالتعبد فى الإسلام يقوم على دعامتين أساسيتين :

الأولى : ألا يعبد إلا الله .

والثانية : ألا يعبد الله إلا بما شرعه .

والمبتدع عبد الله تعالى بما لم يشرعه .

والتوبة من البدع واجبة ، كالتوبة من جميع المعاصى .

وقد قال السلف : إن البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن مرتكب المعصية يشعر أنه اقترف ذنبا ومخالفة لأمر الله ، بخلاف فاعل البدعة .

بل الحقيقة أن البدع نوع من المعاصى ، ولكنها معاصٍ لها صفة خاصة ، فإن مرتكبيها يتقربون إلى الله بفعلها ، ويعتقدون فى أنفسهم أنهم بهذه البدع أقرب إلى الله تعالى ممن ينكرونها عليهم .

وهذا هو خطر البدعة حقا ؛ فإن صاحبها ينطبق عليه قول الله تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (٣) .

---

(١) رواه أحمد وأبو داود والترمذى وقال : حسن صحيح ، وهو من أحاديث الأربعين النووية .

(٢) متفق عليه عن عائشة .　　　(٣) فاطر : ٨ .

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (١) .

ولهذا كانت خشية السلف من البدعة أكبر من خشيتهم من المعصية ، وكان تحذيرهم من البدعة أشد ، لأن صاحب المعصية سرعان ما يتوب من معصيته ، فهو يعلم أنها معصية ، وهى تؤرقه وتعذب ضميره ، ويظل هذا الألم النفسى ، وهذا التعذيب الوجدانى يصاحبه ، حتى يتحول إلى ثورة على حياته ، وهذه الثورة هى التوبة .

أما صاحب البدعة ، فهو مستريح إلى سلوكه ، راض عن نفسه ، لا يشعر بألم الذنب ، لأنه فى نظر نفسه غير مذنب ، ولا مخالف ، بل هو متعبد ، وربما مبالغ فى العبادة ، بل ربما كانت عبادته الظاهرة أكثر وأعظم من عبادات الكثيرين من المتدينين ، كما جاء فى الحديث عن الخوارج : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وقيامه إلى قيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم » (٢) .

والبدعة - كما هو معلوم - بدعتان ، أو نوعان :

بدعة قولية أو اعتقادية ، أو بتعبير عصرنا : فكرية ، تمثل انحرافا فى الاعتقاد أو فى الفكر عن المنهج السوى الذى جاء به القرآن والسنة ، واستقر عليه سلف الأمة ، وخير قرونها ، وهى شر النوعين وأخطرهما .

وذلك مثل بدع الفرق الإسلامية المنحرفة عن السنة والجماعة ، مثل الخوارج والشيعة - وخصوصا الغلاة منهم - والجبرية والقدرية والمرجئة ، وغيرهم ، على تفاوت بينهم فى مدى القرب أو البعد من حقيقة الإسلام ، ونهجه القويم فى العقيدة والسلوك ، ومثل الدعوة إلى العلمانية فى عصرنا ، والقول بأن لا سياسة فى الدين ، ولا دين فى السياسة ، والدعوة إلى إلغاء الطلاق ، وتعدد الزوجات ، أو إلى التسوية بين الابن والبنت فى الميراث .

---

(١) الكهف : ١٠٤ .   (٢) متفق عليه .

وبعض هذه البدع قد يغلظ ويكبـــر ، حتى ينتهى إلى درجة الكفر ، والعياذ بالله ٠

فالقول بأن البعث فى الآخرة روحانى لاجسمانى ، وإنه لا توجد جنة حسية ، ولا نار حسية ، ولا نعيم مادى ، ولا عذاب مادى ٠

أو القول بأن الله لا يعلم جزئيات ما يجرى فى الكون ٠

أو القول بحلول الله فى بعض خلقه ، أو بعـدم الثنائية فى الوجـــود ، بمعنى أنه لا يوجد خالق ومخلوق ، ورب ومـربوب ، وعـابد ومعبود ، إنما هووجود واحد ٠

وهو ظاهر ما ذهب إليه الحلاج فى نظرية الحلول ، وابن عربى فى نظرية وحدة الوجود ٠

وقول بعض الناس فى عصرنا : إن القرآن بمجرد نزوله انتقل من الإلٰهية إلى البشرية ، وأصبح نصًّا بشريا ! وقول بعضهم بالتسوية بين الأولاد فى الميراث لا فرق بين ذكر وأنثى ٠

والنوع الثانى هو : البدعة العملية كأن يخترع عبادة من عنده لم يشرعها الله ولا رسوله ، أو يضيف إلى العبادة المشروعة ما ليس منها مثل (صلاة الرغائب) التى ابتدعها بعض الناس فى أول كل شهر رجب ٠

ومثل الصيام عن الكلام تعبدا ، أو الصيام عن أكل اللحوم أو كل ما كان من ذى روح ، تعبدًا وتقربا إلى الله ، مثل أكل البيض وشرب اللبن ، وتناول منتجات الألبان ٠

ومثل الصيام أو الإمساك عن الطعام والشراب قبل الفجر بثلث ساعة أو عشر دقائق ، أو نحو ذلك احتياطا ، أو الإمساك عن المبادرة إلى الإفطار بعد المغرب مبالغة فى الاحتياط ٠

والبدعة العملية قسمان أيضًا : إيجابية وســلبية ، وبعبارة أخرى : فعلية

وتركية ، والفعلية هى التى تتناول عملا بالفعل ، مثل الصلاة أو الصيام أو الذكر ، أو غير ذلك مما يتقرب به إلى الله ، وهو غير مشروع ، ويدخل فيما شرع من الدين مما لم يأذن به الله سبحانه .

والتركية : ما كانت تركا لعمل مشروع ، واجب أو مستحب أو مباح ، وذلك مثل ترك الزواج أو ترك النوم بالليل ، أو ترك الإفطار فى بعض الأيام - مثل الثلاثة الذين أنكر عليهم النبى ﷺ الذين قال أحدهم : أنا أقوم الليل فلا أنام ، وقال الثانى : أنا أصوم الدهر فلا أفطر ، وقال الثالث : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج .. فبلغ النبى ﷺ مقالتهم ، فخطبهم قائلا : إنما أنا أخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أقوم وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » متفق عليه عن أنس .

* * *

الذنوب القاصرة والذنوب المتعدية

كما أن من الطاعات والحسنات ما هو قاصر لا يؤثر إلا فى صاحبه مثل الصلاة والصيام والحج والعمرة والذكر وتلاوة القرآن ، ومنها ما يتعدى نفعه إلى الغير ، مثل الزكاة والصدقات وبر الوالدين وصلة الرحم والإحسان إلى الجار والمسكين وابن السبيل .

فكذلك الذنوب والمعاصى والسيئات ، منها ما هو قاصر لا يؤثر إلا فى صاحبه ، ولا يتعدى تأثيره إلى غيره .

ومنها ما هو متعدى التأثير بصورة أو بأخرى ، إلى مدى يقرب أو يبعد .

والذنوب المتعدية التأثير ، قد يكون تعديها أفقيا ، وقد يكون رأسيا ، وبعبارة أخرى : قد يكون التعدى فى سعة المكان ، وقد يكون فى امتداد الزمان .

الذنوب الممتدة فى المكان :

روى البخارى فى حديث سمرة بن جندب الطويل ، الذى رأى فيه النبى ﷺ عقوبات أرباب الذنوب فى الآخرة ، وكيف يعذبون عليها ، وقص فى الصباح على أصحابه هذه الرؤيا ، ورؤيا الأنبياء حق ووحى كما هو معلوم ، ومما جاء فى هذا الحديث أن الملكين اللذين ابتعثاه قالا له : انطلق ، انطلق ، قال : فأتينا على رجل مستلق على قفاه ، وإذا آخر قائم عليه بكلوب من حديد ، وإذا هو يأتى أحد شقى وجهه ، فيشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، ثم يتحول إلى الجانب الآخر ، فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول ، قال : فما يفرغ من ذلك الجانب ، حتى يصح ذلك الجانب ، كما كان ، ثم يعود عليه ، فيفعل مثل ما فعل فى المرة الأولى . . . » .

ثم بعد أن رأى ما رأى سأل الرسول الملكين أن يفسرا له ما رآه ، فكان مما قالا له :

« وأما الرجل الذى أتيت عليه يشرشر شدقه إلى قفاه ، ومنخره إلى قفاه ، وعينه إلى قفاه ، فإنه الرجل يغدو من بيته ، فيكذب الكذبة تبلغ الآفاق » .

فهذا الكذاب يعذب هذا العذاب الشنيع الأليم ، لأن كذبته لا تقف عند شخص أو شخصين ، بل إنها لتتسع وتنتشر حتى تبلغ الآفاق ، مشرقة ومغربة .

وأبرز من ينطبق عليه هذا فى عصرنا : الصحفيون الذين ينشرون الأكاذيب ، فتطير فى العالم كله ، وتنقلها وكالات الأنباء ، فإذا هى تملأ الدنيا .

وكذلك نجد معظم ذنوب أهل القلم ، وأهل الفن ، وأهل الإعلام ، فى عصرنا من هذا النوع المتعدى ، الذى يمتد ويتسع أفقيا ، بما يملكه عصرنا من وسائل وأدوات قادرة على توسيع نطاق التأثير ، وتبليغه إلى آفاق العالم .

ومن الذنوب المتعدية : ذنوب الأمراء والولاة والحكام ، الذين يظلمون العباد ، ويطغون فى البلاد ، فيكثرون فيها الفساد ، وبخاصة حكام زمننا الذين وفرت لهم علوم العصر وتكنولوجيته : القدرة الهائلة على التأثير فى الشعوب ، وتكوين أفكارها وأذواقها وميولها ، عن طريق مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام .

وإذا كان قد روى فى الحديث « أن يوما من والٍ أو إمام عادل : أفضل من عبادة ستين سنة » وذلك لما قد يزيل فيه من مظالم ، وما يقيم فيه من حدود ، وما يرد فيه من حقوق ، وما يقرر فيه من أحكام عادلة ، ومبادىء سامية ، وقواعد لحماية الأنفس والأعراض والأموال ، وقواعد لرعاية العقائد والأخلاق والآداب ، وحماية المجتمع من الرذائل والمفاسد والشرور .. فلا غرو أن يكون اليوم الواحد من هذا الحاكم العادل يوازى ، بل يفضل عبادة ستين سنة من غيره .

إذا كان هذا فى الوالى العادل بمقابله : أن يوما من والٍ أو حاكم ظالم أسوأ

من ذنوب ستين سنة من غيره ، وذلك لما قد يصدر فى هذا اليوم الواحد من قرارات جائرة ، وما يقرره من قواعد ومناهج وأوامر مضرة بالعقائد ، أو مدمرة للأخلاق ، أو مجرئة على معاصى الله ، ناشرة للرذائل ، أو مشيعة للشبهات والأفكار المضلة أو مروجة للأباطيل المستوردة من خارج الأمة . . إلى غير ذلك مما يتصور ظهوره وحدوثه على أيدى حكام اليوم ، ولا سيما فى البلدان التى للحكام فيها سلطة شبه مطلقة .

إن هؤلاء لا يحملون وزر أنفسهم فقط ، بل يحملون وزر شعوبهم الذين أضلوهم عن الحق ، وزينوا لهم الباطل ، حتى اتبعوهم فى ضلالهم الفكرى ، وغيهم السلوكى ، وقد قيل قديما : الناس على دين ملوكهم ! ولم يكن لملوك الأمس من التأثير المباشر وغير المباشر : ما لحكام اليوم .

ولهذا أرسل النبى ﷺ رسائله إلى ملوك عصره ، وأمرائه ودعاهم إلى الإسلام ، وحملهم - إذا لم يستجيبوا لدعوته - إثمهم وإثم رعيتهم معهم فهو قد حمل (كسرى) إثم الفرس ، وحمل (قيصر) إثم البريسيين أى الفلاحين والجماهير الغافلة من الروم . . وحمل المقوقس فى مصر إثم القبط . . وهكذا .

والقرآن الكريم يحمل الدعاة إلى الضلال والصادين عن سبيل الله وزر من أضلوهم وصدوهم ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (١) .

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ، أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (٢) .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ

---

(١) النحل : ٨٨ . (٢) النحل : ٢٥ .

وَمَاهُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم مِّن شَيْءٍ ، إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ، وَلَيُسْئَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ (١) .

ووزر كل زعيم أو حاكم من هؤلاء الذين زينوا لشعوبهم الباطل ، وأضلوهم عن الحق ، وصدوهم عن السبيل ، يتفاوت بتفاوت عدد من أضلهم ، ومدى هذا الضلال ، ومدى تأثيره فيه ، فوال فى محافظة ، أو أمير فى بلد صغير ، ليس كرئيس فى بلد مقداره سبعون مليونا ، أو مائة مليون ، أو مائتا مليون ، أو ألف مليون ، وحاكم متسلط على شعبه ، يقودهم بعصاه ، أو بسيفه ، ليس كحاكم يشاركه الناس فى السلطة ، ولهذا كان فرعون المتأله فى الأرض أشد عذابا من غيره ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ (٢) .

وما ذلك إلا لدوره الأكبر فى الإضلال والإفساد والطغيان ، قال تعالى : ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ (٣) ، ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ ﴾(٤) ، ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ ، وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴾ (٥) .

وكذا قال تعالى عن فرعون وهامان : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يُنصَرُونَ ﴾ (٦) .

وما يقال عن زعماء السياسة ، يقال عن زعماء الفكر ، من دعاة الضلالة وأئمة الكفر ، ورؤوس الفتنة ، الذين يسوّقون الإلحاد ، ويشيعون الانحلال ، وينشرون الفساد : بألسنتهم وأقلامهم وأدواتهم وألحانهم وإمكاناتهم العلمية والفنية ، ويجندون مواهبهم فيما يبغض الله ، وما يهدى إلى النار ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِى اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ * ثَانِىَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ ، لَهُ فِى

---

(١) العنكبوت : ١٢ ، ١٣ .
(٢) غافر : ٤٦ .
(٣) طه : ٧٩ .
(٤) الزخرف : ٥٤ .
(٥) هود : ٩٨ .
(٦) القصص : ٤١ .

الدُّنْيَا خِزْىٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (1) .

وإمام هؤلاء ، وزعيمهم الأول ، وقائدهم الأكبر : إبليس لعنه الله ، فهو الذى قال لربه ﴿ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ المخْلَصِينَ ﴾ (2) ، ﴿ لَعَنَهُ اللهُ ، وَقَالَ لأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضًا * وَلأُضِلَّنَّهُمْ وَلأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ ﴾(3) وهؤلاء هم جنود إبليس وتلامذته فى التزيين والإغواء والإضلال .

الذنوب الممتدة فى الزمان :

وكما تمتد الذنوب والخطايا أفقيا ومكانيا ، فإنها تمتد وتتسع رأسيا وزمانيا ، فمن الخطايا والمعاصى ما لا ينتهى بارتكابه ، بل يستمر ويبقى زمنا يقصر أو يطول ، وقد يعمر قرونا ، وقد يستمر إلى يوم القيامة .

ومن هنا نقل عن السلف رضى الله عنهم : طوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ، وويل لمن إذا مات ظلت ذنوبه من بعده !

فكما أن من الناس من يموت وتبقى حسناته من بعده ، تضيف عمرا بل أعمارا إلى عمره : من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له ، أو سنة حسنة سنها ، فعمل الناس بها من بعده ، فله أجرها وأجر كل من عمل بها لا ينقص من أجورهم شيئاً .

كذلك فى الجانب الآخر ، نجد من سن سنة سيئة ، فإن عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، لا ينقص من أوزارهم شيئاً .

فالأول إمام فى الخير والهدى ، وهذا إمام فى الشر والضلالة ، كالذين قال الله فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾(4) فى مقابل من قال فيهم: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ (5) .

---

(1) الحج : 8 - 10 . (2) الحجر : 39 ، 40 .

(3) النساء : 118 ، 119 . (4) القصص : 41 . (5) السجدة : 24 .

ولهذا قال ﷺ : « ما من نفس تقتل إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها ، لأنه أول من سن القتل » (١) فهذا ابن آدم الشرير الذى قتل أخاه فى فجر تاريخ البشرية : قد سنّ سنة القتل لمن بعده ، وأيا كان صغر هذا الكفل من كل جريمة قتل ، فإنه يحمل جزءًا من ملايين الجرائم وضحايا الحروب ونحوها .

وكل من نشر ضلالة فى الناس ، أفسدت فكرهم ، أو أوهنت إيمانهم ، أو ألقت فى عقولهم شبهات ، سواء بالكلمة المسموعة فى شريط ، أو المكتوبة فى صحيفة أو فى كتاب ، أو نقلها الناس عنه بعضهم عن بعض ، فهو محاسب على هذه الضلالة ، وإن مات من سنين أو عقود أو قرون .

ومثله كل من روّج بدعة قولية أو عملية ، فإن كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وكذلك كل من روّج فسادا خلقيا ، يجرىء الناس على الفسوق ويغريهم بالانحراف والإثم ، عن طريق قصة ماجنة ، أو مسرحية فاجرة ، أو رقصة داعرة أو أغنية هابطة ، أو مقالة ساقطة ، أو صورة فاضحة ، أو بذاءة واضحة ، أو نحو ذلك مما يقع فيه كثير من العابثين والممثلين والمطربين والملحنين والمصورين من الرجال والنساء على السواء ، من أهل القلم أو أهل الفن والإعلام .

* * *

إن الذى أفسد الحياة ، وعمى الحقائق على البشر ، هم شياطين الإنس ، الذين أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ، فسنوا للناس سننًا ، ووضعوا لهم تقاليد ، وهيأوا لهم مناهج ، وابتدعوا لهم مؤسسات ، لإغرائهم بالضلال ، وثنى أعنّتهم عن الهدى ، وإقناعهم بالباطل ، وتعويقهم عن طريق الحق ، وتزيين الفجور لهم ، وتثبيطهم عن سبيل التقوى .

(١) رواه البخاري .

وفى هذا صحت الأحاديث النبوية : « من سن سنة حسنة فله أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » [1] .

« من دعا إلى هدى كان له أجره وأجر من اتبعه إلى يوم القيامة ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه وزرها ووزر من تبعه إلى يوم القيامة » [2] .

* * *

(١ ، ٢) رواهما مسلم .

الذنوب المتعلقة بحقوق الله والمتعلقة بحقوق العباد

وتنقسم الذنوب فيما تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الله عز وجل ، وما يتعلق بحقوق العباد .

ومن الكلمات المشهورة فى محيط العلماء ، قولهم : حقوق الله مبنية على المسامحة ، وحقوق العباد مبنية على المشاحّة .

ذلك أن الله تعالى جواد كريم ، عفو غفور ، غنى عن العالمين ، بل هو أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين ، فلا عجب أن يسامح فى حقه ، ويعفو عمن فرط فى جنبه ، بأدنى رجعة إليه ، أو بمجرد ابتهال وتضرع لجنابه ، أو بغير شىء أصلا إن شاء .

أما الإنسان فهو شحيح قتور بطبعه ، كما قال تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ الأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ (١) ، وقال : ﴿ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُوراً ﴾ (٢) ، وخصوصا فى يوم القيامة ، فهو يوم الأنانية المطلقة ، لا يفكر كل إنسان فيه إلا فى نفسه ، ونجاة نفسه ، وقد يحتاج إلى حسنة واحدة يرجح بها ميزان حسناته ، فيستحق بها دخول الجنة ، وقد يثقل ميزان سيئاته بسيئة واحدة ، فيدخل بها النار .

لهذا يقول كل أمرىء فى هذا اليوم : نفسى نفسى : ﴿ لاَّ يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا ﴾ (٣) ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (٤) .

فما كان من الذنوب والمعاصى من حقوق الله تعالى ، مثل ترك بعض المأمورات

---

(١) النساء : ١٢٨ . (٢) الإسراء : ١٠٠ .

(٣) لقمان : ٣٣ . (٤) عبس : ٣٤ - ٣٧ .

الشخصية أو ارتكاب بعض المنهيات ، مثل شرب الخمر ، وسماع الملاهى ، وإيذاء الحيوان ، وإيذاء الإنسان نفسه ، وتبذيره ماله ، وارتكاب بعض المنهيات الشخصية ، مثل الوشم ، ووصل الشعر ، ونمص الجفون ، ووشر الأسنان ، وعمل جراحات التجميل ، التى لا ضرورة لها ، وتشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال ، ونحوها . . فالتوبة منها تتحقق بالندم والإقلاع والعزم .

أما ما كان من حقوق العباد ، ولا سيما الحقوق المالية ، فلا يكفى فيه الندم ، والعزم والإقلاع ، بل لابد من ردها إلى أصحابها ، أو استحلالهم ، أى طلب عفوهم وتنازلهم عن حقهم لله تعالى ، وإلا ظلت هذه الحقوق ديونا لأربابها فى أعناق المدينين ، حتى يتقاضوها يوم القيامة من حسنات خصومهم حتى يستوفوا مالهم ، فإن لم تف الحسنات،طرحوا من سيئاتهم على ظالميهم حتى يأخذوا حقهم .

وهذا هو « المفلس » الذى عرّفه لنا الحديث الصحيح حين قال : « أتدرون ما المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع،فقال : إن المفلس من أمتى : من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته ، ويعطى هذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم ، فطرحت عليه ، ثم طرح فى النار »(١) .

فقد كان هذا - بما له من طاعات وحسنات - فى عداد الأغنياء وأصحاب الرصيد ، ولكن رصيده من الصالحات قد ضاع كله فى قضاء حقوق الناس فى يوم لا يسامح فيه أحد أحداً ، ولا يتقاضى الناس حقوقهم إلا بعملة واحدة ، هى الحسنات والسيئات .

ومن أجل هذا أمر النبى ﷺ كل من ظلم الناس شيئا ، أو أخذ منهم حقا

---

(١) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة .

من حقوقهم المادية أو الأدبية : أن يصفى حسابه مع من ظلمه فى الدنيا ، قبل أن يصفّى فى الآخرة ، وذلك بأن يتحلل من صاحب الحق ، أو صاحب المظلمة . ومعنى التحلل : طلب المسامحة والعفو منه ، أو المصالحة على شيء يقبله .

وفى هذا قال عليه الصلاة والسلام : « من كانت عنده مظلمة لأخيه من عِرْض أو من شيء ، فليتحلله منه اليوم ، من قبل ألاّ يكون دينار ولا درهم ، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم تكن له حسنات ، أخذ من سيئات صاحبه ، فحمل عليه » (١) .

شمل الحديث الحقوق الأدبية مثل النيل من عرض الإنسان ، وهو ما نعبر عنه اليوم بالكرامة والسمعة ، سواء فى نفسه أم فى أهله ومن يعيَّر بهم ، كما شمل الحقوق المادية والمالية ، ولذا قال : « أو من شيء » .

ولخطورة الحقوق المالية قال ﷺ : « يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّين » (٢) .

فالشهادة فى سبيل الله ، هى أعلى ما يطلبه المسلم من ربه ، ومنزلة الشهيد عند الله لا تدانيها منزلة بعد منزلة النبوة والصديقية ، ومع هذا يغفر الله بها كل الذنوب ما عدا (الديون) فإن أصحابها يطالبون بها يوم الحساب ، وإن كان المأمول من سعة فضل الله تعالى أن يغطّى ثواب الشهادة ما يستحقه الدائنون .

وعن أبى قتادة أن رسول الله ﷺ قام فيهم ، فذكر أن الجهاد فى سبيل الله ، والإيمان بالله : أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت فى سبيل الله تكفر عنّى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « نعم ، إن قتلت فى سبيل الله ، وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر » ثم قال رسول الله : « كيف قلت ؟ » قال : أرأيت إن قتلت فى سبيل الله ، أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول

---

(١) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٢) رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو .

الله ﷺ : « نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر ، إلا الدين ، فإن جبرائيل قال لى ذلك » (١) .

فانظر كيف استدرك أمين الوحى جبريل عليه السلام ، على النبى ﷺ ، فى فصحح الرسول الكريم ما قاله للرجل السائل عن الشهادة ، واستثنى (الدَّيْنَ) مما تكفره من الخطايا .

وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال : كان رسول الله ﷺ ، قاعدا حيث توضع الجنائز ، فرفع رأسه قِبَلَ السماء، ثم خفض بصره ، فوضع يده على جبهته ، فقال : سبحان الله ! سبحان الله ! ما أنزل من التشديد ؟! قال : فعرفنا وسكتنا ، حتى إذا كان الغد ، سألت رسول الله ﷺ فقلت : ما التشديد الذى نزل ؟ قال : فى الدَّين ، والذى نفسى بيده ، لو قتل رجل فى سبيل الله ، ثم عاش ، ثم قتل ، ثم عاش ، ثم قتل : ما دخل الجنة حتى يقضى دينه ! » (٢) .

فهل رأيت تشديدا أبلغ وأعظم من هذا التشديد فى أمر الدين ؟ وهذا كله يدلنا بجلاء على أهمية حقوق العباد ، والذنوب المتعلقة بها ، ولا سيما الحقوق المالية .

يؤكد هذا ما جاء من أحاديث فى شأن بعض الشهداء الذين غلّوا من الغنائم قبل قسمتها ، فرآهم النبى عليه الصلاة والسلام وقد اشتعل ما أخذوه نارا تحرقهم ، لأنهم أخذوا ما ليس لهم بحق من المال العام .

فعن أبى هريرة أن رجلا قتل فى غزوة خيبر ، فقال الناس : هنيئًا له الجنة : (أى لأنه أدرك درجة الشهادة فى سبيل الله) فقال رسول الله ﷺ : « كلا ،

---

(١) رواه مسلم عن أبى قتادة .

(٢) رواه النسائى فى كتاب البيوع : باب التغليظ فى الدين (٧ / ٣١٤ ، ٣١٥) والحاكم واللفظ له ، وقال : صحيح الإسناد ، وأقره المنذرى والذهبى، انظر: المستدرك (٢ : ٢٥) والمنتقى من الترغيب حديث (١٠٢٢) وذكره فى صحيح الجامع الصغير .

والذى نفسى بيده ، إن الشملة التى أخذها يوم خيبر من المغانم لم تصبها المقاسم ، لتشتمل عليه نارا » (١) .

وعن ابن عباس قال : حدثنى عمر ، قال : لما كان يوم خيبر ، أقبل نفر من صحابة النبى ﷺ ، فقالوا : فلان شهيد ، وفلان شهيد ، حتى مروا على رجل ، فقالوا : فلان شهيد ، فقال رسول الله ﷺ : « كلا ، إنى رأيته فى النار ، فى بردة غلّها - أو عباءة » (٢) .

وهذا يدلنا على أن الحقوق العامة كالحقوق الخاصة ، لا يجوز أخذها بغير حق .

ولا ينفع آخذَ المال بغير حق : أن يتصدق به ، لأن صدقته غير مقبولة عند الله ، فقد تصدق بما لا يملك ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « لا يقبل الله صدقة من غلول » (٣) .

إن الصدقة المقبولة هى التى تخرج من مال طيب ، كما قال ﷺ : « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا » (٤) .

وقد رووا عن الإمام الفقيه الورع سفيان الثورى رضي الله عنه : أنه اعتبر الكبائر : ما تعلق بحقوق العباد ، والصغائر : ما تعلق بحق الله سبحانه وتعالى .

نقل ذلك عنه العلامة ابن القيم فى (المدارج) قال :

قال سفيان الثورى : الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك وبين العباد ، والصغائر : ما كان بينك وبين الله ، لأن الله كريم يعفو ، واحتج بحديث يزيد بن هارون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « ينادى منادٍ من قبل بُطنان العرش يوم القيامة : يا أمة محمد ، إن الله عز وجل قد عفا

---

(١) متفق عليه . (٢) رواه مسلم . (٣) رواه مسلم .
(٤) رواه مسلم .

عنكم جميعكم ، المؤمنين والمؤمنات ، فتواهبوا المظالم بينكم ، وادخلوا الجنة برحمتى » [1] .

قلت : مراد سفيان : أن الذنوب التى بين العبد وبين الله أسهل أمراً من مظالم العباد ، فإنها تزول بالاستغفار ، والعفو والشفاعة وغيرها ، وأما مظالم العباد : فلابد من استيفائها ، وفى المعجم للطبرانى « الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لا يغفر الله منه شيئًا ، وهو الشرك بالله ، ثم قرأ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ ﴾ [2] وديوان لا يترك الله منه شيئاً ، وهو مظالم العباد بعضهم بعضًا ، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا ، وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين الله » .

ومعلوم أن هذا الديوان مشتمل على الكبائر والصغائر ، لكن مستحقه أكرم الأكرمين ، وما يعفو عنه من حقه ويَهَبه أضعافُ أضعاف ما يستوفيه ، فأمره أسهل من الديوان الذى لا يترك منه شيئًا لعدله ، وإيصال كل حق إلى صاحبه .

* * *

---

(١) حديث أنس ذكره الغزالى فى«الإحياء»فى فضيلة العفو والإحسان،وقال العراقى:أخرجه أبو سعيد أحمد بن إبراهيم المقرى فى كتاب التبصرة والتذكرة وإسناده ضعيف .

(٢) النساء : ٤٨ .

صغائر الذنوب وكبائرها

ذهب بعض العلماء إلى أن المعاصى كلها كبائر ، وكأنهم استعظموا أن يكون المعصّى هو الله الكبير المتعال ، الخالق الرازق ، ثم تكون معصيته صغيرة ، فرأوا أن كل ما عصى الله به فهو كبيرة .

فإذا كانت إساءة الولد إلى والده ولو بكلمة ، تستعظم وتستهول ، لعظم حق الوالد ، فكيف بحق الرب الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدَّر فهدى ؟

وهذا شعور طيب ، ولا شك ، ولكنه لا ينفى الواقع .

وهو أن المعاصى والذنوب تتفاوت تفاوتا بينا فى مفاسدها وآثارها فى الحياة ، وتتفاوت كذلك فى تأثيرها على القلب وتدنيسه .

كما أن النصوص نفسها بينت بوضوح أن فى المعاصى كبائر وفواحش ، ومنها دون ذلك كما قال تعالى فى وصف مشهد من مشاهد الآخرة : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾ (١) .

يقول تعالى : ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ (٢) .

وفى وصف الذين أحسنوا يقول تعالى : ﴿ وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى * الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾ (٣) .

وفى مدح المؤمنين الذين أدخر الله لهم فى الآخرة ما هو خير وأبقى من متاع الحياة الدنيا ، فقال : ﴿ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِندَ اللهِ

---

(١) الكهف : ٤٩ . (٢) النساء : ٣١ . (٣) النجم : ٣١ ، ٣٢ .

خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ (١) .

فلم تطلب هذه الآية ولا تلك اجتناب صغائر الذنوب ، لأن الناس قلما يسلمون من مواقعتها فى حياتهم اليومية ، وإنما اكتفى منهم باجتناب كبائر الإثم والفواحش :

وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر » .

وانقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر : ثابت بنصوص القرآن والسنة الصحيحة وإجماع الصحابة والتابعين ، وبالاعتبار والمعقول أيضاً .

وأما ما يحكى عن أبى إسحاق الاسفرائينى أنه قال : الذنوب كلها كبائر ، وليس فيها صغائر ، فليس مراده : أنها مستوية فى الإثم ، بحيث يكون إثم النظر المحرم ، كإثم الوطء فى الحرام ، وإنما المراد : أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِىَ بها كلها كبائر ، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض ، ومع هذا فالأمر فى ذلك لفظى لا يرجع إلى معنى .

قال ابن القيم :

والذى جاء فى لفظ الشارع : تسمية ذلك « لَمَمًا » و « مُحَقّرات » كما فى الحديث « إياكم ومُحقّرات الذنوب » وقد قيل : إن « اللمم » المذكور فى الآية من الكبائر ، حكاه البغوى وغيره .

قالوا : ومعنى الاستثناء : أن يُلِمَّ بالكبيرة مرة ، ثم يتوب منها ، ويقع فيها ثم ينتهى عنها ، لا يتخذها دأبه ، وعلى هذا يكون استثناء « اللمم » من الاجتناب ، إذ معناه : لا يصدر منهم ، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمماً .

---

(١) الشورى : ٣٦ ، ٣٧ .

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر ، وهو منقطع .. أى لكن يقع منهم اللمم .

ثم اختلفوا فى فصلين ، أحدهما : فى « اللمم » ما هو ؟ والثانى : فى « الكبائر » وهل لها عدد يحصرها ، أو حَدٌّ يحدها ؟ فلنذكر شيئًا يتعلق بالفصلين .

معنى اللمم :

فأما « اللمم » فقد روى عن جماعة من السلف : أنه الإلمام بالذنب مرة ، ثم لا يعود إليه ، وإن كان كبيراً ، قال البغوى : هذا قول أبى هريرة ، ومجاهد ، والحسن ، ورواية عطاء عن ابن عباس . قال : وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « اللمم ما دون الشرك » قال السدى : قال أبو صالح : سُئِلْتُ عن قول الله عز وجل « إلا اللمم ؟ » فقلت : « هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوده » فذكرت ذلك لابن عباس فقال « لقد أعانك عليها ملك كريم » .

والجمهور : على أن « اللمم» مادون الكبائر ، وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ، كما فى صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال « ما رأيت أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبى ﷺ : إن الله كتب على ابن آدم حَظَّه من الزنا ، أدرك ذلك لا محالة ، فزنا العين : النظر ، وزنا اللسان : النطق ، والنفس تَمَنّى وتشتهى ، والفرجُ يصدق ذلك أو يكذِّبه » (١) ورواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة ، وفيه « والعينان زناهما : النظر ، والأذنان : زناهما الاستماع ، واللسان : زناه الكلام ، واليد : زناها البطش ، والرِّجْلُ : زناها الخُطا » (٢) .

وقال الكلبى « اللمم » على وجهين ، كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًا فى الدنيا ، ولا عذابًا فى الآخرة ، فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ، ما لم يبلغ

---

(١) رواه البخارى (٦٢٤٣) ومسلم (٢٦٥٧) .

(٢) هو فى صحيح مسلم (٢٦٥٦) .

الكبائر والفواحش ، والوجه الآخر : هو الذنب العظيم ، يُلِمُّ به المسلم المرة بعد المرة ، فيتوب منه ·

قال سعيد بن المسيب : هو ما ألمَّ بالقلبه ، أى ما خطر عليه ·

وقال الحسين بن الفضل : « اللمم » النظر من غير تعمد ، فهو مغفور ، فإن أعاد النظر ، فليس بلمم ، وهو ذنب ، وقد روى عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :

« إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا ، وأى عبد لك لا ألمّا »[1] ·

وذهبت طائفة ثالثة إلي أن « اللمم » ما فعلوه فى الجاهلية قبل إسلامهم ، فالله لا يؤاخذهم به ، وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين « أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا ، فأنزل الله هذه الآية » وهذا قول زيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم ·

والصحيح : قول الجمهور : أن اللمم صغائر الذنوب ، كالنظرة ، والغمزة ، والقبلة ، ونحو ذلك ، هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم ، وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود ، وابن عباس ، ومسروق ، والشعبى ، ولا ينافى هذا قول أبى هريرة ، وابن عباس فى الرواية الأخرى « أن يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها » فإن « اللمم » إما أنه يتناول هذا وهذا ، ويكون على وجهين ، كما قال الكلبى ، أو أن أبا هريرة ، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة - ولم يصر عليها ، بل حصلت منه فلتة في عمره - باللمم ، ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم فى حق من تكررت منه مراراً عديدة ، وهذا من فقه الصحابة ﷺ وغور علومهم ، ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث ، وإنما يُخاف العَنَتُ على من اتخذ الذنب عادته ، وتكرر منه مراراً كثيرة ، وفى ذلك آثار سلفية ، والاعتبار بالواقع يدل على هذا ، ويذكر عن على ﷺ : أنه « دُفع إليه سارق ، فأمر بقطع يده ، فقال :

---

(١) رواه الترمذى (٣٢٨٠) والحاكم (٢ / ٤٩٢) ·

يا أمير المؤمنين ، والله ما سرقت غير هذه المرة،فقال: كذبت ، فلما قطعت يده قال : اصدقنى ، كم لك بهذه المرة ؟ فقال : كذا وكذا مرة ؟ فقال : صدقت ، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب » أو كما قال ، فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم ، فهو من جنسه ونظيره ، فالقولان عن أبى هريرة ، وابن عباس ، متفقان غير مختلفين (١) ، والله أعلم .

اختلاف السلف فى معنى الكبيرة وعددها :

وأما الكبائر : فاختلف السلف فيها اختلافًا لا يرجع إلى تباين وتضاد ، وأقوالهم متقاربة .

وفى الصحيحين من حديث الشعبى عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ قال : « الكبائر : الإشراك بالله ، وعُقوقُ الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس » (٢) .

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبى بكرة عن أبيه عن النبى ﷺ : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ثلاثاً - قالوا : بلى ، يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئاً - فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » (٣).

وفى الصحيح من حديث أبى وائل عن عمرو بن شرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال : قلت « يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك ، قال قلت : ثم أى ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك ، قال

---

(١) انظر : المدارج : ١ / ٣١٥ - ٣١٨ .

(٢) أخرجه البخارى (٦٦٧٥) ولم يخرجه مسلم كما فى « تحفة الأشراف » ٦ / ٣٤٦ للمِزِّى ، ورواه أحمد ٢ / ٢٠١ والترمذى (٣٠٢٤) والنسائى ٧ / ٨٩ .

(٣) أخرجه البخارى (٥٩٧٧) ومسلم (٨٧) والترمذى (٢٣٠٢) .

قلت : ثم أى ؟ قال : أن تزانى حليلة جارك ، فأنزل الله تعالى تصديق قول النبى ﷺ[1] ﴿ والَّذينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلَهاً آخَرَ ولاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالحَقِّ ولاَ يَزْنُونَ ﴾[2] » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات »[3] .

وعن عبد الله بن عَمْرِو رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « من أكبر الكبائر : أن يسب الرجل والديه ، قالوا : وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه ، فيسب أمه »[4] .

وفى حديث أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « إن من أكبر الكبائر : استطالة الرجل فى عرض أخيه المسلم بغير حق »[5] .

وهذه الأحاديث الصحاح : تدلنا على أن الكبائر ليست فى درجة واحدة ، بل هى متفاوتة ، فمنها : ما سماه الرسول (أكبر الكبائر) .

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ : « أكبر الكبائر : الشرك بالله ، والأمن من مكر الله ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله » .

---

(١) رواه البخارى (٤٤٧٧) ومسلم (١٤٢) والترمذى (٣١٨٢) والنسائى (٧ / ٨٩) وأحمد (١ / ٤٣٤) .

(٢) الفرقان : ٦٨ .

(٣) رواه البخارى (٦٨٥٧) ومسلم (٨٩) .

(٤) رواه البخارى (٥٩٧٣) ومسلم (٩٠) .

(٥) رواه أبو داود (٤٨٧٧) ، والبزار (٣٥٦٩) و (٣٥٧٠) بأسانيد يشد بعضها بعضاً ، وله شاهد من حديث معيذ بن زيد عند أبى داود (٤٨٧٦) وأحمد (١ / ١٩٠) وإسناده صحيح .

قال سعيد بن جبير : سأل رجل ابن عباس عن الكبائر : « أسبع هن ؟ قال : هن إلى السبع مئة أقرب ، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » وقال : « كل شيء عصى الله به فهو كبيرة ، من عمل شيئاً منها فليستغفر الله ، فإن الله لا يخلد في النار من الأمة إلا من كان راجعاً عن الإسلام ، أو جاحداً فريضة أو مكذباً بالقدر » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : « ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ (١) فهو كبيرة » وقال على بن أبى طلحة : هى كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب .

وقال الضحاك : هى ما أوعد الله عليه حداً فى الدنيا ، أو عذاباً فى الآخرة .

وقال الحسين بن الفضل : ما سماه الله فى القرآن كبيراً ، أو عظيماً ، نحو قوله فى أكل أموال اليتامى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾(٢)، وفى قتل الأولاد : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾(٣)،وفى الشرك : ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤) وفى الإفك : ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (٥) وفى إيذاء النبى : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا ﴾ (٦) .

وقال مالك بن مغول : الكبائر ذنوب أهل البدع ، والسيئات ذنوب أهل السنة .

قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة ، فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع ، وهذا معنى قول بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن البدعة لا يتاب منها ، والمعصية يتاب منها .

(١) النساء : ٣١ . (٢) النساء : ٢ .
(٣) الإسراء : ٣١ . (٤) لقمان : ١٣ .
(٥) النور : ١٦ . (٦) الأحزاب : ٥٣ .

وقالت فرقة : الصغائر ما دون الحدين ، والكبائر : ما تعلق بها أحد الحدين .

ومرادهم بالحدين : عقوبة الدنيا وعقوبة الآخرة ، فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة فى الدنيا ، كالزنى وشرب الخمر ، والسرقة ، والقذف ، أو عليه وعيد فى الآخرة ، كأكل مال اليتيم ، والشرب فى آنية الفضة والذهب ، وقتل الإنسان نفسه ، وخيانته أمانته ، ونحو ذلك ، فهو من الكبائر [1] .

أقول : وهذا هو أقرب التعاريف إلى بيان حقيقة (الكبيرة) فنحن نعرفها بما رتبه الله عليها من إقامة حد أو عقوبة منصوص عليها ، فهذا دليل خطرها وعظمها.. وكذلك إذا أوعد عليها بوعيد شديد مثل دخول النار ولعنة الله وغضبه وعذابه العظيم أو الأليم أو نحو ذلك ، ولكن يجب أن يثبت هذا الوعيد بالقرآن الكريم ، أو بالأحاديث الصحيحة الصريحة التى لا خلاف عمليها ، أما الأحاديث المثخنة بالجراح مثل أحاديث الغناء والآلات ولعب الشطرنج ، ونحوها ، مما يختلف العلماء فى ثبوته أو فى دلالته على مجرد التحريم ، فكيف تثبت به الكبيرة ، وأصل التحريم مشكوك فيه ؟! .

* * *

(١) مدارج السالكين ببعض تصرف .

حقائق حول الكبائر والصغائر

١ - الصغيرة تجر إلى الكبيرة :

هناك جملة من الحقائق يجب أن نلم بها حول الكبائر والصغائر :

الحقيقة الأولى : إن الذنوب يفضى بعضها إلى بعض ، والأدنى منها يفضى إلى الأعلى ، فالصغيرة تجر إلى الكبيرة ، والكبيرة قد تجر إلى الكفر ، والعياذ بالله ، ولهذا قالوا : أول ذنب إبليس معصية وآخره كفر ، وأول ذنب قابيل - ابن آدم الشرير - شهوة ، وآخره شقوة ·

ولهذا كان تحذير الإسلام من كل ما يؤدى إلى المعصية أو يساعد عليها ، وخصوصا الكبيرة منها ، ومن أجل هذا حرم الخمر قليلها وكثيرها ، ولو قطرة منها ، والكثير هو المقصود بالتحريم ، ولكن القليل يدفع عادة إلى الكثير ، والألف تجر إلى الباء كما يقولون ·

وكذلك لعن فى الخمر عشرة ، والمقصود هو منع الشرب والسكر ، ولكنه لعن كل من ساهم فيها وسهل تناولها ، حتى يقطع جذورها ، ويسد الطريق إليها ، ولعل بعض هؤلاء يكون أعظم من الشارب إثما ، مثل مروجها والمتاجر فيها ، وخصوصا مع المخدرات ، وهى جزء من الخمر ، فإن الخمر - كما قال عمر - ما خامر العقل ، فصنع الخمر والمخدرات والاتجار بها أشد آلاف المرات من تعاطيها ، ولهذا اتفق كثير من فقهاء عصرنا على ضرورة عقاب تجار هذه السموم بالقتل (الإعدام) ، قصاصا لهم ، فهم قتلة سفاحون ، ولكن يقتلون شعوبا ، ويدمرون مجتمعات بأسرها ، وهم محاربون لله ورسوله ، وساعون فى الأرض فسادا ·

ولعن رسول الله ﷺ - مع آكل الربا - مؤكله وكاتبه وشاهديه ، وقال : هم سواء ، أى فى أصل الإثم ، وإن كان الأكل هو المقصود أصلا ، وهؤلاء له تبع لمعاونتهم على الإثم والعدوان ·

وحرم الإسلام الزنى ، فإنه كان فاحشة ، وساء سبيلا ، ولكنه حرم كل ما يقرب إلى الزنى ويعين عليه مثل : الخلوة والنظرة بشهوة ، والقبلة ونحوها ، وكذلك التبرج والمغريات بالفاحشة من الأغانى والصور والمشاهد المثيرة .

وهكذا نجد الصغائر تجر إلى الكبائر ، فإذا زلت قدم المكلف ، وسقط فى حفرة المعصية – ولو كانت صغيرة-ولم يتدارك نفسه بسرعة بالتوبة تنهضه من عثرته ، وتقيمه من كبوته ، فسرعان ما تدفع هذه المعصية إلى ثانية ، والثانية إلى الثالثة ، وهلم جرا ، ويستجرئ عليه الشيطان بمجرد انهزامه أمامه مرة ، وتضعف نفسه الأمارة بالسوء عن المقاومة ، حتى ينتهى إلى الاستسلام لعوامل السوء ، ونوازع الشر ، ويستمرىء هذا الطريق ، ولا يستطيع فطامًا عنه ، وهذا هو الخطر ، الذى يستعاذ بالله منه .

٢ – اجتناب الكبائر يكفر الصغائر :

والحقيقة الثانية من أحكام الكبيرة : أن اجتنابها يكفر الصغائر ، كما قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾(١) .

قال ابن كثير : أى إذا اجتنبتم كبائر الآثام التى نهيتم عنها ، كفرنا عنكم صغائر الذنوب ، وأدخلناكم الجنة .

وقال الإمام الغزالى : اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة ، إذا اجتنبها مع القدرة والإرادة ، كمن يتمكن من امرأة ومن مواقعتها ، فكف نفسه عن الوقاع ، فيقتصر على نظر أو لمس ، فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقاع : أشد تأثيرا فى تنوير قلبه من إقدامه على النظر فى إظلامه ، فهذا معنى تكفيره ، فإن كان عنينا (عاجزا جنسيا) أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للعجز ، أو كان قادراً ، ولكن امتنع لخوف أمر آخر ، فهذا لا يصلح للتكفيرا أصلا ، وكل من لا يشتهى الخمر أصلا ، ولو

(١) النساء : ٣١ .

أبيح له لما شربه ، فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر ، نعم من يشتهى الخمر ، وسماع الأوتار ، فيمسك نفسه بالمجاهد عن الخمر ، ويطلقها فى السماع ، لمجاهدته النفس بالكف ، ربما تمحو عن قلبه الظلمة التى ارتفعت إليه من معصية السماع ٠٠

وينقل العلامة رشيد رضا كلام الغزالى هذا ، وكلامه فى تكفير السيئات بفعل الحسنات المضادة لها ، وإن كل سيئة تمحى بحسنة من جنسها ، إلى آخر ما نقلناه من قبل٠ ثم يقول: لله دره : ما أدق فهمه لحكمة القرآن ، وتطبيقه على فطرة الإنسان ، ومن وقف على ما ثبت عند علماء الإنسان بعد الغزالى ٠٠ فإنه يعجب بما أوتى هذا الرجل من قوة الذهن ، ونفوذ أشعة الفهم (١) .

وتقرير هذه الحقيقة يفيدنا فائدتين كبيرتين ومهمتين فى المجال التربوى :

الأولى : غرس الأمل والرجاء فى سعة رحمة الله تعالى ، وجميل فضله ، وواسع كرمه ، فيكفى أن يجتنب المسلم كبائر الإثم ، ليكفر عنه سيئاته الأخرى ، وجراحاته التى لا يكاد يسلم منها الناس ٠

عن أنس رضي الله عنه خادم النبى ﷺ قال : لم أر مثل الذى بلغنا عن ربنا تعالى ، لم نخرج له عن كل أهل ومال ٠٠ ثم سكت ، ثم قال : والله لقد كلفنا ربنا أهون من ذلك ، لقد تجاوز لنا عما دون الكبائر فما لنا ولها ؟ ثم تلا : ﴿ إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ ٠٠ ﴾ الآية (٢) .

والثانية : غرس روح السماحة والعفو فى التعامل بين الناس ، وترك التغليظ عليهم ، ومحاسبتهم على كل صغيرة وكبيرة ، فهذا منافٍ لمعاملة الله تعالى مع عباده ، فلا ينبغى لنا أن نشدد على الناس فى صغائر الذنوب إذا اجتنبوا كبارها ، وقد

---

(١) تفسير المنار جـ ٤ / ٥٥ ، ٥٦ ، طبعة ثانية ٠

(٢) الأثر رواه الطبرى فى تفسيره بإسناد صحيح برقم (٩٢٣١) ، النساء : ٣١ ٠

عفا الله تعالى عنها ، وقد عرفنا من نصوص القرآن والسنة أن فى دين الله متسعا لكل من لم يصبح ارتكاب الكبائر خطا ثابتا فى حياته .

ومن روائع الدروس التربوية الإسلامية ما جاء عن أمير المؤمنين عمر ﷺ فى تعليم الناس كيف يتغاضون عن صغائر الذنوب ، وتوافه العيوب ، إذا وقعت ممن يؤدى الفرائض ، ويجتنب الكبائر ، فليس هناك إنسان معصوم ، وكل بنى آدم خطاء ، ولم يخلق الله البشر ملائكة مطهرين .

روى ابن جرير بسنده عن ابن عون عن الحسن البصرى : أن ناساً سألوا عبد الله بن عمرو بمصر ، فقالوا : نرى أشياء من كتاب الله عز وجل، أمر أن يعمل بها ، لا يعمل بها ! فأردنا أن نلقى أمير المؤمنين فى ذلك .. فقدم وقدموا معه - فلقى عمر ﷺ ، فقال : متى قدمت ؟

قال : منذ كذا وكذا ..

قال : أبإذن قدمت ؟

(قال الحسن : فلا أدرى كيف رد عليه)

فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ناساً لقونى بمصر ، فقالوا : إنا نرى أشياء فى كتاب الله أمر أن يعمل بها ، فلا يعمل بها ، فأحبوا أن يلقوك فى ذلك .

قال : فاجمعهم لى .

قال : فجمعتهم له (قال ابن عون : فى بهو) ، فأخذ أدناهم رجلاً .

فقال : أنشدك بالله ، وبحق الإسلام عليك : أقرأت القرآن كله ؟

قال : نعم .

قال : فهل أحصيته فى نفسك ؟ (يعنى : هل استقصيت العمل به فى تصحيح نيتك وتطهير قلبك ، ومحاسبتك نفسك ؟) .

فقال : اللهم لا . (ولو قال : نعم ، لخصمه) أى: لأفحمه وألزمه الحجة .

قال : فهل أحصيته ببصرك ؟ فهل أحصيته فى لفظك (أى : كلامك) ؟ فهل أحصيته فى أثرك (أى : فى خطواتك ومشيك) ؟

ثم تتبعهم حتى أتى على آخرهم ، (يعنى : وهو يسألهم : هل استقصيتم العمل بكتاب الله كله فى أنفسكم وجوارحكم ، وأقوالكم وأعمالكم ، وحركاتكم وسكناتكم ؟ وهم بالطبع يجيبون : اللهم لا) فقال : ثكلت عَمْرًا أمه ! أتكلفونه أن يقيم الناس على كتاب الله ؟ (أى : بالصورة التى تفهمونها أنتم ، ولم تقيموها فى أنفسكم باعترافكم) .

قد علم ربنا أن ستكون لنا سيئات .. وتلا : ﴿ إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً ﴾ (١) .

ثم قال : هل علم أهل المدينة - أو قال : هل علم أحد - بما قدمتم ؟

قالوا : لا .

قال : لو علموا لوعظتُ بكم ! (أى : لجعلتكم عظة ونكالاً لغيركم)

(ذكره ابن كثير فى تفسيره عن ابن جرير ، وقال عقبه : إسناد صحيح ومتن حسن) . أ . هـ .

وهذا فى الواقع درس فى التربية ودرس فى السياسة أيضاً ، وفقه السياسة فى الإسلام لا ينفصل عن فقه التربية .

وبهذا الفقه العمرى الواعى لكتاب الله ، حسم أمير المؤمنين ﷺ هذه القضية فى بدايتها ، وسد بابا للتشدد والتنطع لو كان تساهل فيه ، لربما هبت منه رياح فتنة لا يعلم إلا الله مدى عواقبها » (٢) أ . هـ .

وهذا التشدد الذى بدت بذوره فى عهد عمر ، وأطفأ نار فتنته فى مهدها بفقهه

(١) النساء : ٣١ .

(٢) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف صـ ١٨٤ - ١٨٦ .

وحزمه ، قد ظهر بعد ذلك فى عهد عثمان بقوة أكبر ، وتفاقم واستفحل ، حتى أشعل الفتنة الكبرى ، التى لم يزل يعانى المسلمون إلى اليوم من آثارها .

٣ - الكبيرة قد تصغر بأسباب وملابسات :

وهنا حقيقة ثالثة ينبغى التفطن لها ، نبه عليها العلامة ابن القيم ، وهى أن « الكبيرة » قد يقترن بها من الحياء والخوف ، والاستعظام لها - ما يلحقها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة - من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف والاستهانة بها - ما يلحقها بالكبائر ، بل يجعلها فى أعلى رتبها .

وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره .

وأيضًا فإنه يعفى للمحب ، ولصاحب الإحسان العظيم ، ما لا يعفى لغيره ، ويسامح بما لا يسامح به غيره .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول : انظر إلى موسى- صلوات الله وسلامه عليه - رمى الألواح التى فيها كلام الله الذى كتبه بيده فكسرها ، وجر بلحية نبى مثله ، وهو هارون ، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد ﷺ ورفعه عليه ، وربه تعالى يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ، لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدو له ، وصدع بأمره ، وعالج أمتى القبط وبنى إسرائيل أشد المعالجة ، فكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر .

وانظر إلى يونس بن متى حيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى ، غاضب ربه مرة ، فأخذه وسجنه فى بطن الحوت ، ولم يحتمل له ما احتمل لموسى ، وفرق بين من إذا أتى بذنب واحد ولم يكن له من الإحسان والمحاسن ما يشفع له ، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع ، كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محاسنه بألف شفيع !

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله ، وتذكر به إذا وقع فى الشدائد ، قال تعالى عن ذى النون: ﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ

يُبْعَثُـونَ ﴾ (1) وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال : ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لاَ إلهَ إلاَّ الَّذى آمَنَتْ به بَنُو إسْرَائيلَ ﴾ (2) قال له جبريل : ﴿ الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (3) .

ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته ، ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالا يغفر لصاحب الإشراك ، لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له ، ويسامحه مالا يسامح به المشرك ، وكلما كان توحيد العبد أعظم ، كانت مغفرة الله له أتم ، فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر ذنوبه كلها ، كائنة ما كانت ، ولم يعذب بها .

ولسنا نقول : إنه لا يدخل النار أحد من أهل التوحيد ، بل كثير منهم يدخل بذنوبه ، على مقدار جرمه ، ثم يخرج منها ، ولا تنافى بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه .

ونزيد هاهنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه .

اعلم أن أشعة « لا إله إلا الله » تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه ، فلها نور ، وتفاوت أهلها فى ذلك النور - قوة ، وضعفاً - لا يحصيه إلا الله تعالى .

فمن الناس : من نور هذه الكلمة فى قلبه كالشمس .

ومنهم : من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى .

ومنهم : من نورها فى قلبه كالمشعل العظيم .

وآخر : كالسراج المضىء ، وآخر كالسراج الضعيف .

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم ، وبين أيديهم ، على هذا المقدار ، بحسب ما فى قلوبهم من نور هذه الكلمة ، علماً وعملاً ، ومعرفة وحالاً .

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد : أحرق من الشبهات والشهوات بحسب

---

(1) الصافات : ١٤٣ ، ١٤٤ . (2) يونس : ٩٠ . (3) يونس : ٩١ .

قوته وشدته ، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة ولا شهوة ، ولا ذنباً ، إلا أحرقه ، وهذا حال الصادق فى توحيده ، الذى لم يشرك بالله شيئاً ، فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها ، فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته ، فلا ينال منها السارق إلا على غرة وغفلة لابد منها للبشر ، فإذا استيقظ وعلم ما سرق منه استنقذه من سارقه ، أو حصل أضعافه ، بكسبه ، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس ، ليس كمن فتح لهم خزانته ، وولى الباب ظهره ·

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلا الله ، وأن الله رب كل شيء ومليكه ، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون ، بل التوحيد يتضمن - من محبة الله ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، وإخلاص العبادة له ، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع ، والعطاء ·

نعم من قالها بلسانه ، غافلاً عن معناها ، معرضاً عن تدبرها ، ولم يواطيء قلبه لسانه ، ولا عرف قدرها وحقيقتها ، راجياً مع ذلك ثوابها ، حطت من خطاياه بحسب ما فى قلبه ، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها ، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب ، فتكون صورة العملين واحدة ، وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض ، والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً ، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض ·

وتأمل ما قام بقلب قاتل المئة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية ، وحملته - وهو فى تلك الحال - على أن جعل ينوء بصدره ، وهو يعالج سكرات الموت ، فهذا أمر آخر ، وإيمان آخر ، ولا جرم أن ألحق بالقرية الصالحة ، وجعل من أهلها ·

وقريب من هذا ما قام بقلب البَغِيّ التى رأت ذلك الكلب ، وقد اشتد به العطش يأكل الثرى ، فقام بقلبها ذلك الوقت - مع عدم الآلة ، وعدم المعين ، وعدم من ترائيه بعملها - ما حملها على أن غررت بنفسها فى نزول البئر ، وملء الماء فى

خفها ، ولم تعبأ بتعرضها للتلف ، وحملها خفها بفيها وهو ملآن ، حتى أمكنها الرقى من البئر ، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه ، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب ، من غير أن ترجو منه جزاءً ولا شكوراً ، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء ، فغفر لها .

فهكذا الأعمال والعمال عند الله ، والغافل فى غفلة من هذا الإكسير الكيماوى ، الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً (١) .

٤ - الصغيرة قد تكبر بأسباب وملابسات :

كما أن الكبيرة قد تصغر بما يصحبها من مشاعر الحياء والخوف وعدم الرضا عن النفس ونحوها ، فإن الصغيرة قد تصحبها مشاعر ومظاهر وملابسات معينة تحيلها إلى كبيرة ، كما أن هذه الملابسات نفسها إذا صحبت الكبيرة تجعل إثمها أكبر وخطرها أعظم . وهذه هى الحقيقة الرابعة فى هذا المقام .

وهذا ما عرض له الإمام الغزالى فى فصل رائع من كتاب (التوبة) من (الإحياء) بين فيه الأمور والأسباب التى تعظم بها الذنوب الصغائر ، وتزداد الكبائر بها كبرا وعظما ، ويحسن أن ننقله هنا بتصرف قليل .

قال رحمه الله :

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب :

الإصرار والمواظبة :

منها : الإصرار والمواظبة ، ولذلك قيل : لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار ، فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثلها لو تصور ذلك ، كان العفو عنها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها . ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه ، وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ، ولذلك قال رسول الله ﷺ « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل (٢) » والأشياء تستبان بأضدادها ، وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل ، فالكثير المنصرم

(١) انظر : المدارج : (١ / ٣٢٨) وما بعدها . (٢) متفق عليه من حديث عائشة .

قليل النفع فى تنوير القلب وتطهيره ، فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره فى إظلام القلب ، إلا أن الكبيرة قلما يتصور الهجوم عليها بغتة من غير سوابق ولواحق من جملة الصغائر ، فقلما يزنى الزانى بغتة من غير مراودة ومقدمات ، وقلما يقتل القاتل بغتة من غير مشاحنة سابقة ومعاداة ، فكل كبيرة تكتنفها صغائر سابقة ولاحقة، ولو تصورت كبيرة وحدها بغتة ولم يتفق إليها عود ، ربما كان العفو فيها أرجى من صغيرة واظب الإنسان عليها عمره .

استصغار المعصية :

ومنها : أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه العبد من نفسه صغر عند الله تعالى ، لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له ، وذلك النفور يمنع من شدة تأثره به ، واستصغاره يصدر عن الإلف به ، وذلك يوجب شدة الأثر فى القلب ، والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات ، والمحذور تسويده بالسيئات ، ولذلك لا يؤاخذ بما يجرى عليه فى الغفلة فإن القلب لا يتأثر بما يجرى فى الغفلة ، وقد جاء فى الخبر « المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره [١] » .

وقال بعضهم : الذنب الذى لا يغفر ، قول العبد : ليت كل ذنب عملته مثل هذا ! وإنما يعظم الذنب فى قلب المؤمن لعلمه بجلال الله ، فإذا نظر إلى عظم من عصى رأى الصغيرة كبيرة ، وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه : لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها ، وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين : لا صغيرة ، بل كل مخالفة فهى كبيرة ، وكذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم للتابعين : إنكم لتعملون أعمالا هى فى أعينكم أدق من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات !

---

(١) أخرجه البخارى،من رواية الحارث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين: أحدهما عن النبى ﷺ ، والآخر عن نفسه ، فذكر هذا وحديث « لله أفرح بتوبة العبد » ولم يبين المرفوع من الموقوف . ولكن فرح الله تعالى بتوبة العبد جاء مرفوعا فى الصحاح .

إذ كانت معرفة الصحابة بجلال الله أتم ، فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر ، وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ، ويتجاوز عن العامى فى أمور لا يتجاوز فى أمثالها عن العارف ، لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف .

الفرح بالمعصية :

ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها ، واعتداد التمكن من ذلك نعمة ، والغفلة عن كونه سبب الشقاوة ، فكلما غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد ، كبرت الصغيرة وعظم أثرها فى تسويد قلبه ، حتى إن من المذنبين من يتمدح بذنبه ويتبجح به ، لشدة فرحه بمقارفته إياه ، كما يقول : أما رأيتنى كيف مزقت عرضه ؟ ويقول المناظر فى مناظرته : أما رأيتنى كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبّست عليه ؟ ويقول المعامل فى التجارة : أما رأيت كيف روجت عليه الزائف ، وكيف خدعته ، وكيف غبنته فى ماله وكيف استحمقته ؟ فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات ، وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به فى الحمل عليها ، فينبغى أن يكون فى مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه ، وبسبب بعده من الله تعالى ، فالمريض الذى يفرح بأن ينكسر إناؤه الذى فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه .

التهاون بستر الله عليه :

ومنها : أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه وإمهاله إياه ولا يدرى أنه إنما يمهل مقتاً ليزداد بالإمهال إثماً ، فيظن أن تمكنه من المعاصى عناية من الله تعالى به ، فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكامن الغرور بالله ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِىَ أَنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ ، حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ، فَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (١) .

---

(١) المجادلة : ٨ .

إظهار المعصية والتبجح بها :

ومنها : أن يأتى الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه ، أو يأتيه فى مشهد غيره ، فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذى سدله عليه ، وتحريك لرغبة الشر فيمن أسمعه ذنبه أو أشهده فعله، فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به، فإن إنضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه ، والحمل عليه ، وتهيئة الأسباب له : صارت جناية رابعة ، وتفاحش الأمر ، وفى الخبر « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، يبيت أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه ، فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه »[1] وهذا لأن من صفات الله ونعمه : أنه يظهر الجميل ، ويستر القبيح ، ولا يهتك الستر ، فالإظهار كفران لهذه النعمة .

وقال بعضهم : لا تذنب فإن كان ولابد فلا ترغب غيرك فيه ، فتذنب ذنبين ، ولذلك قال تعالى : ﴿ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ ﴾[2] .

وقال بعض السلف : ما انتهك المرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على معصية ثم يهونها عليه .

معصية العالم والقدوة :

ومنها : أن يكون المذنب عالماً يقتدى به ، فإذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه ، كلبس العالم الإبريسم (الحرير) وركوبه مراكب الذهب ، وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ، ودخوله على السلاطين ، وتردده عليهم ، ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم ، وإطلاق اللسان فى الأعراض ، وتعديه باللسان فى المناظرة ، وقصده الاستخفاف ، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه ، كعلم الجدل والمناظرة ، فهذه ذنوب يُتبع العالم عليها فيموت العالم ، ويبقى شره مستطيراً فى العالم آمادا متطاولة ، فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه ، وفى الخبر : « من سن

---

(١) حديث: « كل الناس معافى إلا المجاهرين ... الحديث » متفق عليه من حديث أبى هريرة .

(٢) التوبة :٦٧ .

سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها ، لا ينقص من أوزارهم شيئاً »[1] قال تعالى : ﴿ ونكتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ﴾[2] والآثار ما يلحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعامل .

وقال ابن عباس : ويل للعالم من الأتباع : يزل زلة فيرجع عنها ، ويحملها الناس ، فيذهبون بها فى الآفاق .

وقال بعضهم : مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة ، تغرق ويغرق أهلها ! وفى الإسرائيليات : أن عالماً كان يضل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فعمل فى الإصلاح دهراً ، فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له إن ذنبك لو كان فيما بينى وبينك لغفرته لك ، ولكن كيف بمن أضللت من عبادى فأدخلتهم النار ؟! .

فبهذا يتضح أن أمر العلماء مخطر فعليهم وظيفتان : إحداهما ترك الذنب ، والأخرى إخفاؤه ، وكما تتضاعف أوزارهم على الذنوب ، فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتُّبعوا ، فإذا ترك التجمل والميل إلى الدنيا ، وقنع منها باليسير ، ومن الطعام بالقوت ، ومن الكسوة بالخلق ، فيتبع عليه ، ويقتدى به العلماء والعوام ، فيكون له مثل ثوابهم ، وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ، ولا يقدرون على التجمل إلا بخدمة السلاطين ، وجمع الحطام من الحرام ، ويكون هو السبب فى جميع ذلك ، فحركات العلماء فى طورى الزيادة والنقصان ، تتضاعف آثارها : إما بالربح وإما بالخسران[3] .

أسباب وملابسات أخرى لتضخيم الذنوب :

وما ذكره الإمام الغزالى كله مسلم ولا ريب ، ولكن ينبغى أن نضيف إليه أن ثمت أسبابا وملابسات أخرى تؤدى إلى تضخيم الذنوب والمعاصى وخصوصا الكبيرة ، فإنها بهذه الأسباب والملابسات التى تقترن بها تتضخم وتتفاقم ، وتتعاظم عقوبتها عند الله عز وجل .

---

(١) أخرجه مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم فى آداب الكسب .

(٢) يس : ١٢ .

(٣) انظر : إحياء علوم الدين : (٤ / ٣٢ ، ٣٣) بتصرف قليل .

فإذا أخذنا كبيرة كالزنى الذى قال الله فيه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَى، إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ﴾[1] .

وجدنا أن هذه الكبيرة الفاحشة قد تزداد فحشا بإضافات معينة تلتبس بها .

منها : ما يتصل بالزانى ، فالزانى المحصن غير الزانى العزب ، ولهذا كان حد العزب مائة جلدة كما فى كتاب الله ، وحد المحصن الرجم ، كما ثبت فى السنة ، والزانى الشيخ المسن غير الزانى إذا كان شابا ، فالشباب شعلة من الجنون ، ولهذا جاء فى الحديث الصحيح : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل (فقير) مستكبر »[2] ، وهؤلاء الأصناف الثلاثة يرتكبون معاصيهم دون حاجة شديدة إليها .

ومنها : ما يتصل بالمزنى بها ، كأن تكون امرأة متزوجة ، فهو يفسدها على زوجها ، ويهتك حرمته ، ويؤذيه أبلغ الأذى ، وقد تحْمل منه ، فيفسد عليه نسبه ، وينسب إليه ولد ليس من صلبه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « ليس منا من خبَّب(أى أفسد)امرأة على زوجها »[3] ولا سيما إذا كانت المرأة مستقيمة الحال ، وهو الذى أغراها بالانحراف،وربما ظل يطاردها حتى ضعفت واستجابت .

ويزداد إثم الزنى بالمرأة المتزوجة إذا كانت امرأة جاره،التى يفترض فيه أن يكون حارسا لها ، لا لصا يسرق عفتها ، ويخون جاره فيها ، وقد قال عنترة وهو جاهلى :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى   حتى يوارى جارتى مأواها !

ولكن هذا يغير عليها ويفتك بها ،وقد نفى الرسول الكريم الإيمان عمن لايأمن جاره بوائقه .

روى الشيخان من حديث ابن مسعود أن النبىﷺ سئل : أى الذنب أعظم ؟ فقال: « أن تجعل لله ندا ، وهو خلقك » . قال: ثم أى ؟ قال : « أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك » ، قال : ثم أى ؟ قال : « أن تزانى حليلة جارك »[4] .

---

(١) الإسراء : ٣٢ .   (٢) رواه مسلم عن أبى هريرة .

(٣) رواه عن أبى هريرة أبو داود (١٢٧٥) والنسائى (فى الكبرى) وابن حبان فى صحيحه والحاكم (٢ / ١٩٦) وصححه على شرط البخارى ووافقه الذهبي ورواه عن ابن عباس أبو يعلى ورواته ثقات كما قال المنذرى (المنتقى : ١١٦٧) والهيثمى (٥ : ٢٦٥) ..

(٤) متفق عليه عن ابن مسعود .

فذكر من هذه الذنوب أعظمها ، وهى فى نفسها عظيمة ، فالشرك كله ظلم عظيم ، وأعظمه أن تتخذ لله ندا ، وهو خالقك ، والقتل فى حد ذاته من أكبر الكبائر ، ولكن أعظمه أن تقتل ولدك ، الذى يفترض أن تجوع ليشبع ، وتسهر لينام ، وتفديه بنفسك ، وتقتله بدافع خسيس وهو خوف أن يزاحمك فى طعامك ! والزنى كبيرة فى نفسه ، ولكن أن تزنى بحليله جارك الذى يفترض أن تكون أمينا على حرماته ، تحفظه إذا غاب ، وتعينه إذا حضر ، فهذه أكبر وأعظم .

وعن المقداد بن الأسود قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « ما تقولون فى الزنى ؟ » قالوا : حرام ، حرمه الله ورسوله ، فهو حرام إلى يوم القيامة ، فقال رسول الله ﷺ : « لأن يزنى الرجل بعشر نسوة : أيسر عليه من أن يزنى بامرأة جاره » قال : ما تقولون فى السرقة ؟ قالوا : السرقة حرام ، حرمها الله ورسوله ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، قال : لأن يسرق الرجل من عشرة أبيات : أيسر عليه من أن يسرق من جاره » [1] .

فإذا كان هذا الجار قريبا للزانى ، كأن يكون ابن عم أو ابن خال أو ابن خالة ، أو كان أخا له أو عما أو خالا ، كان الإثم أعظم ، لأنه ضم إلى إفساد الزوجة قطع الرحم ، ولا يدخل الجنة قاطع رحم ، ولأنه جار له ثلاثة حقوق : حق الإسلام ، وحق الجوار ، وحق القرابة ، لهذا كان إيذاؤه أعظم خطرا .

ومثل ذلك المرأة (المغِيبة) التى غاب زوجها فى طاعة الله، فى حج أو عمرة، أو طلب علم ، أو دعوة إلى الله ، أو فى الجهاد فى سبيل الله ، وهو أعظمها ، فالزانى بهذه المرأة أعظم إثما ، وأكبر جرما ، من الزانى بزوجة رجل عادىّ ، لأن فى هذا الزنى: خيانة لهذا الزوج الذى غاب فى طاعة الله،أو فى مصلحة الدين والأمة ، فهذا يكافئة بانتهاك حرمته ، والاعتداء على عرضه .

وفى الحديث : « مثل الذى يجلس على فراش المغيبة ، مثل الذى ينهشه أسود من أساود يوم القيامة » [2] .

---

(١) رواه أحمد فى المسند (٦ : ٨) ورواته ثقات ، والطبرانى فى الكبير والأوسط كما قال المنذرى فى الترغيب (المنتقى : ١٥٢١) وكذا الهيثمى : (٨ : ١٦٨) .

(٢) رواه الطبرانى عن عبد الله بن عمرو رفعه ورواته ثقات كما قال المنذرى انظر : المنتقى : (١٤٢٦) والهيثمى (٦ / ٢٥٨) .

والمغيبة : من غاب عنها زوجها . والأسود : الحية .

وفى الصحيح عن بريدة أن النبى ﷺ قال : « حرمة نساء المجاهدين على القاعدين، كحرمة أمهاتهم! ما من رجل من القاعدين يخلف رجلا من المجاهدين فى أهله ، فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة ، فيأخذ من حسناته ما شاء حتى يرضى ثم التفت إلينا رسول الله ﷺ فقال : « فما ظنكم ؟! » أى فما ظنكم بمن حُكِّم فى حسنات خصمه فى يوم يكون الناس أحوج ما يكونون فيه إلى الحسنات ، ولا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ؟ وفى رواية النسائى لهذا الحديث زاد : أترون يدع له من حسناته شيئا ؟! [1] .

ومثل ذلك أو شر منه : من يزنى بإحدى محارمه كأخته أو عمته أو خالته ، فإثمه هنا أكبر ، لأن المفروض أن يحمى عرض هؤلاء ، ويقاتل عنهن إذا اعتدى عليهن ، لا أن يفترسهن ، ويدخل فى ذلك : المحارم بالمصاهرة مثل : حماته وامرأة أبيه ، وامرأة ابنه .

وقد تتعاظم الكبيرة خاصة والسيئة عامة : بحكم المكان الذى وقعت فيه ، كأن تقع فى البلد الحرام ، فإن السيئات تضاعف فيه عقوبتها ، كما أن الحسنات تضاعف مثوبتها . وهذا هو العدل ، فإن الله كما ضاعف لنساء النبى أجرهن إذا قنتن لله وعملن صالحا ، ضاعف عذابهن إذا أتين بفاحشة مبينة .

وكما تضاعف الكبيرة أو السيئة بسبب المكان ، تتضاعف بسبب الزمان ، فمن يزنى فى الشهر الحرام يكون إثمه أشد ، لقوله تعالى عن الأشهر الحرم : ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾[2] وظلم النفس حرام فى كل الشهور ، ولكنه فى الأشهر الحرم أعظم إثما .

ومثل ذلك فى شهر رمضان ، الذى فرض الله صيام أيامه ، وسن الرسول قيام

---

(١) رواه مسلم فى الإمارة (١٨٩٧) وأبو داود (٢٤٩٦) والنسائى فى الجهاد : باب من خان غازيا فى أهله (٦ / ٥٠ ، ٥١) .

(٢) التوبة : ٣٦ .

لياليه، ونهى فيه عن اللغو والرفث ، فالمسلم يدع فيه شهوته وزوجته من أجل الله ، وهذا يزنى بامرأة أجنبية من أجل شيطانه وهواه .

ولهذا حين جيء إلىَ عمر رضى الله عنه بسكران أقام عليه حد السكر، وزاده عشرين جلدة ، لانتهاكه حرمة شهر رمضان ، وقال له : أسُكْر وصبياننا صيام ؟! .

ومثل ذلك : أيام عشر ذى الحجة التى تضاعف فيها مثوبة الحسنات ، وخصوصا يوم عرفة ! وكذلك أوقات الصلوات وسماع الأذان ، وأوقات إجابة الدعاء ونحوها .

وقد يتضاعف إثم السيئة أو الكبيرة بسبب الفعل نفسه ، كما ذكر الغزالى ، مثل المواظبة والتكرار له ، كما فى قوله : « أن تزانى حليلة جارك » فعبارة « تزانى » لا يقصد بمرة أو مرتين ، بل تقتضى المعاودة والتكرار .

ومثل ذلك : المعالنة والمجاهرة ، كما فى الحديث الصحيح « كل أمتى معافى إلا المجاهرين » .

ولهذا جعل الشارع عقوبة الزنى على المجاهرة لا على مجرد الفعل ، بدليل أنه اشترط لإثبات جريمة الزنى ، وإقامة الحد على الزانى : أربعة شهود عدول يرون العملية الجنسية بوضوح ، كالميل فى المكحلة أو القلم فى الدواة ، كما يقول الفقهاء ، وهذا لا يمكن أن يحدث فى العادة إلا إذا كان الزانيان فاجرين لايباليان أن يراهما الناس متلبسيّن .

وفى جديث ابن عمر عن ابن ماجه والبزار والبيهقى « يا معشر المهاجرين : خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلاَّ فشا فيهم الطاعون ، والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ... » الحديث .

فالاستعلان بالفاحشة – وهى تشمل الزنى وعمل قوم لوط – ينزل بها عقوبة القدر بظهور الطاعون والأمراض التى لم يعرفها السابقون ، وهو ما صدقه الواقع أبلغ التصديق ، ولا سيما بعد فشو مرض (الإيدز) الذى أعجز الأطباء علاجه إلى اليوم ، ويسمونه (الطاعون الأبيض) !

وقد جاء فى حديث ابن مسعود : « ما ظهر فى قوم الزنى والربا إلا أحلوا بأنفسهم عذاب الله » (١) فعذاب الله إنما حل بهم بعد الظهور والاستعلان لفاحشة الزنى ، وموبقة الربا ، وهو ذنب آخر فوق ذنب الفعل لكل منهما .

وشر من الاستعلان : ارتكاب فاحشة الزنى اغتصابا وعدوانا وعنوة ، تحت تهديد القوة والسلاح كما يفعله بعض الحكام الطغاة ، أو الأقوياء الظلمة ، أو الأغنياء الفجرة ، فى بنات الأسر المستضعفة ، التى لا تملك حولاً ولا قوة ، وكما يفعله بعض الأشرار الذين يخطفون النساء من الطريق، ويركبونهن سياراتهم بالحديد والنار ، ويرتكبون معهن الفاحشة ، ثم يلقونهن بعد ذلك عظما ، بعد أن أكلوهن لحما ، ولهذا ذهب كثير من علماء العصـــر إلى أن عقوبة هؤلاء يجب أن تكون القتل ، ردعا وزجرا ، وهو ما نرجحه

وما نقوله فى الزنى نقوله فى غيره ، مثل القتل فالقتل كله من الموبقات ، ولكن قتل المؤمن الصالح أشد وأعظم من قتل المسلم العاصى أو المخلط ، وقتل المسلم الداعية إلى الله أشد من قتل المسلم العادى ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (٢) .

وقتل الأطفال البرآء أشد من قتل الكبار ، كما ذكر القرآن على لسان العبد الصالح لموسى : ﴿ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٣) .

وقتل الأولاد من الأطفال أشد نكراً لأنه قتل وقطع رحم ، فإذا قتلهم من أجل الإملاق أو خشية الإملاق كانت الجريمة أعظم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيراً ﴾ (٤) .

فإذا كان القتل بطريق (الوأد) كما كانوا يفعلون بالبنات فى الجاهلية كان الجرم أبشع وأشنع ﴿ وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ (٥) .

---

(١) رواه أحمد فى المسند وقال الشيخ شاكر : إسناده صحيح ، وأبو يعلى وإسناده جيد كما قال الهيثمى (٤ : ١٨) .

(٢) آل عمران : ٢١ .

(٣) الكهف : ٧٤ .

(٤) الإسراء : ٣١ .

(٥) التكوير : ٨ ، ٩ .

وانظر إلى ذنب مثل الكذب ، فلا شك أن الكذب كله حرام ، ولكن إثمه يتفاوت ويتعاظم بسبب وآخر ، فكذب الملوك والحكام مما يشتد بغض الله له ، وقد جاء فى الصحيح أن أحد الثلاثة الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : ملك كذاب ·

ومن ذلك: الكذب فى (الشهادة) لما يترتب عليها من تضليل العدالة ، وتضييع الحقوق ، وزرع الشر فى المجتمع ، ولذا عدها الحديث المتفق عليه من أكبر الكبائر ·

ومن ذلك: الكذب فى اليمين · لما فيها من استهانة باسم الله تعالى والقسم به ، وما ينشأ عن ذلك من ضياع الأموال والدماء والأعراض ، ولهذا سميت اليمين الفاجرة ، واليمين الغموس ، لأنها تغمس صاحبها في الإثم في الدنيا ، وفى النار فى الآخرة ، ولهذا عدت في الكبائر ·

ومن ذلك : الكذب فى الرؤيا : أن يرى الرجل عينيه ما لم تريا ،كما صح فى الحديث لما فيها من كذب على الناس ، فى أمر قد يؤثر فى أفكار الناس وميولهم ·

وأكبر من ذلك : الكذب على رسول الله باختراع أحاديث لم يقلها ، وقد تواتر عنه ﷺ « إن كذبا على ليس ككذب على أحد ، من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » ·

وأكبر وأكبر : من كذب على الله تعالى بادعاء النبوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللهُ ﴾ (١) .

وهكذا نجد الذنوب كلها قابلة لأن تتعاظم وتتعاظم ، ويتضاعف إثمها وعقوبتها عند الله ، بأسباب وملابسات شتى ، تنضم إليها ، فيكبر ضررها ، ويتفاقم أثرها ·

* * *

---

(١) الأنعام : ٩٣ ·

مكفرات الذنوب

من فضل الله تعالى علينا ، ورحمته بنا : أنه تعالى علم ضعفنا ، كما قال سبحانه : ﴿ وَخُلِقَ الإنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (1) .

وقد علم الله سبحانه أن هذا الضعف الذى جبل عليه الإنسان ، سيدفع بالإنسان إلى المعصية ، كما وقع لأبيه الأول آدم عليه السلام ، ومن هنا أتاح لنا عز وجل فرصة بعد فرصة للتطهر من أوساخ هذه المعاصى والذنوب، فجعل لنا مغاسل أو (حمامات) عدة متنوعة ، نغتسل فيها من الخطايا التى تغلب إرادتنا ، وينهزم فيها باعث الدين أمام باعث الهوى ، وينتصر فيها الشيطان على الإنسان ·

وقد عبر ابن القيم رحمه الله عن هذه المكفرات بـ (الأنهار) يغتسل فيها المذنب من خطاياه نهرا بعد نهر ، حتى يتطهر تمامًا من كل درن ·

وفى عصرنا أصبحت الأنهار تلوث من يغتسل فيها أكثر مما تطهره ، نظرا لكثرة ما يلقى فيها من الفضلات والنفايات والقاذورات ، حتى إن الجهات الصحية والبيئية لتحذر مِن مياه هذه الأنهار ، ولهذا آثرت أن أستخدم لفظا أكثر تعبيرا عن المقصود فى زمننا ، وهو لفظ (الحمامات) التى يدخلها الناس ليتنظفوا ويتطهروا ·

وحاجة الإنسان إلى التطهر المعنوى من الذنوب : أشد من حاجته إلى التطهر الحسى من الأوساخ ·

وبعض هذه الذنوب والخطايا : لا يكاد يسلم منها أحد ، ومن سلم منها اليوم وقع فى شراكها فى الغد ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، فكل بنى آدم خطاء ·

---

(1) النساء : 28 ·

هذه الحمامات الروحية المتاحة لكل إنسان : بعضها يومى ، كالصلوات الخمس، وبعضها أسبوعى كصلاة الجمعة ، وبعضها شهرى ، كصيام الأيام البيض من كل شهر ، وبعضها سنوى كصيام رمضان ، وبعضها عُمرىّ ، كفريضة الحج ، الذى يجب فى العمر مرة واحدة ، وبعضها مرهون بظروفه مثل الهجرة والجهاد ، وبعضها مفتوح ومتاح أبدا ، مثل التوبة والاستغفار ، وذكر الله ونوافل العبادات ·

وسنتحدث عن هذه (المكفِّرات) أو (الحمامات) فى الصحائف التالية ، حتى يحاول كل من دنسته الذنوب أن يغسل نفسه منها، ليكون من التوابين ومن المتطهرين الذين يحبهم الله تبارك وتعالى ·

١ - حمام التوبة :

أول هذه الحمامات هو : التوبة ، فإن من أعظم ثمراتها : تكفير السيئات ومغفرة الذنوب ، فهى تجب ما قبلها من الذنوب وتهدمه ، كما أن الإسلام يجب ما قبله من الكفر والجاهلية ويهدمه ·

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ، عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ (1) فجعل تكفير السيئات أولى ثمرات التوبة ·

وقد مر بنا حديث « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » (2) ·

ونؤكد هنا ما ذكرناه من قبل ، وهو الاستمرار فى التوبة ، وتكرارها كلما تكرر الذنب ، ولا ييأس أبدا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ·

روى الحاكم عن عقبة بن عامر أن رجلا أتى النبى ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، أحدنا يذنب ! فقال : « يكتب عليه » قال : ثم يستغفر ! قال : « يغفر له

---

(1) التحريم : ٨ ·

(2) رواه ابن ماجه (٤٢٥٠) والطبرانى (١٠٢٨١) وأبو نعيم (٤ : ٢١٠) عن ابن مسعود ، وحسنه الحافظ ابن حجر بشواهده كما فى (المقاصد الحسنة) للسخاوى ص١٥٢ ·

ويتاب عليه » ، قال : فيعود فيذنب ! قال :« يكتب عليه » قال : ثم يستغفر منه ويتوب ! قال : « يغفر له ويتاب عليه ، ولا يمل الله حتى تملوا » (١) .

روى ابن أبى الدنيا عن على ﷺ قال : خياركم كل مفتّن ثواب (والمفتّن : الذى يفتن ويبتلى بالذنب حينا بعد حين ، والتواب : الذى يتوب من الذنب مرة بعد مرة) قيل لعلىّ : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب ، قيل : فإن عاد ؟ قال : يستغفر الله ويتوب . قيل : حتى متى ؟ قال : حتى يكون الشيطان هو المحسور ! (أى المغلوب اليائس) .

وقال الإمام الغزالى : فإن تبت ثم نقضت التوبة ، وعدت إلى الذنب ثانياً ، فعد إلى التوبة مبادراً ، وقل لنفسك: لعلى أموت قبل أن أعود إلى الذنب هذه المرة ، وكذلك ثالثا ورابعاً ، وكما اتخذت الذنب والعود إليه حرفة ، فاتخذ التوبة والعود إليها حرفة ، فلا تكن فى التوبة أعجز منك فى الذنب ، ولا تيأس ، ولا يمنعك الشيطان من التوبة بسبب ذلك ، فإنه دلالة الخير (٢) .

٢ – حمام الاستغفار :

والحمام الثانى هو : الاستغفار ، وهو مكمل للتوبة، بل هو التوبة نفسها إذا صدق ، ولذا يقترنان ، ويفرد أحدهما فيعبر به عن الآخر معه ، كما ذكرنا قبل..

وقد جاء عن أنس قال : بلغنى أن إبليس حين نزلت هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾(٣) بكى (اللعين) (٤) .

وقال ابن مسعود : هذه الآية خير لأهل الذنوب من الدنيا وما فيها (٥) .

---

(١) صححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبى (١ : ٥٩) مع أن فى سنده عبد الله بن صالح كاتب الليث وفى حفظه شىء .

(٢) منهاج العابدين للغزالى ص ٨٠ طبعة مؤسسة الرسالة ،بيروت .

(٣) آل عمران : ١٣٥ .

(٤) رواه عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير كما فى(الدر المنثور)للسيوطى(٢ : ٣٢٦) .

(٥) نفسه – ونسبه لابن المنذر .

وذكر العلامة ابن رجب فى (جامع العلوم والحكم) قال :

قال أبو هريرة : إنى لأستغفر الله وأتوب إليه كل يوم ألف مرة ، وذلك على قدر ديتى [1] . عبر بالدية عما يطلب منه مقابل الذنوب .

وقالت عائشة : طوبى لمن وجد فى صحيفته استغفاراً كثيراً [2] .

وقال أبو المنهال : ما جاور عبد فى قبره من جار أحب إليه من استغفار كثير .

وبالجملة فدواء الذنوب : الاستغفار ، وعن أبى ذر : « إن لكل داء دواءً ، وإن دواء الذنوب : الاستغفار » [3] .

وقال قتادة : إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم ، فأما داؤكم : فالذنوب ، وأما دواؤكم : فالاستغفار .

وقال بعضهم : إنما معوّل المذنبين البكاء والاستغفار ، فمن أهمته ذنوبه ، أكثر لها من الاستغفار .

قال رياح القيسى : لى نيف وأربعون ذنباً ، قد استغفرت الله لكل ذنب مئة ألف مرة [4] .

وحاسب بعضهم نفسه من وقت بلوغه ، فإذا زلاته لا تجاوز ستاً وثلاثين زلة ، فاستغفر الله لكل زلة مئة ألف مرة ، وصلى لكل زلة ألف ركعة، قال : ومع ذلك ، فإنى غير آمن سطوة ربى أن يأخذنى بها ، وأنا على خطر من قبول التوبة .

وقيل للحسن : ألا يستحيى أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ، ثم يعود ، ثم يستغفر ، ثم يعود ، فقال : ود الشيطان لو ظفر منكم بهذه ، فلا تملوا من

---

(١) « الحلية » ١ / ٣٨٣ .

(٢) « الحلية » ١٠ / ٣٥٩ ورواه ابن ماجه (٣٨١٨) ، والنسائى فى « عمل اليوم والليلة » (٤٥٥) من حديث عبد الله بن بسر مرفوعاً ، وإسناده صحيح كما قال البوصيرى فى « الزوائد » .

(٣) رواه الحاكم ٤ / ٢٤٢ عن أبى ذر موقوفاً ، وصححه ووافقه الذهبى .

(٤) « الحلية » ٦ / ١٩٤ .

الاستغفار، وروى عنه أنه قال : ما أرى هذا إلا من أخلاق المؤمنين ، يعنى : أن المؤمن كلما أذنب تاب .

وقال عمر بن عبد العزيز فى خطبته : من أحسن منكم ، فليحمد الله ، ومن أساء ، فليستغفر الله ، فإنه لابد لأقوام من أن يعملوا أعمالاً وظفها الله فى رقابهم ، وكتبها عليهم ، وفى رواية أخرى عنه أنه قال : أيها الناس من ألم بذنب، فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد ، فليستغفر الله وليتب ، فإن عاد ، فليستغفر الله وليتب ، فإنما هى خطايا مطوقة فى أعناق الرجال ، وإن الهلاك كل الهلاك فى الإصرار عليها .

ومعنى هذا : أن العبد لابد أن يفعل ما قدر عليه من الذنوب كما قال النبى ﷺ : « كتب على ابن آدم حظه من الزنى ، فهو مدرك ذلك لا محالة »[1] . ولكن الله جعل للعبد مخرجاً مما وقع فيه من الذنوب ، ومحاه بالتوبة والاستغفار ، فإن فعل ، فقد تخلص من شر الذنب ، وإن أصر على الذنب ، هلك .

ويروى عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه : يا بنى عود لسانك : اللهم اغفر لى ، فإن لله ساعات لا يرد فيها سائلاً .

وقال الحسن : أكثروا من الاستغفار فى بيوتكم ، وعلى موائدكم ، وفى طرقكم ، وفى أسواقكم ، وفى مجالسكم أينما كنتم ، فإنكم ما تدرون متى تنزل المغفرة .

وروى ابن أبى الدنيا فى كتاب « حسن الظن » - بسند ضعيف[2] - من حديث أبى هريرة مرفوعاً : « بينما رجل مستلق إذ نظر إلى السماء وإلى النجوم ، فقال : إنى لأعلم أن لك رباً خالقاً ، اللهم اغفر لى ، فغفر له » .

وعن مورق قال : كان رجل يعمل السيئات ، فخرج إلى البرية ، فجمع تراباً ،

---

(١) قطعة من حديث رواه البخارى (٦٢٤٣) و (٦٦١٢) ومسلم (٢٦٧٥) وأبو داود (٢١٥٢) من حديث أبى هريرة .

(٢) لضعف عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدى أحد رواته ، ورقم الحديث (١٠٧) .

فاضطجع عليه مستلقياً ، فقال : رب اغفر لى ذنوبى ، فقال : إن هذا ليعرف أن له ربأ يغفر ويعذب ، فغفر له ·

وروى أبو نعيم فى الحلية [1] عن مغيث بن سمى ، قال : بينما رجل خبيث ، فتذكر يوماً ، فقال : اللهم غفرانك ، اللهم غفرانك ، اللهم غفرانك ! ثم مات ، فغفر له ·

قال العلامة ابن رجب :

ومن زاد اهتمامه بذنوبه ، فربما تعلّق بأذيال من قلت ذنوبه ، فالتمس منه الاستغفار ، وكان عمر يطلب من الصبيان الاستغفار ، ويقول : إنكم لم تُذنبوا ! وكان أبو هريرة يقول لغلمان الكُتاب : قولوا : اللهم اغفر لأبى هريرة ، فيدعون فيؤمن على دعائهم ·

قال بكر المزنى : لو كان رجل يطوف على الأبواب كما يطوف المسكين يقول : استغفروا لى ، لكان له أن يفعل ·

ومن كثُرت ذنوبه وسيئاته حتى فاتت العد والإحصاء ، فليستغفر الله مما علم الله ، فإن الله قد علم كل شيء وأحصاه ، كما قال تعالى : ﴿ يَومَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَمِيعًا فيُنَبِّئُهم بَما عَمِلُوا ، أَحْصَاهُ اللهُ ونَسُوهُ ﴾[2] ، وفى حديث شداد بن أوس ، عن النبى ﷺ : « أسألك من خير ما تعلم ، وأعوذ بك من شر ما تعلم ، وأستغفرك لما تعلم ، إنك أنت علام الغيوب » [3] · وفى هذا يقول بعضهم :

أستغفر الله مما يَعلمُ الله ... إن الشَّقىَّ لَمَن لا يَرحَمُ الله

ما أحلمَ اللهَ عمن لا يُراقبُه ... كُلٌّ مُسيءٌ ولكن يَحلمُ الله

فاستَغفِرِ الله مما كان من زَلَلٍ ... طُوبى لمن كَفَّ عما يكرهُ الله [4]

---

(١) الحلية : ٦ / ٦٨ · (٢) المجادلة : ٦ ·

(٣) رواه أحمد ١ / ١٢٥ ، والترمذى (٣٤٠٧) ، وصححه ابن حبان (١٩٧٤) ، والحاكم ١ / ٥٠٨ ، ووافقه الذهبى ·

(٤) انظر : جامع العلوم والحكم : ١ / ٤١٥ ، ٤١٦ ·

٣ - حمام الحسنات والطاعات :

والحمام الثالث الذى يغتسل فيه المذنب من ذنوبه هو : حمام الحسنات والطاعات ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (١) .

وكما قال ﷺ فى وصيته لأبى ذر : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها » .

وقد بينا ذلك بإجمال فى حديثنا عن (مقومات التوبة) وذكرنا رأى الإمام الغزالى فى محو السيئات بما يضادها من الحسنات من جنسها ، وذكرنا أمثلة عدة لذلك ، وهنا نذكر تفصيلات أكثر للحسنات والطاعات التى يبدد نورها ظلمات المعاصى ، كما تشرق الشمس ، فتزيل دجى الليل .

التوحيد والخلوص من الشرك :

على رأس قائمة الحسنات : التوحيد، فهو حسنة الحسنات ، وأساس الطاعات ، ولا يكفى فيه (توحيد الخالقية) أو (الربوبية) فقد كان مشركو العرب يقرون به ، ولكن لابد من (توحيد الإلهية) بمعنى: أن لا يعبد إلا الله ، وهو التوحيد الذى أنزل الله به كتبه ، وبعث به رسله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (٢) .

فإقَامَة التوحيد ، والخلوص من الشرك : أعظم أسباب مغفرة الذنوب ، وأما الشرك فهو المانع الأول من المغفرة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ (٣) .

وقد روى مسلم عن أبى ذر عن النبى ﷺ قال : « يقول الله تعالى : من تقرب منى شبرا تقربت منه ذراعا .... ومن لقينى بقراب الأرض (أى بملئها أو ما يقاربه) خطيئة ، لا يشرك بى شيئا ، لقيته بمثلها مغفرة » (٤) .

وروى الترمذى عن أنس فى الحديث القدسى أيضاً : « يا ابن آدم ، لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئا ، لأتيتك بقرابها مغفرة » (٥) .

---

(١) هود : ١١٤ .   (٢) الأنبياء : ٢٥ .   (٣) النساء : ٨ .

(٤) رواه مسلم برقم (٢٦٧٨) .

(٥) رواه الترمذى : (٣٥٤٠) وحسنه .

المهم أن يتحقق الشرط وهو : ألا يشرك بالله شيئا ، لا حجراً ، ولا شجرا ، ولا شمسًا ولا قمرا ، ولا جنا ولا بشرا ، فيتحرر من الشرك كله ، أكبره وأصغره ، جليه وخفيه ، ومن عبادة كل ما سوى الله : من عبادة الأشياء ، وعبادة الأشخاص ، وعبادة الذات : ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعَبَادةِ رَبِّه أَحَدًا ﴾ (١).

وبهذا يحقق معنى (لا إله إلا الله) فى نفسه وفى حياته ، فيعبد الله وحده ، ويجتنب الطاغوت .

يقول الحافظ ابن رجب : فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه : أخرجت منه كل ما سوى الله محبة ، وتعظيما وإجلالا ، ومهابة وخشية ، ورجاء وتوكلا ، وحينئذ تحرق ذنوبه وخطاياه كلها ، ولو كانت مثل زبد البحر ، وربما قلبتها حسنات، فإن هذا التوحيد هو الأكسير الأعظم ، فلو وضع ذرة منها على جبال الذنوب والخطايا، لقلبها حسنات .

وفى المسند عن شداد بن أوس وعبادة بن الصامت أن النبى ﷺ قال لأصحابه : « ارفعوا أيديكم ، وقولوا : لا إله إلا الله » فرفعنا أيدينا ساعة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده ، ثم قال : « الحمد لله ، اللهم بعثتنى بهذه الكلمة ، وأمرتنى بها ، ووعدتنى الجنة عليها، وإنك لا تخلف الميعاد » ، ثم قال : « أبشروا، فإن الله قد غفر لكم » (٢) .

وليس المراد : أن يقولها المرء من طرف لسانه ، فالمنافقون يقولونها ، وإنما المطلوب أن يتواطأ القلب واللسان ، حتى تؤتى أكلها ، وتحقق أثرها .

إحسان الوضوء والصلاة :

ومن هذه الحسنات والطاعات : إحسان الوضوء وإتمام الصلاة : العبادة اليومية التى تجعل المسلم على موعد مع ربه كل يوم خمس مرات .

روى الإمام أحمدُ ، وأبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه من

---

(١) الكهف : ١١٠ .

(٢) رواه أحمد فى المسند (٤/ ١٢٤) ، والبزار والطبرانى ، وحسنه الحافظ المنذرى فى الترغيب والترهيب ، وقال الهيثمى : رجاله ثقات (جامع العلوم والحكم : ٤١٧٢) .

حديث أبى بكر الصديق ﷺ ، عن النبى ﷺ قال : « ما من رجل يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ثم يصلى ، ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » ثم قرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ (١) .

وفى « الصحيحين » (٢) عن عثمان أنه توضأ ، ثم قال : رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئى هذا ثم قال : « من توضأ نحو وضوئى هذا ، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ، غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وفى « مسند الإمام أحمد » (٣) عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من توضأ فأحسن الوضوء ، ثم قام فصلى ركعتين أو أربعاً يحسن فيهما الركوع والخشوع ، ثم استغفر الله غفر له » .

وفى « الصحيحين » (٤) عن أنس قال : كنت عند النبى ﷺ ، فجاءه رجل ، فقال : يا رسول الله إنى أصبت حداً ، فأقمه علىّ ، قال : ولم يسأله عنه ، فحضرت الصلاة فصلى مع النبى ﷺ ، فلما قضى النبى ﷺ الصلاة قام إليه الرجل فقال : يا رسول الله إنى أصبت حداً ، فأقم فىَّ كتاب الله ، قال : « أليس قد صليت معنا ؟ » قال : نعم ، قال : « فإن الله قد غفر لك ذنبك - أو قال : حدَّك » وخرجه مسلم (٥) بمعناه من حديث أبى أمامة .

وفى « الصحيحين »(٦) عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: « أرأيتم لو أن نهراً

---

(١) رواه أحمد ١ / ٢ ، ١٠ ، وابن أبى شيبة ٢ / ٣٨٧ ، وأبو داود (١٥٢٠) والترمذى (٣٠٠٦) والنسائى فى«عمل اليوم والليلة » (٤١٤) و (٤١٧) ، وابن ماجه (١٣٩٥) ، وابو بكر المروزى فى مسند أبى بكر (٩) و (١٠) وصححه ابن حبان(٦٢٣)، والآية من آل عمران : ١٣٥

(٢) البخارى (١٥٩) و (١٦٤) ومسلم (٢٢٧) .

(٣) ٦ / ٤٤٣ ، ٤٥٠ ، ورواه الطبرانى فى « كتاب الدعاء » (١٨٤٨) وهو حديث حسن .

(٤) البخارى (٦٨٢٣) ومسلم (٢٧٦٤) وقوله : « أصبت حداً » قال النووى : هذا الحد معناه معصية من المعاصى الموجبة للتعزير ، وهى هنا من الصغائر ، لأنها كفرتها الصلاة، ولو كانت كبيرة موجبة لحد أو غير موجبة له لم تسقط بالصلاة ، ويرى ابن القيم أن الذى أسقط هذه الكبيرة هو: التوبة ، وقوله : « فأقمه علىّ » يدل على أنه من العقوبات التى تقام على الجانى .

(٥) رقم (٢٧٦٥) . (٦) البخارى (٥٢٨) ومسلم (٦٦٧) .

بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل يبقى من درنه شيء؟ » قالوا: لا يبقى من درنه شيء ، قال:« فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا » .

وفى « صحيح مسلم » [1] عن عثمان ، عن النبى ﷺ قال : « من توضأ فأحسن الوضوء ، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره » .

وفيه [2] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط » .

ومن الصلوات التى لها أهمية خاصة : صلاة الجمعة . ففى صحيح مسلم [3] عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا أجتنبت الكبائر » .

وفى مسند أحمد عن سلمان عن النبى ﷺ : « لا يتطهر الرجل - يعنى يوم الجمعة - فيحسن طُهوره ، ثم يأتى الجمعة فينصت ، حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة ، ما اجتنبت المقتلة » [4] .

والمراد بالمقتلة : الكبائر التى توبق الإنسان ، وتعرضه لعذاب الله .

ومن هذه الصلوات المكفرة : قيام الليل ، وفى الحديث : « عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، وقربة إلى الله تعالى ، ومنهاة عن الإثم ، وتكفير للسيئات ، ومطردة للداء عن الجسد » [5] .

---

(1) برقم (٢٤٥) . (2) برقم (٢٥١) .

(3) برقم (٢٣٣) .

(4) رواه أحمد فى مسنده : ٥ : ٤٣٩ ورجاله ثقات .

(5) رواه أحمد والترمذى والحاكم والبيهقى عن بلال ، والترمذى والحاكم والبيهقى عن أبى إمامة والطبرانى عن سلمان ، وابن السنى عن جابر ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٤٠٧٩) .

الصيام والصدقة والحج :

وللعبادات الأخرى أثرها فى التطهير والتكفير : من الصيام والصدقة والحج والعمرة ·

وفى « الصحيحين » [1] عن أبى هريرة ، عن النبى ﷺ قال : « من صام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام رمضان إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه ، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ، غفر له ما تقدم من ذنبه » ·

وهكذا جعل الثواب الموعود هنا لمن فعل ذلك (إيمانا واحتسابا) أى تصديقا بوعده سبحانه ، وابتغاء للمثوبة عنده ·

وفيهما [2] عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « من حج هذا البيت ، فلم يرفث ، ولم يفسق ، خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » ·

فهذه التوبة ليست لكل حاج ، ولكن لمن حج فلم يرفث ولم يفسق ·

وفى « صحيح مسلم » [3] عن عمرو بن العاص ، عن النبى ﷺ قال : « إن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وإن الحج يهدم ما كان قبله » ·

وفى الصحيحين : « العمرة إلى العمرة : كفارة لما بينهما » والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » [4] وفى النسائى : « تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد » [5] .

---

(١) البخارى (١٩٠١) و (٢٠٠٨) و (٢٠١٤) ومسلم (٧٥٩) ·

(٢) البخارى (١٨١٩) و (١٨٢٠) ومسلم (١٣٥٠) ·

(٣) رقم (١٢١) ·

(٤) رواه مالك وأحمد والشيخان وأصحاب السنن عن أبى هريرة ، كما فى صحيح الجامع الصغير (٤١٣٦) ·

(٥) رواه النسائى عن ابن عباس ، ورواه أحمد وابن ماجه عن عمر بلفظ : « ينفيان =

وفى صحيح مسلم [1] من حديث أبى قتادة ، عن النبــى ﷺ قال فى صوم عاشوراء : « أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله » ، وقال فى صـوم يوم عـــرفة : « أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والتى بعده » .

وروى الإمام أحمد [2] من حديث عقبة بن عامر، عن النبى ﷺ قال: « مثل الذى يعمل السيئات ، ثم يعمل الحسنات ، كمثل رجل كانت عليه درع ضيقة قد خنقته ، ثم عمل حسنة فانفكت حلقة ، ثم عمل حسنة أخرى ، فانفكت أخرى ، حتى يخرج إلي الأرض » .

وروى الترمذى من حديث معاذ بن جبل الطويل ، وقال : حســن صحيح : « الصدقة تطفىء الخطيئة كما يطفىء الماء النار » [3] .

ذكر الله :

ومما يكفر الخطايا : ذكر الله عز وجل ، وخصوصا إذا تواطأ عليه القلب واللسان : سواء كان ذكر ثناء أم ذكر دعاء قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [4] .

ومن هذا الذكر : التســـبيح والتهــليل قول :(لا إله إلا الله) والتــحميد (الحمد لله) والتكبير ، والحوقلة (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

وفى « الصحيحين » عن أبى هريـرة ، عن النبـى ﷺ قال : « من قال :

= عن الفقر والذنوب » كما رواه أحمد والترمذى والنسائى عن ابن مسعود (صحيح الجامع الصغير وزيادته (٢٨٩٩ - ٢٩٠١) .

(١) رقم (١١٦٢) .

(٢) ٤ / ١٤٥ ، وسنده حسن ، فإن راويه عن ابن لهيعة عبد الله بن المبارك .

(٣) وقد ثبت أيضا من حديث جابر، رواه أحمد والبزار وأبو يعلى وابن حبـــان والحاكم . انظر : المنتقى : حديث(٤٤٨) . (٤) الأحزاب : ٤١ ، ٤٢ .

(سبحان الله وبحمده) فى يومه مئة مرة ، حطت خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر » [1] .

وفيهما عنه ، عن النبى ﷺ قال : « من قال : لا إلَه إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، فى يوم مئة مرة ، كانت له عدل عشر رقاب ، وكُتبت له مئة حسنة ، ومحيت عنه مئة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حى يمسى ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أفضل من ذلك » [2] .

وخرج الإمام أحمد [3] بإسناد صحيح عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: « إن سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر : تنفض الخطايا كما تنفض الشجرة ورقها » [4] .

والأحاديث فى هذا كثيرة جداً يطول الكتاب بذكرها .

وسئل الحسن عن رجل لا يتحاشى من معصية إلا أن لسانه لا يفتر من ذكر الله ، فقال : إن ذلك لعون حسن .

وسئل الإمام أحمد عن رجل اكتسب مالاً من شبهة : صلاته وتسبيحه يحط عنه شيئًا من ذلك ؟ فقال : إن صلى وسبح يريد به ذلك ، فأرجو ، قال الله تعالى : ﴿ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحاً وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [5].

وقال مالك بن دينار : البكاء على الخطيئة يحط الخطايا ، كما تحط الريح الورق اليابس .

---

(١) البخارى (٦٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٩٢) .

(٢) البخارى (٣٢٩٣) و (٦٤٠٣) ، ومسلم (٢١٩١) .

(٣) فى « مسنده » ٣ / ١٥٢ .

(٤) رواه أحمد فى مسنده (٣ : ١٥٢) .

(٥) التوبة : ١٠٢ .

وقال عطاء : من جلس مجلساً من مجالس الذكر ، كفر به عشرة مجالس من مجالس الباطل .

ولما سئل عطاء : ما مجلس الذكر ؟ قال : مجلس الحلال والحرام ، وكيف تصلى ؟ وكيف تصوم ؟ وكيف تنكح ؟ وكيف تطلق ؟ تبيع وتشترى (يعنى : مجلس الذكر هو : مجلس العلم) .

البر والصلة :

ومن مكفرات الذنوب : بر الوالدين ، وصلة الرحم ، وبخاصة بر الوالدين فى حالة الكبر ، وفى الحديث أن جبريل عليه السلام دعا على من أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما ، فلم يغفر له ، وأمَّن عليه النبى ﷺ (١) .

وروى الإمام أحمد والترمذى من حديث ابن عمر أن رجلا أتى النبى ﷺ ، فقال يا رسول الله ، إنى أصبت ذنباً عظيماً ، فهل لى من توبة ؟ قال: « هل لك من أم ؟ » قال : لا ، قال: « فهل لك من خالة ؟ » قال : نعم ، قال: « فبرها » (٢) .

وروى عن عمر أن رجلاً قال له : قتلت نفساً ! قال : أمك حية ؟ قال : لا ، قال : فأبوك ؟ قال : نعم ، قال : فبره وأحسن إليه ، ثم قال عمر : لو كانت أمه حية فبرها ، وأحسن إليها ، رجوت أن لا تطعمه النار أبداً ، وعن ابن عباس معناه أيضًا (٣) .

وكذلك المرأة التى عملت بالسحر بدُومة الجندل ، وقدمت المدينة تسأل عن توبتها ، فوجدت النبى ﷺ قد توفى ، فقال لها أصحابه : لو كان أبواك حيين،

---

(١) روى عن أكثر من صحابى ، وصحح المنذرى فى الترغيب والترهيب بعض أسانيده وكذلك الهيثمى .

(٢) رواه أحمد ٢ / ١٣ - ١٤ ، والترمذى (١٩٠٥) وابن حبان (٤٣٥٦) والحاكم وصححه على شرط الشيخين ٤ / ١٥٥ .

(٣) رواه البخارى فى « الأدب المفرد » (٤) وإسناده صحيح على شرط الشيخين .

أو أحدهما، كانا يكفيانك ، رواه الحاكم [1] ، وقال : فيه إجماع الصحابة ، حدثان وفاة الرسول - على أن بر الوالدين يكفيانها ٠

الإحسان إلى الخلق :

ومن الحسنات والطاعات المكفرة للذنوب : فعل الخيرات ، والإحسان إلى خلق الله ، والرحمة بهم جميعا من إنسان وحيوان ٠

فالراحمون يرحمهم الرحمن،ومن رحم من فى الأرض رحمه من فى السماء ٠ وقد ذكرنا فى تأثير العبادات أن الصدقة تطفىء الخطيئة ، كما يطفى الماء النار ، وقد قال الرسول الكريم : « كل معروف صدقة » متفق عليه ٠

وقد صح عن أبى موسى أنه لما حضرته الوفاة قال : يا بَنِيَّ اذكروا صاحب الرغيف : كان رجل يتعبد فى صومعة - أُراه - سبعين سنة ، فشبه الشيطان فى عينه امرأة ، فكان معها سبعة أيام وسبع ليال ثم كُشف عن الرجل غطاؤه ، فخرج تائبا ٠ ثم ذكر أنه بات بين مساكين ، فَتُصُدِّق عليهم برغيف رغيف ، فأعطوه رغيفا ، ففقده صاحبه الذى كان يعطاه ، فلما علم بذلك أعطاه الرغيف ، وأصبح ميتا ! فوزنت السبعون سنة بالسبع ليال ، فرجحت الليالى ، ووزن الرغيف بالسبع الليال ، فرجح الرغيف [2] !

وهذا وإن كان موقوفًا علي أبى موسى ، فله حكم الحديث المرفوع ، لأنه مما لا مجال للرأى فيه ٠

ولا يقتصر تكفير السيئات على الإحسان إلى الناس والعقلاء ، بل الإحسان إلى البهائم والحيوانات والرفق بها مما تغفر به الذنوب ٠

---

(١) (١ / ١٥٥ ، ١٥٦) وصححه ووافقه الذهبى ، داود، ابن كثير فى تفسيره (١ / ٢٠٤) من طريق ابن أبى حاتم وجود إسناده ٠

(٢) رواه أبو نعيم فى الحلية (١ / ٢٦٣) ٠

ومن أبرز النماذج الدالة على ذلك : هذا النموذج الحى الذى قصه علينا النبى ﷺ من قصص السابقين، فيما رواه عنه أبو هريرة ، قال عليه الصلاة والسلام : « غفر لامرأة مومسة (بغى) مرت بكلب على رأس ركِىّ (بئر) يلهث ، كاد يقتله العطش ، فنزعت خفها ، فأوثقته بخمارها ، فنزعت له من الماء ، فغفر لها بذلك » قيل : إن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل ذات كبد رطبة أجر » وكنى برطوبة الكبد عن الحياة ، أى فى الإحسان إلى كل كائن حى أجر .

فرغم الماضى الخبيث لهذه المرأة التى كانت تحترف البغاء والتكسب بفرجها : فغفر الله لها بهذه الفعلة العظيمة التى قامت بها ، والتى دلت على أن حرفتها السيئة لم تطفىء كل ما فى قلبها من النور ، ولم تقتلع كل ما فيه من جذور الخير ، وقد بدا ذلك فيما قامت به من جهد لسقى الكلب وإرواء عطشه ، وإنقاذ حياته .

وفى مقابل هذه الرحمة التى أوجبت لها المغفرة ، نجد امرأة أخرى انتهت بها (قسوة القلب) إلى عذاب جهنم ، وبئس المصير ، وذلك فيما رواه ابن عمر وأبو هريرة قالا : قال رسول الله ﷺ : « عذبت امرأة فى هرة أمسكتها حتى ماتت من الجوع ، فلم تكن تطعمها ، ولا ترسلها فتأكل من خشاش الأرض » أى من هوامها وحشراتها ، متفق عليه .

هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر ؟

قال ابن رجب : وقد اختلف الناس : هل تكفر الأعمال الصالحة الكبائر والصغائر أم لا تكفر سوى الصغائر ؟ فمنهم من قال : لا تكفر سوى الصغائر ، وقد روى هذا عن عطاء وغيره من السلف فى الوضوء أنه يكفر الصغائر ، وقال سلمان الفارسى فى الوضوء : إنه يكفر الجراحات الصغار ، والمشى إلى المساجد يكفر أكبر من ذلك ، والصلاة تكفر أكبر من ذلك ، أخرجه محمد بن نصر المروزى [1] .

وأما الكبائر ، فلا بد لها من التوبة ، لأن الله أمر العباد بالتوبة ، وجعل من

(١) فى كتاب الصلاة رقم (٩٩) .

لم يتب ظالماً ، واتفقت الأمة على أن التوبة فرض ، والفرائض لا تؤدى إلا بنية وقصـد ، ولو كانت الكبـائر تقع مكفرة بالوضوء والصلاة ، وأداء بقية أركان الإسلام ، لم يحتج إلى التوبة ، وهذا باطل بالإجماع .

وأيضاً فلو كفرت الكبائر بفعل الفرائض ، لم يبق لأحد ذنب يدخل به النار إذا أتى بالفرائض ، وهذا يشبه قول المرجئة وهو باطل ، هذا ما ذكره ابن عبد البر فى كتابه « التمهيد » وحكى إجماع المسلمين على ذلك ، واستدل عليه بأحاديث :

منها قول النبى ﷺ : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر » وهو مخرج فى الصحيح [(١)] من حديث أبى هريرة ، وهذا يدل على أن الكبائر لا تكفرها هذه الفرائض .

وفى « صحيح مسلم » [(٢)] عن عثمان ، عن النبى ﷺ قال : « ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة ، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ، ما لم يؤت كبيرة ، وذلك الدهر كله » .

وفى « مسند » الإمام أحمد [(٣)] عن سلمان ، عن النبى ﷺ قال : « لا يتطهر الرجل - يعني يوم الجمعة - فيحسن طهوره ، ثم يأتى الجمعة فينصت حتى يقضى الإمام صلاته ، إلا كان كفارة ما بينه وبين الجمعة المقبلة ،ما اجتنبت المقتلة» .

وخرج النسائى ، وابن حبان ، والحاكم من حديث أبى سعيد وأبى هريرة عن النبى ﷺ ، قال : « والذى نفسى بيده ما من عبد يصلى الصلوات الخمس ، ويصوم رمضان ، ويخرج الزكاة ، ويجتنـب الكبائر السبع ، إلا فتحت له أبواب الجنة ، ثم قيل له : ادخل بسلام » [(٤)] .

---

(١) رواه مسلم (٢٣٣) . (٢) برقم (٢٢٨) .

(٣) « المسند » ٥ / ٤٣٩ ، ورجاله ثقات .

(٤) رواه النسائى ٥/٨ والحاكم ١/ ٢٠٠ و ٢/ ٢٤٠ ، وصححه ابن حبان (١٧٤٨) .

وقال ابن مسعود : الصلوات الخمس كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر [1] .

وقال سلمان : حافظوا على هذه الصلوات الخمس ، فإنهن كفارات لهذه الجراح ما لم تصب المقتلة [2] .

قال ابن عمرلرجل : أتخاف النار أن تدخلها ، وتحب الجنة أن تدخلها ؟ قال : نعم ، قال : بر أمك ، فوالله لئن ألنت لها الكلام ، وأطعمتها الطعام ، لتدخلن الجنة ، ما اجتنبت الموجبات .

وقال قتادة : إنما وعد الله المغفرة لمن اجتنب الكبائر .

وذهب قوم من أهل الحديث وغيرهم إلى أن هذه الأعمال تكفر الكبائر ، ومنهم ابن حزم الظاهرى ، وإياه عنى ابن عبد البر فى كتاب « التمهيد » بالرد عليه وقال : قد كنت أرغب بنفسى عن الكلام فى هذا الباب ، لولا قول ذلك القائل ، وخشيت أن يغتر به جاهل ، فينهمك فى الموبقات ، اتكالا على أنها تكفرها الصلوات، دون الندم والاستغفار والتوبة ، والله نسأله العصمة والتوفيق .

قلت : (والقائل ابن رجب) وقد وقع مثل هذا فى كلام طائفة من أهل الحديث فى الوضوء ونحوه ، ووقع مثله فى كلام ابن المنذر فى قيام ليلة القدر ، قال : يُرجى لمن قامها أن يغفر له جميع ذنوبه ، صغيرها وكبيرها .

والصحيح قول الجمهور : إن الكبائر لا تكفَّر بدون التوبة ، لأن التوبة فرض على العباد ، وقد قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [3] .

وقال ابن عون : لا تثق بكثرة العمل ، فإنك لا تدرى أيقبل منك أم لا ، ولا تأمن ذنوبك ، فإنك لا تدرى كفرت عنك أم لا ، إن عملك مغيب عنك كله .

---

(١) انظر« تعظيم قدر الصلاة » للمروزى ١ / ٢٢٤ .

(٢) رواه عبد الرزاق فى « المصنف » (١٤٨) و (٤٧٣٧) ومن طريقه الطبرانى (٦٠٥١) .

(٣) الحجرات : ١١ .

قال : والأظهر - والله أعلم - فى هذه المسألة - أعنى مسألة تكفير الكبائر بالأعمال - أنه إن أريد أن الكبائر تمحى بمجرد الإتيان بالفرائض ، وتقع الكبائر مكفرة بذلك ، كما تكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، فهذا باطل ، وإن أريد أنه قد يوازن يوم القيامة بين الكبائر وبين بعض الأعمال ، فتمحى الكبيرة بما يقابلها من العمل ، ويسقط العمل ، فلا يبقى له ثواب ، فهذا قد يقع ٠

وقد تقدم عن ابن عمر أنه لما أعتق مملوكه الذى ضربه ، قال : ليس لى فيه من الأجر شىء ، حيث كان كفارة لذنبه ، ولم يكن ذنبه من الكبائر ، فكيف بما كان من الأعمال مكفرًا للكبائر ؟ ٠

وسبق أيضاً قول من قال من السلف : إن السيئة تمحى ، ويسقط نظيرها حسنة من الحسنات التى هى ثواب العمل ، فإذا كان هذا فى الصغائر ، فكيف بالكبائر ؟ فإن بعض الكبائر قد يحبط بعض الأعمال المنافية لها، كما يبطل المن والأذى الصدقة ٠

٤ - حمّام المصائب والهموم :

ومن أعظم المكفرات للذنوب والخطايا : ما يبتلى الله به المسلم والمسلمة من مصائب الدنيا ، من المرض والفقر ، ومن فقد الأحباب ،والأموال ، والغربة عن الأهل والوطن ، والاعتقال والسجن ، ومن الهم والحزن ، ومن كل ما يتألم الإنسان منه بدنيًّا أو نفسيا من ابتلاءات الحياة ، وذلك أن هذه المصائب تشعر الإنسان بعجزه وضعفه وفقره ، وقدرة ربه وقوته وغناه المطلق ، وتتيح له فرصة محاسبة نفسه ، ومراجعة رصيده ، والرجوع إلى مولاه ، فيدعو ربه منيبًا إليه ويقول : رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لي ، وفى هذا قال الله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

ومن ثم كان تكفير البلايا للخطايا متفقا مع سنن الله تعالى ، لما لها من تأثير فى نفس المبتلَى ، وإنزاله من دعوى الفرعونية إلى حقيقة العبودية ٠

(١) الروم : ٤١ ٠

وفى هذا روى أبو هريرة وأبو سعيد عن النبى ﷺ قال : « ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ، ولا هم ولا حزن ، ولا أذى ولا غم ، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه » (١) .

وعن عبد الله بن مسعود قال : دخلت على النبى ﷺ ، وهو يوعك (أى يتألم من شدة المرض) فمسسته بيدى، فقلت : يا رسول الله ! إنك توعك وعكا شديدًا ! فقال : « أجل إنى أوعك كما يوعك رجلان منكم » قال : فقلت : ذلك لأن لك أجرين ! فقال : « أجل » ثم قال : « ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه ، إلا حط الله تعالى به سيئاته ، كما تحط الشجرة ورقها » (٢) .

ومن أجل هذا روى ابن عباس قال: كان النبىﷺ إذا دخل على مريض يعوده قال : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » (٣) ! يعنى إن هذا المرض طهارة وكفارة له .

وعن جابر قال : دخل رسول الله ﷺ على أم السائب ، فقال : « مالك تزفزفين ؟ » (أى ترتعدين) قالت : الحّمى ، لا بارك الله فيها ! فقال : « لا تسبى الحّمى ، فإنها تذهب خطايا بنى آدم ، كما يذهب الكير خبث الحديد » (٤) .

وعلى قدر شدة البلاء واستمراره ، يكون التطهير والتكفير للخطايا ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة : فى نفسه وماله وولده ، حتى يلقى الله تعالى ، وما عليه من خطيئة » رواه الترمذى وقال : حسن صحيح ، وروى مالك نحوه .

وعن سعد قال : سئل النبىﷺ : أى الناس أشد بلاء ؟ قال : الأنبياء ، ثم الأمثل فالأمثل ، يبتلى الرجل على حسب دينه،فإن كان صلبا فى دينه اشتد بلاؤه ، وإن كان فى دينه رقة ، هُوّن عليه ، فما زال كذلك (أى ينزل به البلاء) حتى يمشى

(١ ، ٢) متفق عليهما .

(٣) رواه البخارى . صحيح الجامع الصغير (٤٧١٨)

(٤) رواه مسلم : المصدر السابق (٧٣٢١) .

على الأرض ماله ذنب » رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى ، وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح .

وهذا التطهير والتكفير والثواب من الله تعالى ، إنما هو لمن استقبل البلاء بصبر جميل ، واحتسب ما أصابه عند الله تعالى ، ولم يقابله بالسخط والجزع ، فيضيع بحماقته ما له عند ربه .

عن أنس أن النبى ﷺ قال : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء ، وإن الله عز وجل إذا أحب قوما ابتلاهم ، فمن رضى فله الرضا ، ومن سخط فله السخط » رواه الترمذى وحسنه وابن ماجه .

وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « قال الله سبحانه وتعالى : إذا ابتليت عبدى بحبيبتيه، ثم صبر، عوضته منهما الجنة » يريد : عينيه . رواه البخارى ؛ فانظر قوله : ثم صبر ، ليدل على وجوب الصبر عند البلاء .

وعن شداد بن أوس والصنابحى ، أنهما دخلا على رجل مريض يعودانه ، فقالا له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بنقمة ! فقال شداد : أبشر بكفارات السيئات ، وحط الخطايا ، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله عز وجل يقول : إذا أنا ابتليت عبدا من عبادى مؤمنا ، فحمدنى على ما ابتليته ، فإنه يقوم من مضجعه ذلك ، كيوم ولدته أمه من الخطايا »(1) ، فانظر قوله سبحانه : « فحمدنى على ما ابتليته » فهو قيد لابد منه ليستحق ما وعد به: أن يخرج من خطاياه ، كيوم ولدته أمه، أى يولد ميلادا جديدا ، وذلك بأن يفلسف بلواه ، وينظر إلى جانب النعمة فيها ، كما قال عمر : ما أصبت ببلاء ، إلا رأيت لله عليه فيه أربع نعم : أنه لم يكن فى دينى ، وأنه لم يكن أكبر منه ، وإنى لم أحرم الرضا به ، وإنى أرجو مثوبة الله عليه ! .

ومن هنا روى جابر مرفوعا : « يود أهل العافية يوم القيامة ، حين يعطى أهل

---

(1) رواه أحمد .

البلاء الثواب، لو أن جلودهم كانت قرضت فى الدنيا بالمقاريض » رواه الترمذى وقال غريب(وله شاهد من حديث ابن عباس يرتقى به إلى درجة الحسن) .

ولهذا لم يكونوا يرحّبون بالإنسان يعيش طول عمره معافى لا يبتلى بشىء ، فإن معنى هذا أن كل عقابه على سيئاته مؤجل له فى الآخرة .

فعن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله بعبده الخير ، عجل له العقوبة فى الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر ، أمسك عنه بذنبه ، حتى يوافيه به يوم القيامة » رواه الترمذى (وقال : حسن غريب) .

وعن يحيى بن سعيد قال : إن رجلا جاءه الموت فى زمن رسول الله ﷺ ، فقال رجل : هنيئًا له ، مات ولم يبتل بمرض ! فقال رسول الله ﷺ : ويحك ! وما يدريك لو أن الله ابتلاه بمرض ، فكفر عنه من سيئاته ! » رواه مالك مرسلا (وهو مرسل صحيح الإسناد) (١).

٥ - حمَّام الحدود والعقوبات الشرعية :

ومن الحمامات المطهرة والمكفرة للذنوب والخطايا : إقامة الحدود والعقوبات الشرعية على من اقترف الجرائم الموجبة لها .

كما إذا زنى وأقيم عليه حد الزنى ، أو سرق وأقيم عليه حد السرقة ، أو قذف وأقيم عليه حد القذف ، أو شرب وأقيم عليه حد الشرب ، وهكذا ، فإن الله تعالى أكرم من أن يعاقبه مرتين : مرة فى الدنيا ومرة فى الآخرة ، كما ورد ذلك عن على رضي الله عنه مرفوعا : « من أصاب حدا فعُجِّل عقوبته فى الدنيا ، فالله أعدل من أن يثنّى على عبده العقوبة فى الآخرة ، ومن أصاب حدا فستره الله عليه ، عفا عنه ، فالله أكرم من أن يعود فى شىء قد عفا عنه » (٢) .

وأوضح وأصح ما يستدل به على أن الحدود والعقوبات الشرعية كفارة لمن

---

(١) أحاديث هذه الفقرةكلها(حمام المصائب والهموم) أخذناها من (مشكاة المصابيح) للخطيب التبريزى بتحقيق الشيخ الألبانى. باب عيادة المريض وثواب المرض من كتاب الجنائز.

(٢) رواه أحمد (١ / ٩٩ ، ١٥٩) والترمذى (٢٦٢٦) وقال : حسن غريب والحاكم (٢ / ٤٤٥، ٤ / ٢٦٢) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

أقيمت عليه : حديث عبادة بن الصامت ، قال : كنا عند رسـول الله ﷺ فقال : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ... ، فمن وفى منكم ، فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعوقب به (أى فى الدنيا) ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فستره الله عليه ، فهو إلى الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء غفر له » خرجاه فى « الصحيحين » ، وفى رواية لمسلم : « من أتى منكم حداً فأقيم عليه فهو كفارته » [1] ، وهذا يدل على أن الحدود كفارات ، قال الشافعى : لم أسمع فى هذا الباب أن الحد يكون كفارة لأهله شيئاً أحسن من حديث عبادة بن الصامت .

وقوله : « فعوقب به » يعم العقوبات الشرعية ، وهى الحدود المقدرة أو غير المقدرة ، كالتعزيزات ، ويشمل العقوبات القدرية : كالمصائب ،والأسقام والآلام ، كما ذكرنا من قبل .

وأما حديث : « لا أدرى : الحدود كفارة لأهلها أم لا ؟ » [2] فمحمول على أنه قال ذلك قبل أن يعلمه الله تعالى ، فإن الله تعالى يعلمه ما لم يكن يعلم .

فهذه كلها مكفرات للذنوب والخطايا ، فمن لم تطهره هذه الحمامات كلها ، طهر فى حياة البرزخ، بأن يعذب فى قبره،فإن لم يتطهر بذلك ، فلا يطهره إلا النار ، أعاذنا الله منها .

* * *

---

(١) رواه البخارى (١٨) ، ومسلم (١٧٠٩) .

(٢) رواه الحاكم عن أبي هريرة (١ / ٣٦ ، ٢ / ١٤ أو ٤٥٠) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى كما صححه الحافظ ابن حجر فى الفتح على شرطهما أيضاً . أنظر : الفتح (١ / ٦٦) .

ثمرات التـــوبة

- كسب المغفرة والجنة .
- تجديد الإيمان .
- تبديل السيئات حسنات .
- الانتصار على العدو الدائم .
- الانتصار على النفس الأمارة بالسوء .
- انكسار القلب لله .
- محبة الله تعالى .
- فرح الله بالتائب .

ثمرات التوبة

وللتوبة النصوح إذا تحققت أركانها،واستوفت شروطها: ثمار دانية القطوف ، يجدها كل تائب فى نفسه وفى حياته الدنيا ، وجزاء الآخرة خير وأبقى ، وهى ثمرات أخروية ودنيوية ، روحية ومادية ، أخلاقية وعملية ، فردية واجتماعية .

١ - تكفير السيئات ودخول الجنات :

وأولى هذه الثمرات : كسب المغفرة ودخول الجنة ، التى أعد الله فيها لعباده الصالحين : ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١).

لقد أمرنا الله تعالى فى كتابه بالمسارعة إلى مغفرة من ربنا ، وإلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، ولكنه بين لنا فى جلاء : إن المتقين ليسوا ملائكة أطهارا ، ولا أنبياء معصومين ، ولكنهم بشر من خلق الله ، يصيبون ويخطئون ، ويطيعون ويعصون ، ويستقيمون وقد ينحرفون ، بيد أن مزيتهم على غيرهم أنهم لا يتمادون فى الخطايا ، ولا يذهبون فى المعاصى حيث لا يعودون ، بل سرعان ما يعودون إلى باب ربهم ، واقفين على عتباته ، مبتغين لمرضاته ، طالبين لعفوه ، سائلين لمغفرته ، راجين لرحمته ، يقول تعالى ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ ، أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ، وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ، وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ ، وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) السجدة : ١٧ . (٢) آل عمران : ١٣٣ - ١٣٥ .

فوصفهم الله تعالى ببذل الندى ، واحتمال الأذى ، حين وصفهم بالإنفاق فى حالتى اليسر والعسر ، وكف النفس عن الغضب ، بل يكظمون الغيظ ويعفون عن الناس ، ثم بين سبحانه أنهم إذا ضعفوا يوما فوقعوا فى كبيرة مثل فعل الفاحشة ، أو فى صغيرة ، وهو ما عبرت عنه الآية بظلم النفس ، ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزِى اللهُ النَّبِىَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١) .

رتبت الآية الكريمة على التوبة النصوح أمرين : تكفير السيئات ، ودخول الجنات .

وقد بين الغزالى رحمه الله :

أن للتوبة ثمرتين :

إحداهما : تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له .

الثانية : نيل الدرجات حتى يصير حبيبا لله .

وللتكفير أيضاً درجات : فبعضه محو لأصل الذنب بالكلية ، وبعضه تخفيف له ، ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة ، فالاستغفار بالقلب، والتدارك بالحسنات- وإن خلا عن حل عقدة الإصرار - من أوائل الدرجات، فليس يخلو عن الفائدة أصلا ، فلا ينبغى أن تظن أن وجودها كعدمها ، بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها : أن قول الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ (٢) صدق ، وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر ، كما لا تخلو شعيرة تطرح

---

(١) التحريم : ٨ .   (٢) الزلزلة : ٧ .

فى الميزان عن أثر ، ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر ، لكانت الثانية مثلها ، ولكان لا يرجح الميزان بأحمال الذرات ، وذلك بالضرورة محال ، بل ميزان الحسنات يرجح بذرات الخير إلى أن يثقل ، فترفع كفة السيئات ، فإياك أن تستصغر ذرات الطاعات فلا تأتيها ، وذرات المعاصى فلا تتقيها ، كالمرأة الخرقاء التى تدع الغزل اتكالاً بأنها لا تقدر فى كل ساعة إلا على خيط واحد ، وتقول : أى غنى يحصل بخيط ؟ وما وقع ذلك فى الثياب ؟ ولا تدرى المعتوهة أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا ، وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة ، فإذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا ، بل أقول : الاستغفار باللسان أيضاً حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان فى تلك الساعة بغيبة مسلم أو فضول كلام ، بل هو خير من السكوت عنه ، فيظهر فضله بالإضافة إلى السكوت عنه ، وإنما يكون نقصانا بالإضافة إلى عمل القلب (١) .

٢ - تجديد الإيمان :

ومن الثمار اليانعة للتوبة: أنها تعمل على تجديد إيمان التائب وترميمه بعد ما نالت منه الخطايا ما نالت، فإن الذنوب والمعاصى التى تقع من المسلم تخدش الإيمان وتجرحه جرحا يصغر أو يكبر، بقدر حجمها من الصغر والكبر، وبقدر كمها من القلة والكثرة، وبقدر كيفها من التأثير فى النفس، فالمعصية التى يفرح بها صاحبها ، ويستعيد ذكراها بتلذذ ، غير التى يحزن لوقوعها ، ويشعر بالأسى كلما تذكرها ، والمعصية التى يجاهر بها مرتكبها ويتبجح، غير التى يستخفى بها ، ويخجل منها ، ويسأل الله أن يسترها عليه ولا يفضحه فى الدنيا ولا الآخرة .

والمعصية التى تقع فلتة من صاحبها كأنها بيضة الديك كما يقال، غير التى تتكرر منه ، ويصر عليها مواظبا فيعلق القلب بها .

---

(١) انظر : الإحياء : ٤ / ٤٨ .

وعلى كل حال ، يظل هناك للمعصية تأثير سلبى على إيمان المكلف ، قد ينتهى به إلى الكفر والعياذ بالله .

وفى الحديث الصحيح : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن » (١) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « إذا زنى العبد خرج منه الإيمان ، فكان على رأسه كالظلة ، فإذا أقلع، رجع إليه » (٢) .

ويقول : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ! من لا يأمن جاره بوائقه » (٣) .

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » (٤) .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » (٥) . ومفهومه أن من لم يفعل هذه الخصال قد انتفى عنه الإيمان .

ما المراد بنفى الإيمان فى هذه الأحاديث ؟ لا نريد أن ندخل فى خلاف الفرق حول هذه النصوص وما شابهها .

ولكن المتفق عليه: أنها تنفى الإيمان الصادق والكامل، وتغشى نوره بظلامها، وصفاءه بسوادها، فلا يصبح الإيمان بعد المعصية بقوته ونقائه وكماله وتأثيره كما كان قبل المعصية .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة ، صحيح الجامع الصغير (٧٧٠٧) .
(٢) رواه أبو داود والحاكم عن أبى هريرة ، المصدر السابق (٥٨٦) .
(٣) رواه أحمد والبخارى عن أبى شريح ، المصدر السابق (٧١٠٢) .
(٤) متفق عليه عن أنس ، نفسه (٧٥٨٣) .
(٥) متفق عليه عن أبى شريح وأبى هريرة ، صحيح الجامع (٦٥٠١) .

ولهذا كانت التوبة الصادقة النصوح تجديدا للإيمان : تقويه بعد ضعف ، وتوقظه بعد رقود ، وتثبته بعد زعزعة ، بما تضيف إليه من أشواق وبواعث ومشاعر حية وجديدة ، تحفز إلى الخير ، وتزجر عن الشر ·

ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يعطف الإيمان على التوبة ، ويقرنه بها ، لأنه مكمل لها ، بل مصحح لوجودها ، كما فى قوله تعالى فى وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إلهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ ، وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ .. ﴾ (1) .

وقال تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾(2) .

ولتجديد الإيمان بالله فى نفس التائب دلائل وآيات يعرفها صاحبها ويعيشها ·

منها : أن يعرف بره سبحانه فى ستره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له ، ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه، وهذا من كمال بره ، ومن أسمائه « البَرُّ » وهذا البر من سيده كان مع كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه ، فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم ، فيذهل عن كل ما سوى الله ، ولا يشتغل إلا بذكره وشكره وحسن عبادته ، فإن الاشتغال بالله والغفلة عما سواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى ·

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة ، ولو شاء لعاجله بالعقوبة ، ولكنه الحليم الذى لا يَعْجَل ، فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه « الحليم » ومشاهدة صفة « الحلم » والتعبد بهذا الاسم ·

ومنها : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العــذر منه إذا اعتذر إليه بضعفه

---

(1) الفرقان : 68 - 70 ·   (2) طه : 82 ·

وعجزه ، وغلبة هواه ،وشيطانه عليه ، ونحو ذلك ، فيقبل عذره بكرمه وجوده ، فيوجب له ذلك اشتغاله بذكره وشكره،ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك ، فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده ، والواقع شاهد بذلك ، فعبودية التوبة بعد الذنب لون ، وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله فى مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله ، وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً محموداً ، وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك ، فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحاً وابتهاجاً به ، ومعرفة له باســـمه « الغفار » ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها ، وذلك أكمل فى العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن تكتمل للتائب مراتب الذل والخضوع لربه جل شأنه ، والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه . فإن النفس فيها مضاهاة للربوبية ، ولو قَدَرتْ لقالت كقول فرعون ، ولكنه قدر فأظهر ، وَغَيْرُه عجز فأضمر ، وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة ذل العبودية ، وهو أربع مراتب :

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق ، وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله ، فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه ، فقراء إليه ، وهو وحده الغنى عنهم ، وكل أهل السموات والأرض يسألونه ، وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية ، وهو ذل الاختيار ، وهذا خاص بأهل طاعته ، وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة ، فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل :

اخضعْ وَذِلَّ لمن تحب ، فليس فى حـــــكم الهوى أنْف يُشَال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل الحب ، حتى قبورهم   عليها تراب الذل بين المقابر [1]

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية ·

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم ، إذ يذل له خوفاً وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقراً وفاقة [2] .

* * *

٣ - تبديل السيئات حسنات :

ومن ثمار التوبة : ما ذكره الله تعالى فى كتابه من تبديل سيئات التائبين حسنات ·

وهو قوله تعالى : ﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَّحِيمًا ﴾ [3] ،وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح،وهو حقيقة التوبة ، قال ابن عباس ﷺ « ما رأيت النبى ﷺ فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت،وفرحه بنزول ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِيناً * لِّيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ [4] .

واختلفوا فى صفة هذا التبديل ، وهل هو فى الدنيا ، أو فى الآخرة ؟ على قولين :

---

(١) فى هامش الأصل من (المدارج) :

أذل لمن أهـــوى لأكســب عزة   وكم عزة قـــد نالهـــا المرء بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاً ولم تكن   ذليلا له ، فاقْرَ السلام على الوصل

(٢) انظر : مدارج السالكين : ١ / ٢٠٦ ، ٢٠٧ ·

(٣) الفرقان : ٧٠ ·   (٤) الفتح : ١ ، ٢ ·

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها ، فبدلهم بالشرك إيماناً ، وبالزنى عِفَّة وإحصانًا ، وبالكذب صدقًا ، وبالخيانة أمانة .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالا صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة ، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه : عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار : يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، ويخبأ عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا ، وهو مقر لا ينكر ، وهو مشفق من كبارها ، فيقال : أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة ، فيقول : إن لى ذنوباً ما أراها ههنا ! قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه » .

قال ابن القيم : فهذا حديث صحيح ، ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر ، فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار ، ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطى مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه ، وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات ، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب ، والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته ، فأين فى هذا الحديث ما يدل على ذلك ؟ .

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد علمت ما فيه ، لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته ، وهى أن الذنب لابد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية

تارة ، وبالمصائب المكفرة تارة ، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة ، وكذلك إذا اشتد أثره ، ولم تقو تلك الأمور على محوه ، فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث ، ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه ، فإذا بقى عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه ، فيصلح حينئذ لدار الملك ·

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح ، وهى أقوى الأسباب ، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار ، فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطى مكان كل سيئة حسنة ، فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة ، لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله ، وإزالة النار بدل منها ، وهى الأصل ، فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول ·

يوضحه : أن التائب قد بدل كل سيئة بندمه عليها حسنة ، إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة ، والتوبة من كل ذنب حسنة ، فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة ، فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار ، فتأمله فإنه من ألطف الوجوه ·

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة ، وقد تكون دونها ، وقد تكون فوقها ، وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة ، وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها ·

يوضحه : أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعاً ، وأحب إلى الله من عصـــمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، وإنابة وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه ، ويندم الشيطان على إيقاعه فى

الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه ، لكن شتان ما بين الندمين ، والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه ، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة ، فيحصل من العبد مراغمة العـدو بالتوبة والتدارك ، وحصـول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، ما يوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله : ﴿ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ﴾ ولم يقل مكان كل واحدة واحدة ، فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل .

وأما فى الحديث : فإن الذى عذب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها ، فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات ، فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة . وسكت النبى ﷺ عن كبار ذنوبه ، ولما انتهى إليها ضحك . ولم يبين ما يفعل الله بها ، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة ، ولكن فى الحديث إشارة لطيفة إلي أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين :

أحدهما : قوله « اخبئوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع فى تبديلها ، فيكون تبديلها أعظم موقعا عنده من تبديل الصغائر ، وهو به أشد فرحاً واغتباطاً .

والثانى : ضحك النبى ﷺ عند ذكر ذلك ، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يُقِرُّ به على نفسه من الذنوب ، من غير أن يقرر عليها ولا يسأل عنها ، وإنما عرضت عليه الصغائر .

فتبارك الله رب العـالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

٤ - الانتصار على العدو الدائم :

ومن ثمار التوبة : الانتصار على العدو الدائم للإنسان ، وهو الشيطان ، الذى أقسم أمام الله تعالى : ليضلن بنى آدم ، وليغوينهم أجمعين ، وأكد ذلك القرآن فى عدة سور بأساليب شتى، كلها تدل على إصرار هذا اللعين على إهلاك الإنسان كما هلك هو باستكباره وتمرده على ربه .

فبعد أن طرده الله من السماء ، وأخرجه مذؤوما مدحورا ، وكتب عليه اللعنة إلى يوم الدين : ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (١) .

﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ (٢) ، ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (٣) .

ولقد نفذ اللعين وعده ، وبر فى قسمه وهو كذوب ، ولم يتوان ساعة فى تزيين الشر ، وتحسين الباطل ، وإضلال الناس فى الاعتقاد والفكر ، وإغوائهم فى العمل والسلوك ، حتى سئل الحسن البصرى ﷺ : هل ينام الشيطان ؟ قال : لو نام لاسترحنا منه بعض الوقت ! ولكنه لا ينام ولا يأخذ إجازة ، ومن هنا وجب التيقظ لعداوته ، والتنبه لمكايده ، والتفطن لكل المداخل التى يدخل منها ، والثغرات التى يستغل غفلة حراسها ، ليتسلل إليها ، ويقفز منها إلى داخل حصوننا ليهدمها من داخلها .

لهذا حذرنا الله تعالى منه أشد التحذير ، وبصرنا أبلغ التبصير ، فقال تعالى :

---

(١) الحجر : ٣٩ . (٢) الأعراف : ١٦ ، ١٧ .

(٣) سورة ص : ٨٢ ، ٨٣ .

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (١) .

﴿ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (٢) .

هذا العدو عدو دائم ، لا يقبل صلحا ولا هدنة ، ولا يرضيه إلا هلاك بنى آدم ، الذى كان سبب عداوته لهم الحسد ، وقد قال الشاعر :

كل العداوات قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسد !

وقال معاوية : أستطيع أن أرضى كل الأعداء ، إلا الحاسد ، فإنه لا يرضيه إلا زوال نعمتى !

وكلما أوقع الشيطان اللعين ، بنى الإنسان فى براثن الذنوب ، قرت عينه ، وغمرته الفرحة ، بما أصاب من عدوه ، وكلما استنارت بصائرهم ، واستيقظت ضمائرهم ، بعد المعصية ، فتابوا إلى الله واستغفروه ، أدركته الحسرة ، وركبه الغم ، لضياع جهده سدى ، ولهذا يروى عن إبليس أنه قال : أهلكت بنى آدم بالذنوب ، فأهلكونى بالتوبة والاستغفار .

ويروى أيضا أنه قال لربه : بعزتك لأظلن أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل : وبعزتى لأظلن أغفر لهم ما استغفرونى .

لقد انتصر الشيطان اللعين على الإنسان فى أول الأمر حين أوقعه فى المعصية ، ثم انتصر عليه الإنسان حين رجع إلى الله بالتوبة .

* * *

---

(١) فاطر : ٦ . (٢) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩ .

٥ - الانتصار على النفس الأمارة بالسوء :

ومن ثمرات التوبة : انتصار التائب على شهوات نفسه ، التى بين جنبيه ، والتى تدفعه - بما ركب فيها من غرائز ودوافع فطرية - إلى مقارفة الشر ، والمعصية ، والتكاسل عن الخير والطاعة ، وهى النفس التى سماها القرآن : أمارة بالسوء ، حين قال على لسان امرأة العزيز في قصة يوسف الصديق عليه السلام : ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ، إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١)

وهذه الصيغة (أمارة) تدل على المبالغة والكثرة ، فهى دائمة الأمر بالسوء ، والإغراء به ، والتحريض عليه ، وكثيرا ما يضعف الإنسان أمام إغراءاتها وتحريضاتها ، وتسترخى إرادته ويستجيب لداعيها ، حتى إن القرآن الكريم قص علينا قصة أول جريمة قتل وقعت فى تاريخ البشرية ، وفى فجر حياتها قبل أن يعرف الناس كيف يوارون جثث موتاهم ، وذلك فى قصة ابنى آدم التى قص الله علينا نبأهما بالحق . ﴿ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ ، قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ إلى قوله : ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (٢) .

فانظر كيف تهوى نفس الإنسان به إلى أى درك ؟ حتى تطوع له قتل أخيه الطيب الخير بلا جرم جناه ، إلا أن الله تقبل منه قربانه ولم يتقبل من الآخر ، وما ذنب الأخ المسكين فى ذلك ، حتى يكون جزاؤه القتل ؟ .

إن هذه النفس إذا تركت لغرائزها وحدها أهلكت صاحبها ، ولابد من مجاهدتها ورياضتها حتى تتزكى فتفلح ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ (٣) .

---

(١) يوسف : ٥٣ . (٢) المائدة : ٢٧ - ٣٠ .

(٣) الشمس : ٧ - ١٠ .

وبهذا تنتقل من النفس (الأمّارة) إلى (النفس اللوامة) التى ذكرها القرآن فى مطلع سورة القيامة حين قال : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلاَ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴾[1] .

و (اللوامة) صيغة مبالغة من اللوم ، فهى كثيرة اللوم لصاحبها كلما ارتكب شرا ، أو قصر فى خير ، وهى ما نعبر عنه الآن بـ (الضمير الحى) ، وهى التى لا تزال تلوم صاحبها حتى تدفعه إلى التوبة .

وقد ترتقى هذه النفس حتى تصبح (النفس المطمئنة) المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴾ [2] .

ولا ريب أن التائب إلى ربه توبة نصوحا ، قد انتصر فى هذه المعركة الكبيرة التى عبرت عنها بعض الكلمات المأثورة التى تقول : « المؤمن بين خمس شدائد : بين مسلم يحسده ، ومنافق يبغضه، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه » إنها معركة كثيرة الأعداء ، متعددة الميادين ، متنوعة الأسلحة ، معركة فى الداخل والخارج ، تحتاج إلى يقظة وتأهب واستعداد ، للجهاد الدائم ، والبذل المستمر ، والمنصور من نصره الله .

* * *

٦ - انكسار القلب لله :

ومما ثمار التوبة العاجلة : انكسار القلب لله الجليل العظيم ، والشعور بحقيقة العبودية والضراعة بين يديه سبحانه ، وفى بعض الآثار الإلهية : « أنا عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » .

فالتوبة النصوح تحدث فى قلب التائب كسرة خاصة لا يشبهها شىء ، ولا تكون لغير المذنب ، الذى شعر بذنبه ، وحاصره من كل جانب، فهو يريد أن يصطلح

---

(١) القيامة : ١ ، ٢ . (٢) الفجر : ٢٧ ، ٢٨ .

على ربه ، ويقف على بابه ، بعد الجفوة التى باعدت بينه وبين مولاه بسبب المعصية ، ولكن هذه المعصية ولدت له خيرا،ورب ضارة نافعة، وكم من منحة فى طى محنة .

لقد كانت مصيبة المعصية سببا في إفاقته ويقظة ضميره ، وصحوة قلبه ، وغلبة إحساسه بفضل ربه ، وتفريط نفسه ، فيحدث له هذا تحولا فى حياته من الشر إلى الخير ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الضياع إلى الالتزام ، ومن الإعراض إلى الإقبال .

وفى هذا يقول ابن عطاء الله في حكمه : ربما فتح الله لك باب الطاعة ، وما فتح لك باب القَبول ، وربما قدر عليك المعصية فكانت سببًا فى الوصول . معصية أورثت ذلا لله وانكسارا ، خير من طاعة أورثت عُجبا واستكبارا .

هذا الشعور الحى ، وهذا التصور الواعى ، وهذه الصحوة القلبية : ثمرة لهذا المشهد الذى عبر عنه ابن القيم بمشهد الذل والانكسار والخضوع والافتقار للرب جل جلاله .

فيشهد فى كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه ، وفلاحه ، وهداه وسعادته ، وهذه الحال ألتى تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وإنما تدرك بالحصول ، فيحصل لقلبه كسرة خاصة لا يشبهها شيء .

فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير ، ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً ، فأى خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها - ولو ساوت طاعات الثقلين - من أقل ما ينبغى لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فإن الكسرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم ، وأحب القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدى ربه ، لا يرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء ، فهذا سجود القلب .

فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه ، وإذا سجد القلب لله - هذه السجدة العظمى - سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحى القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم ، فلا يُرَى إلا متملقا لربه ، خاضعا له ، ذليلا مستعطفاً له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذى لا غنى له عنه ، ولا بد له منه . فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه ، لأنه لا حياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه ، ومحبته له ، يقول : كيف أُغضب من حياتى فى رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره ؟ (١) .

* * *

٧ - محبة الله تعالى :

ومن ثمار التوبة : الحصول على محبة الله تعالى ، فقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ (٢) .

---

(١) المدارج ١ / ٤٢٨ ، ٤٢٩ . (٢) البقرة : ٢٢٢ .

والحصول على محبة الله تعالى ليس بالأمر الهين ، ولا الكسب الضئيل ، إنها شيء كبير لا يقادر قدره ، ولا يعرفه إلا أهله .

وإذا كان الناس يسعون جهدهم ، ويبذلون وسعهم ، للحصول على محبة رئيس أو أمير أو ملك ، أو غيرهم من كبراء الدنيا ، فإذا ظفر بذلك اعتبر نفسه قد فاز فوزا عظيماً ، وفاخر بهذه المحبة أقرانه ، مع أن هذا الرئيس ، أو الأمير لا يستطيع أن يزيد في رزقه درهما لم يكتبه الله له ، ولا أن يؤخر أجله ساعة ليست من عمره ، ولا يملك أن يهب له سكينة في قلبه ، أو راحة لضميره ، أو صلاحا لذريته ، أو قرة عين بزوجه ، أو نحو ذلك من طيبات الحياة التي لا يجدها الملوك أنفسهم ، فكيف يهبونها لغيرهم ، وفاقد الشيء لا يعطيه ؟ .

إن المسلم يرنو بعينه ، ويهفو بقلبه ، ويسعى بجهده ، لكي يرتقي إلى محبة الله تعالى ، لكي يكون محبوبا لله رب العالمين ، وأي منزلة أسمى من هذه المنزلة التي عبر عنها الحديث القدسي الشريف الذي رواه البخاري : « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ... ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه » .

وإنما يحب الله التوابين ؛ لأنه يكره من عباده الشرود عنه ، والبعد عن ساحته ، والوقوع في أسر عدوه الشيطان ، ويحب منهم أن يرجعوا إليه ، ويقفوا على بابه ،وإن عصوه وقصروا في حقه جل شأنه ، فبابه لهم مفتوح ، ويده إليهم مبسوطة أبدا ، يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، ولا يردهم عن عتبته ، ويناديهم « لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .

ومن ناحية أخرى ، نجد التائب - بعد تورطه في معصية الله - يشعر بشدة الحاجة إليه ، والافتقار إلى رحمته ، والانكسار بين يديه ، وعمق الإحساس بحقيقة العبودية له ، وغاية الخضوع لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

ومن هنا قال العارفون : إن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله تعالى وأكرمها عليه ، فإنه سبحانه يحب التوابين ·

ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه ، فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة · يوضح ذلك :

الوجه الثانى : أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات ، ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدر ، كما مثله النبى ﷺ بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدَّوِّيّة المهلكة ، بعد ما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة ، ولم يجىء هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة ، ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيما فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه ، وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد ، فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية ، فيصير حبيباً لله ، فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتن التواب ، يوضحه :

الوجه الثالث : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ما هو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة ، وإن زادت فى القدر والكمية على عبودية التوبة ، فإن الذل والانكسار روح العبودية ومخها ولبها ، يوضحها :

الوجه الرابع : أن حصول مراتب الذل والانكسار للتائب أكمل منها لغيره ، فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذل الفقر ، والعبودية ، والمحبة ، وامتاز عنه بانكسار قلبه بالمعصية ، والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذله ، وانكسار قلبه ، كما فى الأثر الإسرائيلى « يا رب أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، لأنه مقام ذل وانكسار بين يدى ربه ·

وتأمل قول النبى ﷺ ، فيما يروى عن ربه عز وجل « أنه يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يا رب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما لوسقيته لوجدت ذلك عندى ، ابن آدم ، مرضتُ فلم تعدنى ، قال : يا رب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أما إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أما لو عدته لوجدتنى عنده » فقال فى عيادة المريض « لوجدتنى عنده » وقال فى الإطعام ، والإسقاء « لوجدت ذلك عندى » ففرق بينهما ، فإن المريض مكسور القلب ولو كان من كان ، فلابد أن يكسره المرض ، فإذا كان مؤمناً قد انكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

وهذا - والله أعلم - هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصائم ، للكسرة التى فى قلب كل واحد منهم ، فإن غربة المسافر وكسرته مما يجده العبد فى نفسه ، وكذلك الصوم ، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ، ويذلها .

والقصد : أن شمعة الجبر والفضل والعطايا ، إنما تنزل فى شمعدان الانكسار ، وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب : يوضحه :

الوجه الخامس : أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة ، من كثير من الطاعات ، وهذا معنى قول بعض السلف « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة ، ويعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نُصْبَ عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى : ذكر ذنبه ، فيحدث له انكساراً ، وتوبة ، واستغفاراً ، وندماً ، فيكون ذلك سبب نجاته ، ويعمل الحسنة ، فلا تزال نصب عينيه ، إن قام ، وإن قعد ، وإن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً ومنة ، فتكون سبب هلاكه ، فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ،

ومعاملات قلبية ، من خوف الله والحياء منـه ، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً ، باكياً نادماً ، مستقبلا ربه ، وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صولة ، وكبراً ، وازدراء بالناس ، ورؤيتهم بعين الاحتقار ، ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله ، وأقرب إلى النجاة والفوز ، من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المانّ بها ، وبحاله على الله عز وجل وعباده ، وإن قال بلسانه خلاف ذلك ، فالله شهيد على ما فى قلبه ، ويكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه ويرفعوه ، ويخضعوا له ، ويجد فى قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك ، ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيه ذلك كامناً (١) .

* * *

٨ - فرح الله بالتائب :

ومن ثمار التوبة : نيل الفرحة الكبرى التى لا تعادلها ولا تدانيها فرحة ، إنها فرحة الرب الأعلى ، رب العالمين ، بتوبة عبده ، ورجوعه إليه بعد شروده عنه ، ووقوعه أسيرا فى يد عدوه وجنوده : إبليس اللعين ، وهو بالتوبة قد فك أسره ، وخرج من سجنه ، وخلص من عدوه ، وعاد إلى رحاب ربه وحبيبه ، الذى غمره بإحسانه ، وأحاطه بنعمه الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية ، المادية والمعنوية .

إنها الفرحة الكبرى التى لا نجد فى تصويرها والتعبير عن مداها أبلغ من حديث رسول الله ﷺ الذى رواه عنه ابن مسعود أنه قال : « لله أفرح بتوبة العبد من رجل نـزل منـزلا ، وبه مهـلكة ، ومعه راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، فوضع رأسه ، فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، فطلبها ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ، قال : أرجع إلى مكانى الذى كنت فيه ، فأنام حتى أموت ، فرجع ، فنام نومة ، ثم رفع رأسه ، إذا راحلته عليها زاده وطعامه وشرابه ! فالله أشد فرحا بتوبة العبد المؤمن ، من هذا براحلته » (٢) .

---

(١) انظر : المدارج : ١ / ٢٩٧ - ٢٩٩ .

(٢) متفق عليه .

ولقد تحدث ابن القيم عن هذا الفرح الإلّهى بتوبة التائب حديثا بليغا فياضا ، بين فيه أن هذا الفرح له شأن لا ينبغى للعبد إهماله والإعراض عنه ، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق بعز جلاله .

قال : اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله ، وشرفه ، وخلقه لنفسه ، وخلق كل شىء له ، وخصه من معرفته ومحبته وقربه وإكرامه بما لم يعطه غيره ، وسخر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظعنه وإقامته ، وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه ، وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأحبار ، وجعلهم معدن أسراره ، ومحل حكمته ، وموضع حبه ، وخلق لهم الجنة والنار ، فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب ، مداره على النوع الإنسانى ، فإنه خلاصة الخلق ، وهو المقصود بالأمر والنهى ، وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات ، وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه أسماء كل شىء ، وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات ، وطرد إبليس عن قربه ، وأبعده عن بابه ، إذْ لم يسجد له مع الساجدين ، واتخذه عدواً له .

والمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق ، وخيرة الله من العالمين ، فإنه خلقه ليتم نعمته عليه ، وليتواتر إحسانه إليه ، وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته ، ولم يخطر على باله ولم يشعر به ، ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة والظاهرة ، والعاجلة والآجلة ، التى لا تنال إلا بمحبته ، ولا تنال محبته إلا بطاعته ، وإيثاره على ما سواه ، فاتخذه محبوباً له ، وأعد له أفضل ما يعده محب غنى قادر جواد لمحبوبه إذا قدم عليه ، وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه ، وأعلمه فى عهده ما يقربه إليه ، ويزيده محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، ويسقطه من عينه .

وللمحبوب عدو ، هو أبغض خلقه إليه ، قد جاهره بالعداوة ، وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليهم ومعبودهم الحق ، واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم ، وكانوا أعداء له مع هذا العدو ، يدعون إلى سخطه ، ويطعنون فى ربوبيته وإلهيته ووحدانيته ، ويسبونه ويكذبونه ، ويفتنون أولياءه ، ويؤذونهم بأنواع الأذى ، ويجدون على إعدامهم من الوجود وإقامة الدولة لهم ، ومحو كل ما يحبه الله ويرضاه ، وتبديله بكل ما يسخطه ويكرهه ، فعرفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم وما لهم ، وحذره موالاتهم والدخول فى زمرتهم والكون معهم .

وأخبره فى عهده : أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبقت رحمته غضبه ، وحلمه عقوبته ، وعفوه مؤاخذته ، وأنه قد أفاض على خلقه النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة ، وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر ، وأن الفضل كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله له ، وأحبُّ ما إليه : أن يجود على عباده ويوسعهم فضلا ، ويغمرهم إحساناً وجوداً ، ويتم عليهم نعمته ، ويضاعف لديهم منته ، ويتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه ، ويتحبب إليهم بنعمه وآلائه .

فهو الجواد لذاته ، وجود كل جواد خلقه الله ، ويخلقه أبداً : أقل من ذرة بالقياس إلى جوده ، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو ، وجود كل جواد فمن جوده ، ومحبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال : فوق ما يخطر ببال الخلق ، أو يدور فى أوهامهم ، وفرحه بعطائه وجوده وإفضاله أشد من فرح الآخذ ما يعطاه ويأخذه ، أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً ، فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطى ؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه ، ولله المثل الأعلى .

فإذا تعرض عبده ومحبوبه الذى خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضله على غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه ، وأرسل إليه رسوله ، واعتنى

بأمره ولم يهمله ، ولم يتركه سدى ، فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبق منه ، ووالى عدوه وظاهره عليه ، وتحيز إليه ، وقطع طريق نعمه وإحسانه إليه التي هي أحب شيء إليه ، وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام : فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف بما هو موصوف به من الجود والإحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه ، وأن يصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه ، وانتقامه وعقوبته فى موضع كرمه وبره وعطائه ، فاستدعى بمعصيته من أفعاله ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ما هو من لوازم ذاته من الجود والإحسان .

فبينما هو حبيبه المقرب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقاً شارداً ، راداً لكرامته ، مائلا عنه إلى عدوه ، مع شدة حاجته إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين .

فبينما ذلك الحبيب مع العدو فى طاعته وخدمته ، ناسياً لسيده ، منهمكا فى موافقة عدوه ، قد استدعى من سيده خلاف ما هو أهله : إذا عرضت له فكرة ، فتذكر بر سيده وعطفه وجوده وكرمه ، وعلم أنه لابد له منه ، وأن مصيره إليه ، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدم به عليه على أسوأ الأحوال . ففر إلى سيده من بلد عدوه ، وجَدَّ فى الهرب إليه حتى وصل إلى بابه ، فوضع خده على عتبة بابه ، وتوسد ثرى أعتابه ، متذللا متضرعاً ، خاشعاً باكياً آسفاً ، يتملق سيده ويسترحمه ، ويستعطفه ويعتذر إليه ، قد ألقى بيده إليه ، واستسلم له وأعطاه قياده ، وألقى إليه زمامه ، فعلم سيده ما فى قلبه ، فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه ، ومكان الشدة عليه رحمة به ، وأبدله بالعقوبة عفواً ، وبالمنع عطاء ، وبالمؤاخذة حلماً ، فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ما هو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا ؛ فكيف يكون فرح سيده به ؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً ، وراجع ما يحبه سيده منه برضاه ، وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التى هى أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ؟ .

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلّهى بالإحسان والجود والبر .

وأما إن لاحظت تعلقه بإلٓهيته وكونه معبوداً : فذاك مشهدٌ أجل من هذا وأعظم منه ، وإنما يشهده خواص المحبين ·

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته ، وهذا هو الحق الذى خُلقت به السموات والأرض ، وهو غاية الخلق والأمر ، ونفيه - كما يقول أعداؤه - هو الباطلُ ، والعبث الذى نزه الله نفسه عنه ، وهو السُّدَى الذى نَزَّهَ نفسه عنه : أن يترك الإنسان عليه ، وهو سبحانه يحب أن يُعْبَدَ ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له ، وطاعتهم له ، ودعاؤهم له ·

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلا وسدى ، وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين ، والإلٓه الحق ، فإذا خرج العبد عما خلق له من الطاعة والعبودية ، فقد خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة ، وصار كأنه خلق عبثاً لغير شىء ، إذا لم تخرج أرضه البذر الذى وضع فيها ، بل قلبته شوكا وَدَغَلا ، فإذا رجع إلى ما خلق له وأُوجد لأجله : فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره ، ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها ، وخرج عن معنى العبث والسدَى والباطل ، فاشتدت محبة الرب له ، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم ما يُقَدَّر من الفرح ، ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى ﷺ لذكره ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغه فى سفره ، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده ، وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشىء وغاب عنه ، ثم وجده وصار طوع يده ، فلا فرحة أعظم من فرحته به ·

فما الظن بمحبوب لك تحبه حبًّا شديداً ، أسره عدوك ، وحال بينك وبينه ، وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، ويُعَرِّضه لأنواع الهلاك ، وأنت أولى به منه ، وهو غَرْسُك وتربيتك ، ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافاك على غير ميعاد ·

فلم يفجأك إلا وهو على بابك ، يتملقك ويترضاك ويستعينك ، ويمرغ خديه على تراب أعتابك ، فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقربك ، وآثرته على سواه ؟ .

هذا ، ولست الذى أوجدته وخلقته ، وأسبغت عليه نعمك ، واللهِ عز وجل هو الذى أوجد عبده ، وخلقه وكـوّنه ، وأسبغ عليه نعمه ، وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهراً لنعمه ، قابلا لها ، شاكراً لها ، محباً لِوَلِيِّها ، مطيعًا له ، عابدًا له ، معادياً لعدوه ، مبغضاً له عاصياً له ، والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أن يوالى الله مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده ، فتنضاف محبتـه لعبادته وطاعـته والإنابة إليه ، إلى محبته لعداوة عدوه ، ومعصيته ، ومخالفته ، فتشتـد المحبة منه سـبحانه ، مع حصول محبوبه ، وهذا هو حقيقة الفرح [1] .

* * *

(١) مدارج السالكين : ١ / ٢٦٤ - ٢٦٦ .

الموانع من التوبة

- الاستهانة بالذنوب .
- طول الأمل .
- الاتكال على أمانى العفو الإلّهى .
- استحكام الذنوب واليأس من المغفرة .
- الجهل بحقيقة المعصية .
- الاحتجاج بالقدر .

الموانع من التوبة

التوبة فريضة على جميع المؤمنين ، كما جاء فى القرآن ، وحاجة كل إنسان إليها حاجة أساسية لا يستغنى عنها ، كما لا يستغنى عن الطعام والشراب ، والإعراض عن التوبة خطر على الإنسان ، قد يودى به ، ويوقعه فى مهاوى الردى ، فهو خطر على قلبه ، على إيمانه ، على حسن صلته بربه ،على حياته الروحية كلها .

ولكن ما الذى يمنع الإنسان من التوبة ، ويؤخره عنها ، وفيها نجاته وسعادته ؟

لا يخفى أن هناك عقبات وموانع تحـول بين الإنسان وبين توبته إلى الله تعالى ، ينبغى أن نسلط عليها بعض الأشعة الكاشفة، حتى نحاول التغلب عليها ، فليس هناك شىء مستحيل، وخصوصا مع المحاولة وبذل الجهد وصدق العزم وصحة التوجه .

وجل هـذه الموانـع - إن لم يكـن كلها - موانع نفسية ، تنبع من داخل الإنسان ، وتؤثر فى توجهه وسلوكه .

١ - الاستهانة بالذنوب :

من أوائل هذه الموانع : الاستهانة بالذنوب ، واعتبارها أمرًا هينا ، لا يزعج ولا يقلق ولا يخيف . وهذا ولا شـك من أثر الجهل بمقام الله جل جلاله ، خالق الخلق ، ومالك الملك، ذى الجـلال والإكرام ، الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه أفضل تكريم ، وسخر له ما فى السموات ، وما فى الأرض ، جميعا معه ، وأسبغ عليه نعمـه ظاهـرة وباطنة، الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، والذى يفعل فى ملكه ما يشاء ، العزيز الجبار ، الواحد القهار .

هذا الإلّه العظيم لا يجوز أن يستهان بمعصيـــته ، حتى يقـــول : ليت كل ذنب فعلته مثل هذا ! بل ينبغى أن يستعظم كل ما يصدر عنه من معصية فى حق الله عز وجل .

وفى الحديث الذى رواه البخارى عن ابن مسعود : « المؤمن يرى ذنبه كالجبل يخاف أن يقع عليه ، والمنافق يرى ذنبه كذباب وقع على أنفه فقال به هكذا وهكذا » .

ومرض بعض الصالحين من السلف ، فعاده بعض أصحابه فوجدوه يبكي بمرارة وحرقة ، فعجبوا لذلك ، وسألوه : ما هذا البكاء ، ولم نرك فى حياتك قد اقترفت كبيرة ، أو قصرت فى فريضة ، أو ضيعت حقا ؟ فكان جوابه : والله ما أبكى على فريضة تركتها ، ولا حرمة انتهكتها ، ولا حق ضيعته ، ولكن أبكى ، لأنى أخشى أن أكون قد أتيت ذنبا أحسبه هينًا وهو عند الله عظيم ! .

وهو يشير إلى ما ذكره القرآن فى قصة أم المؤمنين عائشة ، وكيف لاكت بعض ألسنة المسلمين حديث الإفك عنها ، الذى أشاعه المنافقون ، فتلقفوه بسذاجة وغباء ، ونقله بعضهم عن بعض باستهتار ، وبلا تهيب فجاء القرآن يعقب ويقول : ﴿ وَلَوْلاَ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (١)﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ (٢) .

وقد ذكرت عائشة مرة إحدى ضرائرها ، فأشارت إلى أنها قصيرة القامة ! فقال رسول الله ﷺ : «يا عائشة، لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » (٣) .

ولقد حذرنا رسول الله ﷺ من (محقرات الذنوب) فقال : « إياكم ومحقَّرات الذنوب ، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا واد ، فجاء ذا بعود ، وجاء ذا بعود ، حتى حملوا ما أنضجوا به خبزهم ، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه » (٤) .

---

(١) النور : ١٦ . (٢) النور : ١٥ .

(٣) رواه أبو داود والترمذى عن عائشة . صحيح الجامع الصغير (٥١٤٠)

(٤) قال الهيثمى فى (مجمع الزوائد) : رواه أحمد عن سهل بن سعد ورجاله رجال الصحيح ، ورواه الطبرانى فى الثلاثة من طريقين ، ورجال أحدهما رجال الصحيح ، غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة (١٠ : ١٩٠) .

٢ - طول الأمل :

ومن موانع التوبة ومؤخراتها : طول الأمل فى الحياة ، بمعنى أن يعتبر الإنسان أن الحياة معه لا تزال ممتدة ، وأن الموت لا يزال بعيدا ، وأن فى العمر متسعا لمزيد من اللهو والغفلة ،واتباع الهوى ، والسير فى ركاب الشيطان .

إن آفة الإنسان : أنه لا يزال يمنى نفسه بطول العيش ، ويزيح شبح الموت كلما تراءى أمام عينيه ، فابن العشرين يقول : أتوب فى الأربعين ، وابن الأربعين يقول : أتوب فى الستين ، وابن الستين ، يقول : أتوب فى السبعين ، أو هكذا يظل الإنسان يستبعد الموت وهو أقرب ما يكون إليه ، ويسوف التوبة ، وهو أحوج ما يكون إليها .

المشكلة أن الموت لا يستأذن قبل مجيئه ، ويأتى بغتة ، وكثيراً ما يأتى غير متوقع ، فيختطف الصغير قبل الكبير ، والشاب قبل الشيخ ، والابن قبل أبيه ، والبنت قبل أمها .

وأخطر ألوان الموت هو موت الفجأة ، الذى يهجم على المرء دون أن يستعد له ، أو يهيىء الزاد لسفره ، ولهذا استعاذ النبى ﷺ من شره .

وهذا ما خَوَّفَ منه الصالحون من قديم ، وقال قائلهم:

تزود للذى لا بد منه ... فإن الموت ميقات العباد !

أترضى أن تكون رفيق قوم ... لهم زاد وأنت بغير زاد ؟

وفى عصرنا كثرت أسباب الموت المفاجىء ، مما لم يكن مثله فى العصور الماضية ، رغم تقدم الطب والتفوق فى العلاج .

فطالما سمعت الناس يموتون فجأة : بالسكتة القلبية ، أو الذبحة الصدرية ، أو الجلطة المخية ، أو غير ذلك مما نعرفه وما لا نعرفه .

كما أن الموت فى الحوادث أصبح كثيرا جداً ، فهذا يموت فى حادث سيارة ، وآخر فى باخرة ، وثالث فى قطار ، ورابع فى طائرة ، وهذا ثمن الحضارة .

لا معنى إذن لأن يستبعد الإنسان الموت ، وهو يرى صرعاه فى كل حين ، ولو

نظر فيما حوله ومن حوله ، وفكر وتأمل : كم شيع من قريب ، وكم ودَّع من حبيب ، وكم دفن من رفيق ، وكم عزى فى صديق ، لو تذكر قائمة الأسماء التى واراها التراب ممن يعرفهم ويتصل بهم لهاله طول القائمة واتساعها .

ومن هنا علمنا رسولنا الكريم أن نعيش فى الدنيا بروح الغرباء ، فنحن فى هذه الدار ضيوف راحلون حتما ، غدا أو بعد غد ، فهى دار ممر لا دار مقر ، يقول عليه الصلاة والسلام : « كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل ، وعد نفسك من أهل القبور » وكان ابن عمر يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من صحتك لسقمك ، ومن حياتك لموتك » (١) .

ومن رجزهم الذى كانوا يتناشدونه فى عهد الصحابة :

كل امرىء مصبح فى أهله   والموت أدنى من شراك نعله !

ومن أشعار من بعدهم من الصالحين :

تزود مـن التقـوى فإنك لا تدرى   إذا جن ليل : هل تعيش إلى الفجر ؟
فكم من سليـم مات من غير علة   وكم من سقيم عاش حينا من الدهر !
وكم من فتى يمسـى ويصبح لاهيا   وقد نسجـت أكفانه ، وهولا يدرى !

٣ - الاتكال على أمانى العفو الإلهى :

ومن الموانع التى تؤخر التوبة : الاتكال على عفو الله تعالى وسعة رحمته كما حكى الله تعالى عن اليهود ، أنهم ﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ﴾ (٢) .

وهذا لا شك من الغرور القاتل ، فمن أين يضمن أن الله تعالى سيغفر له ؟ وهل أخذ موثقا أو صكًّا من الله تعالى بذلك ؟ وهو سبحانه يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، ولا معقب لحكمه .

إن فرق ما بين المؤمن والمنافق : أن المؤمن يعمل الصالحات ، ويقول : أخشى ألا تقبل منى ! والمنافق يقترف السيئات ، ويقول : أطمع أن تغفر لى .

---

(١) رواة البخارى .   (٢) الأعراف : ١٦٩ .

صحيح أن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء ، كما أن علمه وسع كل شيء ، وهو ما قاله الملائكة فى دعائهم : ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ﴾ (١). وقال تعالى في خطابه لكليمه موسى عليه السلام : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ (٢).

فجعل العذاب خاصا ، والرحمة عامة ، ولكنه تعالى عقب على ذلك فقال عن هذه الرحمة : ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ . . . ﴾ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ المحْسِنِينَ ﴾ (٤) .

إن الرجاء فى رحمة الله يتطلب عملا يقرب المرء من هذه الرحمة ، مثل الإيمان والهجرة والجهاد ، كما قرأنا ذلك في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ ، وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٥). فلم يقرر لهم الرجاء إلا بعد اجتياز هذه المراحل الصعبة .

وفرق بين الرجاء والأمنية : الرجاء ما قارنه عمل وسعى ، وإلا فهو أمنية فارغة ، كما قال على - كرم الله وجهه - فى وصيته لابنه : وإياك والاتكال على المنى ، فإنها بضائع النوكى : أى الحمقى . ويقول الشاعر :

ولا تكن عبد المنى ، فالمنى　　رؤوس أموال المفاليس !

وقال آخر :

اعلل بالمنى قلبى ، لعلّى　　أروّح بالأمانى الهم عنى !
واعلم أن وصلك لا يرجى　　ولكن لا أقل من التمنى !

ولقد حكى الله لنا هذا اللون من الأمانى عن اليهود والنصارى حيث قال : ﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى ، تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ، قُلْ

(١) غافر : ٧ .　(٢) الأعراف : ١٥٦ .　(٣) الأعراف : ١٥٦ ، ١٥٧ .
(٤) الأعراف : ٥٦ .　(٥) البقرة : ٢١٨ .

هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] هذا ما قـرره القـرآن عن هؤلاء : تلك أمانيهم ، تَمَنٍّ للجنة بلا عمل ، وإنما ينال الجنة من جمع وصفين أساسيين : إسلام الوجه لله والإحسان .

وفى سورة أخرى يقـول تعالى حكـما عـدلا بين أهـل الـكتاب والمسلمين : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ، مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾[2] .

لا تنس يا أخى المسلم أن الله تعالى لم يسامح نبيه آدم فى لقمة أكلها من الشجرة بعد أن نهاه عنها ، وهو الذى خلقه بيديه ، ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته ! ولا تنسى أنه جل جلاله لم يسامح نوحا عليه السلام فى كلمة قالها يشفع بها لابنه الكافر : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ، إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾[3] فانظر إلى هذا الرد الشديد على شيخ المرسلين » حتى لا تطمع فى غير مطمع ، وتأمل قول الشاعر :

يا ناظـــرا يـــرنو بعَيْنَىْ راقـد   ومشاهدا للأمر غيـــر مشاهد !
تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى   نيل الجنان ، ودرك فـــوز العابـد
أنسيـــت أن الله أخـــرج آدما   منها إلى الدنيا بذنـب واحــد ؟!

فلا مجال - إذن - لأولئك المسرفين على أنفسهم ، المفرطين فى جنب ربهم وبارئهم ، المقصرين فى حقوق غيرهم ، أن يؤجلوا التوبة قائلين : إن الله غفور رحيم ، فإن هذا جهل بمقام الله تعالى ، ونظرة إلى جانب من كمالاته عز وجل ،

(١) البقرة : ١١١ ، ١١٢ . (٢) النساء : ١٢٣ ، ١٢٤ . (٣) هود : ٤٥ ، ٤٦ .

دون استيعاب الجوانب الأخرى ، فقد قال تبارك وتعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾(١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ (٢) .

وهذا يعتبر من العجز والحماقة ، وليس من الفطنة والكياسة كما فى الحديث النبوى الذى رواه الترمذى : « الكيس : من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز : من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأمانى » (٣) .

وقد أنكر صالحو الأمة على من فرط فى حق ربه ، ثم اتكل على عفوه ومغفرته ، وقال شاعرهم فى ذلك :

ما بال قلبك ترض أن تدنسه　　وثوبك - الدهرَ - مغسول من الدنس ؟

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها　　إن السفينة لا تجرى على اليبس !

إن الرجاء فى عفو الله ومغفرته سبحانه مطلوب من كل مسلم ، وإن كثرت معاصيه وعظمت خطاياه ، فهو من ضرورات السير إلى الله تعالى ، ولكن لا ينبغى أن يرجو الإنسان ثمرة ، دون أن يبذر بذرة ، أو يغرس شجرة ، ويتولى سقايتها ورعايتها .. فإن المبالغة فى الرجاء بغير عمل يقدم ، أو جهد يبذل ، يجعله نوعا من الأمن من مكر الله تعالى ، وهو باب الخسران ، يقول عز وجل : ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ ، فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (٤) .

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ .　(٢) الرعد : ٦ .

(٣) رواه ابن ماجه عن شداد بن أوس وفى إسناده بقية بن الوليد ، وهو مدلس وقد صرح بالتحديث (٤٢٦٠) والحاكم وصححه ووافقه الذهبى (٤ / ٢٥١) كما رواه الترمذى بسند آخر وحسنه ، وفى سنده أبو بكر بن أبى مريم ، وكان قد اختلط بعد أن سرق بيته .

(٤) الأعراف : ٩٩ .

٤ - استحكام الذنوب واليأس من المغفرة :

ومن موانع التوبة لدى بعض الناس : أن يعيش بعيداً عن ساحة الله ، وأن يغوص فى أوحال الذنوب صغائرها وكبائرها ، مرتكبا للمحظورات ، تاركا للمأمورات ، مضيعا للحقوق ، ما كان فيها من حقوق الله ، وما كان منها من حقوق العباد ، لقد كان من الذين أضاعوا الصلوات ، واتبعوا الشهوات ، لم تعرف عينه الدموع ، ولا قلبه الخشوع ، ولا ظهره الركوع ، ولا جبهته السجود ، لم يكن المسجد له دارا ،ولا المصحف له أنيسا ، ولا النبى له أسوة ، ولا الصحابة له قدوة .

وفجأة صحا من سكرته ، وتنبه من غفوته ، فوجد البون بينه وبين أهل الخير والصلاح شاسعاً ، وأين الثرى من الثريا ، إن ذنوبه - وما أكثرها - تثقل ظهره ، وتغل قدمه ، فلا يستطيع أن يتحرك إلى الإمام ، وهل يقبله الله بعد هذه الحياة المظلمة بالمعاصى ، التى لم يكن يرى فيها شعاعا من نور ، وهل يفتح له الباب بعد طول الشرود إلى أبواب أخر غير باب الله ؟

إنه هالك لا محالة ، قد كتبت عليه الشقوة والضياع ، فلا أمل فى عودته ، ولا رجاء فى قبوله ، ولا طمع فى العفو عنه ، فليستمر فى غلوائه ، وليمض فى طريقة الأعوج ، طريق الشيطان ، طريق النهار الأسود والليل الأحمر .

هكذا يفكر بعض العصاة ، يستعظمون ذنوبهم ويقنطون من غفرانها ، ويغلقون الأبواب أمام أنفسهم ، ناسين أن مغفرة الله تعالى أوسع من ذنوبهم وإن كثرت ، وأن رحمته لا تضيق يوما بخطاياهم ، وإن تفاقمت ، فقد قال تعالى لرسوله : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِىَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ (١).

وانظر إلى هذه الإضافة العذبة الرقيقة ما ألطفها وما أنداها « يا عبادى» فرغم عصيانهم له تعالى وإسرافهم على أنفسهم ؛ لم يحرمهم شرف الانتساب إليه ،

(١) الزمر : ٥٣ .

والعبودية له جل شأنه ، وهو ينهى هؤلاء المسرفين عن القنوط من رحمة الله ، مؤكدا أنه جل ثناؤه يغفر الذنوب جميعا بهذا الإطلاق ، وهذا التعميم ، حتى الشرك ، لأن المقصود أنه يغفرها بالتوبة ، وفرق بين هذه الآية والآية الأخرى في سورة النساء : ﴿ إِنَّ اللهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (١) : فهذه في غير التائبين ، فكل ذنب قابل للغفران ولو بغير التوبة ، ما عدا الشرك .

إن الخوف من الله تعالى مطلوب ، وهو - مثل الرجاء - زاد ضروري في السفر إلى الله ، والوصول إلى رضوانه ، ولكن المبالغة في الخوف قد تنتهي بالإنسان إلى اليأس من روح الله ، والقنوط من رحمة الله ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (٢) ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّالُّونَ ﴾ (٣) .

ولذا قال علي ﷺ : ألا أنبئكم بالفقيه ؟ كل الفقيه ؟ من لم يؤيس عباد الله من روح الله ، ولم يؤمنهم من مكره .

وهذا هو التوازن المنشود : أن يرجو المسلم ربه رجاء لا ينتهي به إلى الأمن من مكر الله ، وأن يخافه خوفا لا ينتهي به إلى اليأس من روح الله تعالى .

وقد وصف الله بعض عباده بأنهم: ﴿ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ﴾ (٤) ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (٥) .

فلا ينبغي للمذنب أن يقنط من رحمة ربه وإن كثرت ذنوبه وعظمت .

وفي الحديث القدسي : « يا ابن آدم : إنك ما دعوتني ورجوتني ، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أُبالي » (٦) يعني : على كثرة ذنوبك وخطاياك ، ولا

---

(١) النساء : ٤٨ . (٢) يوسف : ٨٧ . (٣) الحجر : ٥٦ .
(٤) الإسراء : ٥٧ . (٥) الزمر : ٩ .
(٦) رواه الترمذي (٣٥٤٠) عن أنس وقال : حديث حسن غريب .

يتعاظمنى ذلك ، ولا أستكثره . وفى « الصحيح » عن النبى ﷺ ، قال : « إذا دعا أحدُكم فليُعظِم الرَّغبَةَ ، فإنَّ الله لا يتعاظمه شىء » [1] .

فذنوب العباد وإن عظمت ، فإنَّ عفو الله ومغفرته أعظم منها وأعظم ، فهى صغيرة فى جنب عفو الله ومغفرته .

وفى« مستدرك الحاكم » [2] عن جابر أن رجلاً جاء إلى النبى ﷺ يقول : واذنوباه ! واذنوباه ! مرتين أو ثلاثاً ، فقال له النبى ﷺ : « قل : اللهم مغفرتك أوسع من ذنوبى ، رحمتك أرجى عندى من عملى » ، فقالها ، ثم قال له : « عُد » ، فعاد ، ثم قال له : « عد » ، فعاد ، فقال له : « قم ، فقد غفر الله لك » ، وفى هذا يقول بعضهم :

يا كَبير الذَّنب عفوٌ الـــ ـــله مِن ذنبــك أكبرُ
أعظَمُ الأشياء فى جــا نب عـــفوِ الله يَصغُرُ

وقال [3] :

يا ربِّ إن عَظُمَت ذُنوبى كَثرةً فلقَد علِمتُ بأنَّ عَفوكَ أعظَمُ !
إن كان لا يرجوك إلا مُحسنٌ فمَن الذى يَرجو ويدعُو المُجرِمُ ؟
مالى إليك وسيلةٌ إلاَّ الرجا وجَميلُ عفوك ثم أنِّى مُسلِمُ !

قال الفضيل بن عياض رحمه الله : ما من ليلة اختلط ظلامها ، وأرخى الليل سربال سترها ، إلا نادى الجليل جل جلاله : من أعظم منى جوداً ؟ والخلائق لى عاصون ، وأنا لهم مراقب ، أكلؤهم فى مضاجعهم ، كأنهم لم يعصونى ، وأتولى

---

(١) رواه من حديث أبى هريرة أحمد ٢ / ٤٥٧ ، والبخارى فى « الأدب المفرد » (٦٠٧) ، ومسلم (٢٦٧٩) ، ابن حبان (٨٩٦) .

(٢) ١ / ٥٤٣ - ٥٤٤ ، وقال الحاكم : حديث رواته عن آخرهم مدنيون ممن لا يعرف واحد منهم بجرح ، ولم يخرجاه ، ووافقه الذهبى .

(٣) هذه الأبيات وما قبلها لأبى نواس ، وهى فى « ديوانه » ص ٦١٨ ، ٦٢٠ .

حفظهم ، كأنهم لم يذنبوا فيما بيني وبينهم ، أجود بالفضل على العاصي ، وأتفضل على المسيء ، من ذا الذي دعاني فلم ألبّه ؟ ، أم من ذا الذي سألني فلم أعطه ؟ أم من الذي أناخ ببابي فنحّيته ؟ أنا الفضل ، ومني الفضل ، أنا الجواد ، ومني الجود ، أنا الكريمُ ، ومني الكرمُ ، ومن كرمي أن أغفر للعاصين بعد المعاصي ، ومن كرمي أن أعطي العبد ما سألني ، وأعطيه ما لم يسألني ، ومن كرمي أن أُعطي التائب كأنه لم يعصني ، فأين عني يهرب الخلائق ؟ وأين عن بابي يتنحى العاصون ؟ خرجه أبو نعيم [1] .

ولبعضهم في المعنى :

أسأتُ ولم أُحْسِنْ وجئتُكَ تائباً ... وأنَّى لعَبْدٍ عن مواليه مَهْرَبُ ؟
يُؤَمِّلُ غُفْرَاناً فإنْ خَابَ ظَنُّه ... فما أَحَدٌ منه على الأرض أخيبُ !

٥ - **الجهل بحقيقة المعصية :**

ومن موانع التوبة : أن يكون المكلف على معصية من معاصي الله ، وهو لا يشعر بها ، ولا يعلم أنه علي معصية ، لعلها من أعظم المعاصي ضررًا ، وأشدها خطرا . ولهذا صورًا أذكر اثنتين منها :

الأولى : أن يكون المرء معجبا ببعض الطاعات الظاهرة التي يؤديها ببدنه ، من صلاة وصيام ، وذكر وتسبيح وتلاوة ، وصدقة وتعليم ، فتعظم رؤيته لها ، والتفاته إليها ، وإعجابه بها ، برغم ما قد يشوبها من آفات خفية فهذا (العُجب) من المهلكات التي تحجب السالك إلى الله عن معرفة عيوب نفسه ، وتعمى عين قلبه عن رؤية حقيقة أعماله ، وخفايا سيئاته وخطاياه .

فربما كان غارقا أوغريقا في معاصٍ هي أشد خطرا من الزني وشرب الخمر ، وهو لا يدري : معاصي القلوب التي تردي الكثيرين في مهاوي الردى وهم لا يشعرون ، فربما كان هذا المرء حسودا أو حقودا أو مستكبراً أو مغرورا ، أو شحيحًا أو مرائيا ، أو محبا للدنيا ، أو للمال والجاه ، أو غير ذلك من الذنوب الهائلة التي

(١) في « الحلية » ٨ / ٩٢ - ٩٣ .

تأكل الحسنات ، وتلتهم الطاعات كما تلتهم النار الحطب ، والتى تحول بين صاحبها والجنة ، كما فى الحديث الصحيح : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[1] « إياكم والشح ، فإنه أهلك من كان قبلكم »[2] ، « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع وإعجاب المرء برأيه »[3] ، « دب إليكم داء الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء ، والبغضاء هى الحالقة ، لا أقول : تحلق الشعر ، ولكن تحلق الدين »[4] .

والثانية : أن يقيم على بدعة من البدع المضلة التى أبطلها الله ورسوله ، وهو يحسب - كسائر المبتدعين - أنه يتقرب بها إلى الله تعالى ، سواء كانت بدعة عملية كالبدع فى العبادات ، شأن الذين يشرعون فى الدين ما لم يأذن به الله ، ويتقربون إلى الله تعالى بما لم يشرعه لعباده ، جاهلين ، أو متجاهلين : الأصلين الكبيرين :

الأول : ألا يعبد إلا الله تبارك وتعالى .

والثانى : ألا يعبد إلا بما شرع لا بالأهواء والبدع ،وفى الحديث المتفق عليه : « من أحدث فى أمرنا ما ليس منه فهو رد » .

أم كانت بدعة قولية ، من بدع الأفكار والآراء التى أحدثتها فرق شتى ، لم تجعل الكتاب والسنة أصلها الذى تستند إليه ، ومصدرها الذى تعول عليه ، لتحاكم آراءها وأقوالها وأقوال شيوخها ومعظميها إليهما كما قال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[5] ، بل جعلت آراءها وآراء من تعظمهم - وربما كانوا من خارج الإسلام - هى الأصل والمرجع والمعتمد ، فما وافقها فهو مقبول ، وما عارضها فهو مرفوض .

هذا الصنف من الناس محجوب عن رؤية بدعته ومخالفتها لأمر ربه ،

---

(١) رواه مسلم عن ابن مسعود : صحيح الجامع الصغير (٧٦٧٤) .

(٢) رواه مسلم عن جابر : المصدر السابق (١٠٢) .

(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط عن ابن عمر ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٣٠٤٥) .

(٤) رواه أحمد والترمذى عن الزبير : المصدر السابق (٣٣٦١) .

(٥) النساء : ٥٩ .

وحقيقة دينه ، فهو ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا ﴾ (١) ، وقال : ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ (٢) .

وهكذا كان الخوارج قديما ، يستحلون دماء المسلمين خارج فرقتهم ، ويستبيحون أموالهم ، ويعدّون ذلك قربة إلى الله تعالى : وقد صح الحديث فيهم : « يحقر أحدكم صلاته إلى صلاتهم ، وصيامه إلى صيامهم ، وقراءته إلى قراءتهم » ومع هذا وصفهم بأنهم « يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرميّة » فآفتهم أنهم لم يتعمقوا فى فقه القرآن ومقاصده ، وأنهم فهموه فهما سطحيا ، وقرؤوه دون أن يتعمقوا فيه ، فسقطوا فى هذه الكبائر الموبقات وهؤلاء لهم خلف فى عصرنا يتعبدون بقتل المسلمين الابرياء ، من المدنيين العزل ، حتى النساء والأطفال والشيوخ بأبشع وسائل القتل والذبح، ويباهون بذلك ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهذا الخطر مما نبه عليه سلف الأمة : أن صاحب البدعة لا يتوب منها ، إذ كيف يتوب من أمر يعتقده قربة وطاعة ؟ .

٦ - الاحتجاج بالقدر :

ومن موانع التوبة : الاحتجاج الجاهل بالقدر ، فمن الذين سقطوا فى شرك المعاصى ، وغرتهم الأمانى وغرهم بالله الغرور ، من إذا دعوته إلى التحرر من أغلال المعصية ، والبراء من أهلها ، والدخول فى عالم الطاعة والمطيعين لله ، يقول لك : هذا قدرى ، كتبه الله على وقدره فى الأزل ، والمكتوب لا مهرب منه ، وعلى الإنسان أن يرضى بقدره ويستسلم لقضائه ، فالقدر لا شك أقوى منا ، ونحن أضعف من أن نقاومه .

وهذا كلام مدخول ، خال من الفقه بدين الله ، والفقه بسنن الله ، وهو يدور فى فلك الفكرة التى قالها المشركون قديما محتجين على شركهم وتحريمهم ما أحل

---

(١) فاطر : ٨ (٢) الكهف : ١٠٤ .

الله : ﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ﴾ (1). فهم يدعون أن شركهم وتحريمهم واقع بمشيئة الله تعالى .

ورد عليهم القرآن بقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ، قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ، إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ (2) .

قد يقبل الاحتجاج بالقدر فيما مضى من العمل ، وإن كان الواجب ألا يفعل ذلك ، أعنى : ألا يقول : قضى الله على أن أعصيه - بل يقول ما قاله أبواه ، آدم وحواء : « ربنا ظلمنا أنفسنا » . . . وما قاله كليم الله موسى : « رب إنى ظلمت نفسى فاغفر لي » وما قال ذو النون فى بطن الحوت : ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (3) .

وفيما ترويه كتب الرقائق : أن رجلا وقع فى معصية ، فقام يناجى ربه قائلا : إلهى ، أنت قضيت ، أنت قدرت ، أنت حكمت ، فسمع صوتا يقول له : هذا حق الربوبية ، فأين أدب العبودية ؟ فقال : إلهى ، أنا عصيت ، أنا أسرفت ، أنا ظلمت . . فسمع كأن الله يقول له : وأنا غفرت ، وأنا عفوت ، وأنا رحمت .

أقول : لو جاز قبول الاحتجاج بالقدر على سوء العمل ، لكان ذلك بالنسبة للماضى ، أما بالنسبة للمستقبل ، فلا يقبل بحال ، لأن المكلف لا يعرف ماذا قدر له فيه ، ويجب عليه أن يدفع القدر بالقدر ، يدفع قدر الذنوب بقدر التوبة والاستغفار ، كما هو شأن المؤمن القوى ، والمؤمن الصادق البصير بدينه يعلم أن وظيفته ، كما قال الإمام ابن القيم : مصادمة أمواج القدر ، ومعارضتها بعضها ببعض ، وإلا هلك ، فيرد القدر بالقدر ، وهذا سير أرباب العزائم من العارفين ، وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلانى « الناس إذا وصلوا إلى

---

(1) الأنعام : ١٤٨ . (2) الأنعام : ١٤٨ . (3) الأنبياء : ٨٧ .

القضاء والقدر أمسكوا ، إلا أنا ، فانفتحت لى فيه رَوْزَنَة ، فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر ، لا من يكون مستلماً مع القدر » !! ولا تتم مصالح العباد فى معاشـــهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم ؟ .

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة ، وهى من قدره ، بالحسنة ، وهى من قدره ، وكذلك الجوع من قدره ، وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره ، ولو استسلم العبد لقدر الجوع ، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل ، حتى مات : مات عاصياً ، وكذلك البرد والحر والعطش ، كلها من أقداره ، وأمر بدفعها بأقدار تضادها ، والدافع والمدفوع والدفع من قدره .

وقد أفصح النبى ﷺ عن هذا المعنى كل الإفصاح ، إذا قالوا : « يا رسول الله ، أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقى نسترقى بها ، وتُقًى نتقى بها ، هل ترد من قدر الله شيئاً ؟ قال : هى من قدر الله » (١) .

وفى الحديث الآخر « إن الدعاء والبلاء ليعتلجان بين السماء والأرض » .

وإذا طرق العدوُّ من الكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله ، أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر ، وترك دفعه بقدر مثله ، وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره ؟ .

وكذلك المعصية إذا قُدِّرت عليك ، وفعلتها بالقدر ، فادفع موجبها بالتوبة النصوح ، وهى من القدر (٢) .

* * *

---

(١) رواه الترمذى فى الطب (٢٠٦٦) عن أبى خزامة - أو ابن أبى خزامة عن أبيه ، وقال : هذا حديث حسن . وفى بعض النسخ : حسن صحيح .
(٢) مدارج السالكين (١ / ١٩٩ - ٢٠٠) .

البواعث على التوبة

- معرفة مقام الله تعالى وحقه .
- ذكر الموت والقبر .
- ذكر الآخرة والجنة والنار .
- معرفة آثار المعاصى فى الدنيا والآخرة .
- خاتمة .

البواعث على التوبة

التوبة منزلة عظيمة من منازل الدين ، ومقام رفيع من مقامات المتقين ، وحاجة كل مسلم مكلف إليها - وخصوصا السالك فى طريق الله - حاجة ماسة ، ولهذا كان شأنها شأن كل منازل الدين ، وأخلاق الصالحين لا تخلو من عقبات وموانع تعوق طريقها ، وتحول دون الوصول إليها ، كما أن لها بواعث ودوافع تحفز عليها ، وتحض على التزامها ٠

ونود فى هذا الفصل أن نبحث فى هذه البواعث ، وأن نلقى الضوء عليها ، حتى نحرك الهمم ، ونشحذ العزائم للتوبة إلى الله جل ثناؤه ٠

١ - معرفة مقام الله تعالى وحقه

أول هذه البواعث : أن يعرف الإنسان مقام ربه الأعلى ، الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، وأن يعرف حقه على عباده الذين خلقهم ورزقهم ، وأنعم عليهم بجلائل النعم ودقائقها ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ (١) ٠

وحقه تعالى على عباده : أن يعبدوه فلا يشركوا به شيئا ، وأن يذكروه فلا ينسوه ، ويشكروه فلا يكفروه ، ويطيعوه فلا يعصوه ٠

روى الشيخان عن معاذ بن جبل أنه كان رديفا للنبى ﷺ على حمار ، فقال له : **يا معاذ ، أتدرى ما حق الله على العباد ؟ وما حق العباد على الله ؟ قال : الله ورسوله أعلم ، قال : حق الله على العباد : أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئا ٠ وحق العباد على الله : ألا يعذبهم »** ٠

ومهما يقدم الإنسان من العبادة لله عز وجل ، فلن يوفى حق الله تعالى عليه ، لأن نعم الله عليه : أعظم من عبادته له سبحانه، وإن طال العمر ٠

---

(١) النحل : ٥٣ ٠

يقول رسول الله ﷺ :

« لو أن رجلا يُجَر على وجهه من يوم ولد إلى يوم يموت هرما فى مرضاة الله تعالى ، لحقره يوم القيامة » [(١)] .

والإنسان إذا عرف مقام الله تعالى - وتذكر جلاله وعظمته ، وعلمه به ، وقدرته عليه ، وأنه مطلع على سره وعلانيته ، وأنه لا يخفى عليه خافية ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ وأنه محاسبه على ما قدم ، ومجازيه على ما عمل من خير أو شر ، إذا عرف ذلك وذكره ولم ينسه ، سرعان ما يرجع إلى ربه سبحانه تائبا مستغفرا ، كما قال تعالى فى وصف المتقين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [(٢)] ، فانظر كيف جعل استغفارهم لذنوبهم نتيجة لذكرهم لربهم « ذكروا الله فاستغفروا » والذكر هنا ليس باللسان كما قد يتوهم ، بل هو ما يقابل النسيان كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ [(٣)] أى استحضروا جلال الله تعالى وشهدوا أسماءه الحسنى ، مثل : العليم بذات الصدور ، والرقيب والحسيب، الواحد القهار ، والعزيز الجبار : ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِى الطَّوْلِ ، لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [(٤)] .

ولا يليق بالمسلم إذا غرته نفسه أو غره بالله الغرور ، فسقط فى المعصية : أن يتمادى فيها ، ويصر عليها ولا يسارع بالتوبة منها ، يجرئه على ذلك أن الله تعالى لم يعاجله بالعقوبة ، فإنه - جلّ شأنه - يمهل ولا يهمل ، ويملى للعاصى ، والظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ولا تحسبن الله غافلا عما يفعل العصاة والفجار ، فقد يكون

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى التاريخ والطبرانى عن عتبة بن عبد ، وحسنه فى صحيح الجامع الصغير (٥٢٤٩) .

(٢) آل عمران : ١٣٥ . (٣) الكهف : ٢٤ . (٤) غافر : ٣ .

ذلك عن مكر بهم ، واستدراج لهم ، حتى إنه قد يوسع عليهم فى الرزق ، ويمدهم بالمال والبنين ، ثم يأخذهم فى النهاية أخذ عزيز مقتدر﴿ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) .

يقول ابن عطاء الله فى حكمه :

خف من وجود إحسانه - تعالى - إليك ، ودوام إساءتك معه ، أن يكون ذلك استدراجا لك .

يشير إلى قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِى لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴾ (٢).

والاستدراج : أخذ النعمة من المستدرج شيئاً فشيئا وهو لا يشعر .

وقال سهل بن عبد الله فى معنى الآية : نمدهم بالنعم ، وننسيهم الشكر عليها ، حتى إذا ركنوا للنعمة وحجبوا عن المنعم ، أخذوا .

وقال غيره : كلما أحدثوا معصية ، أحدثنا لهم نعمة ، وأنسيناهم الاستغفار من تلك المعصية ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ ، بَل لاَّ يَشْعُرُونَ ﴾ (٤).

وقال جل شأنه : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا به فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ، وَالْحَمْدُ لله رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٥) .

---

(١) هود : ١٠٢ .

(٢) الأعراف : ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٣) آل عمران : ١٧٨ .

(٤) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .

(٥) الأنعام : ٤٤ ، ٤٥ .

يقول ابن عطاء الله فى حكمه :

إن أردت أن يفتح لك باب الرجاء ، فاشهد ما منَّه (تعالى) إليك ، وإن أردت أن يفتح لك باب الحزن ، فاشهد ما منك إليه !

ويعني بما منه إليك : النعم التى تغمرك من كل جانب ، وقد أسبغها عليك ظاهرة وباطنة ، كما قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ، إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢) .

وهناك نعم أساسية ، وهى : نعمة الخلق والإيجاد ، ونعمة التيسير والإمداد ، ونعمة الحفظ والإبعاد ، أى إبعاد المحن والبلايا عن الإنسان .

وأما ما كان منك إليه سبحانه ، فيعني به : التقصير فى أداء ما أمر ، واقتراف ما عنه زجر ، وعدم الرضا بما قضى وقدر .

وقلما يخلو مكلف من وقوع بعض هذا منه : من التفريط فى المأمور ، أو ارتكاب المحظور ، أو السخط على المقدور .

* * *

---

(١) لقمان : ٢٠ .   (٢) إبراهيم : ٣٤ .

٢ - ذكر الموت والقبر

ومن البواعث على التوبة من الذنوب : أن يتذكر المرء الموت ، الذى هو مصير كل حى ، قصر عمـــره أو طال ، فهو حــوض كل الناس وارده ، وكأس كل حى شاربه .

حتى أحب الخلق إلى الله الأنبياء والرسل ، وخاتمهم ومصطفاهم محمد ، كتب عليهم الموت ، كما كتب على غيرهم ، قال تعالى مخاطبا رسوله محمداً عليه السلام ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ (١) ، وقال له فى موضع آخر : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ ، أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ، وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ، وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

إن الموت أصدق غائب ينتظر ، وهو حقيقة بينة للحس وللعقل لكل الناس ، وهو أحد الواعظَيْن اللذين تركهما النبى ﷺ مــن بعده : الواعظ الناطق ، وهو القرآن ، والواعظ الصامت ، وهو الموت ، وكفى بالموت واعظا لمن كان له قلب يحس ، وعقل يعتبر .

وما أصدق ما قال الشاعر فى ميت عزيز عليه :

وكانت فى حياتك لى عظات ... وأنت اليوم أوعظ منك حيا !

إن الموت يختطف الأب من بنيه ، والابن من أمه وأبيه ، والأخ من أخيه ، ومن فصيلته التى تؤويه ، والحبيب من حبيبه ، والملك من فوق عرشه ، والقائد وهو بين أسلحته وجنوده ، والثرى ومعه ملايينه وبلايينه ، لا يستأذن أحدا قبل أن يأخذه ، كبيرا أو صغيرا ، غنيا أو فقيرا ، مأمورا أو أميرا ،كلهم لسلطانه خاضعون ،

---

(١) الزمر : ٣٠ .   (٢) الأنبياء : ٣٤ ، ٣٥ .

ولدعوته ملبون : ﴿ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (١) ، ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ، لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

ويعمَّر الإنسان ويطول أجله فى الحياة ، ولكنه فى النهاية ميت ، وعند الموت تتضاءل حياته ، وينكمش عمره ، حتى ليتمنى لو يمد له قليلا ، وهيهات هيهات لما يتمنى .

وقد حكوا أن نوحا عليه السلام حين جاءه ملك الموت يتوفاه ، قال له : يا أطول الأنبياء عمرا ، كيف وجدت الدنيا ؟ فقال : وجدتها كدار لها بابان ، دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر ! .

فهذا مقدار الدنيا عنده ، وقد لبث فى قومه - يدعوهم إلى الله - ألف سنة إلا خمسين عاما ، ثم أخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فكم بقى بعد الطوفان ، وكم كان عمره حين بعثه الله إلى قومه ؟ .

وإذا كان آخر العمر موتا فسواء قصيره والطويل !

ومن هنا ذكرنا القرآن بالموت وشموله لكل الخلق ، لا يمتنع منه نبى بنبوته ، ولا أمير بإمارته ، ولا غنى بثروته ، ولا ذو حصن بحصنه ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ المَوْتَ الَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلاَقِيكُمْ ﴾ (٤) .

وقال سبحانه : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلاَلِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (٥) .

ولما جاء الموت رسول الله ﷺ ولحق بربه ، قال بعض الصحابة : لم يمت ،

---

(١) يونس : ٤٩ . (٢) القصص : ٨٨ . (٣) النساء : ٧٨ .
(٤) الجمعة : ٨ . (٥) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

فوقف أبو بكر الصديق يقول : أيها الناس ، من كان يعبد محمدا ، فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت ، ثم تلا : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، أَفَإِين مَاتَ أَوْقُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ (١) .

وقال رسول الله ﷺ : « أكثروا ذكر هاذم اللذات : الموت » (٢) .

وقال ابن عمر : أتيت النبى ﷺ ، عاشر عشرة ، فقال رجل من الأنصار : من أكيس الناس؟ (أى أعقلهم) وأكرم الناس يارسول الله ؟ قال : « أكثرهم ذكرا للموت ، وأشدهم استعدادا له ، أولئك هم الأكياس ، ذهبوا بشرف الدنيا ، وكرامة الآخرة » (٣) .

وشكت امرأة إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها ، فقالت لها : أكثرى ذكر الموت يرق قلبك .

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء ، فيتذاكرون الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكون حتى كأن بين أيديهم جنازة .

وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء : عظنى ، فقال : لست أول خليفة يموت ، قال : زدنى ، قال : ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت ، وقد جاءت نوبتك ! فبكى عمر لذلك .

وكان الربيع بن خثيم قد حفر فى داره قبرا ، وكان ينام فيه كل يوم مرات ، يستديم بذلك ذكر الموت ! وكان يقول : لو فارق ذكر المـــوت قلبى ساعة واحدة لفسد ! .

---

(١) آل عمران : ١٤٤ .

(٢) رواه الترمذى فى الزهد (٢٣٠٨) وقال : حسن غريب ، وفى بعض النسخ : صحيح ، وابن ماجه (٤٢٥٨) كلاهما عن أبى هريرة .

(٣) قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : أخرجه ابن ماجه مختصرا ، وابن أبى الدنيا بكماله بإسناد جيد (الإحياء : ٤ / ٤٥١) ط . دار المعرفة .

وقال مطرف بن عبد الله : إن هذا الموت قد نغص على أهل النعيم نعيمهم ، فاطلبوا نعيما لا موت فيه ! .

فلينظر الإنسان العاقل : كم شيع من الأقارب والأحباب ، وكم دفن من الزملاء والأصحاب ، وليستحضر صور هؤلاء وكيف كانوا فى الحياة آمنين ، ثم فجأهم الموت غير مستعدين ، وليتذكر كيف كان إقبال الواحد منهم على الدنيا ، وحرصه عليها ، ومزاحمته فيها ، ورغبته فى الازدياد من متاعها ، والاستمتاع بملذاتها ، وكيف كان نشاطه وسعيه ، وأمله فى العيش والبقاء ، ونسيانه للموت والآخرة ، وركونه إلى القوة والشباب ، وانخداعه بمواتاة الأسباب ، وميله إلى اللهو واللعب ، وغفلته عما ينتظره من الموت ، حتى جاءه على غير موعد ، فقال : ﴿ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

ومن الحماقة أن يذكر الموتى ويستبعد نفسه أن يكون واحدا منهم فى أى لحظة ، يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فعدّ نفسك كأحدهم !

وقال عمر بن عبد العزيز : ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم : غاديا أو رائحا إلى الله عز وجل قد قضى نحبه ، وانقطع أمله ، تضعونه فى صدع من الأرض ، قد توسد التراب ، وقطع الأسباب ، وخلف الأحباب ، وواجه الحساب ! .

ذكر أحوال الناس عند الاحتضار :

ومما يتصل بذكر الموت : ذكر أحوال الناس إذا حضرهم الموت .

وأول ما يجب أن نذكره فى ذلك : حال رسول الله ﷺ ، فقد أحس بدنو أجله بعلامات شتى ، منها : أن جبريل كان ينزل فى كل رمضان ، فيعرض عليه القرآن مرة - وفى آخر رمضان - عرض عليه القرآن مرتين ، ومنها : نزول قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى

---

(١) المنافقون : ١٠ ، ١١ .

وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾ [1] وهو ما أبكى أبا بكر ﷺ ، إذ ما بعد الكمال إلا النقصان ! ومنها : نزول سورة النصر ، ولذا كان عليه الصلاة والسلام يعلم الناس فى حجة الوداع ، ويقول : خذوا عنى مناسككم لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ! .. وقال لأصحابه يوما : إن عبدا خيره الله بين الدنيا ، وبين ما عنده ، فاختار ما عنده » فبكى أبو بكر ، وقال نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله ! لأنه فهم أنه المراد من هذا الكلام .

قالت عائشة : سمعت النبى ﷺ يقول فى مرضه الذى مات فيه - وأخذ بحة - يقول : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالْصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [2].

وفى رواية : أنه جعل يقول : فى الرفيق الأعلى ، وهو الرفيق المذكور فى الآية السابقة .

وقالت عائشة : أنها سمعت النبى ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت ، وهو مسند إلىّ ظهره يقول : اللهم اغفر لى ، وارحمنى ، وألحقنى بالرفيق الأعلى » .

وقالت عائشة : ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ وذلك ليتضاعف له الأجر .

قالت : وبين يديه ركوة - أو علبة - فيها ماء ، فجعل يدخل يديه فى الماء ، فيمسح بها وجهه ، يقول : لا إله إلا الله ! إن للموت سكرات ، ثم نصب يده فجعل يقول : فى الرفيق الأعلى . وعن أنس قال : لما ثقل النبى ﷺ. جعل يتغشاه ، فقالت فاطمة عليها السلام : واكرب أباه ! فقال لها : « ليس على أبيك كرب بعد اليوم » ! .

وكل هذه فى صحيح البخارى وغيره [3] .

---

(1) المائدة : ٣ .   (2) النساء : ٦٩ .

(3) انظر : البخارى مع الفتح (٨ / ١٢٩ ـ ١٥٠) طـ دار الفكر المصورة عن السلفية .

ولما احتضر أبو بكر رضي الله عنه ، جاءت عائشة إليه فتمثلت بهذا البيت من الشعر :

لعمرك ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما ، وضاق بها الصدر !

فكشف أبو بكر عن وجهه ، وقال : ليس كذا ، ولكن قولى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ، ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ (١) : وقال : انظروا ثوبىّ هذين فاغسلوهما وكفنونى فيهما ، فإن الحى أحوج إلى الجديد من الميت !

ودخلوا عليه ، فقالوا : ألا ندعو لك طبيبا ينظر إليك ؟ فقال : قد نظر إلى طبيبى ، وقال : إنى فعال لما أريد ! .

وحين طُعن عمر رضي الله عنه وعرف الصحابة أنه ميت ، قال ابن عباس : فدخلنا عليه ، وجاء الناس يثنون عليه ، وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى من الله ، قد كان لك صحبة مع رسول الله ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة ! فقال عمر : وددت أن ذلك كان كفافا لا علىّ ولا لى ! .

ولما أصيب عثمان رضي الله عنه من دعاة الفتنة الثائرين عليه ، دعا الله تعالى : اللهم أجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم .. ثلاثا .. وروى أنه حين ضرب ، والدماء تسيل على لحيته ، جعل يقول: ﴿ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٢).

ولما ضرب ابن ملجم عليا رضي الله عنه قال : فزت ورب الكعبة ، ثم أوصى بنيه وصية إسلامية جامعة ، ثم لم ينطق إلا بـ (لا إله إلا الله) حتى قبض . ولما حضر الحسن بن على رضي الله عنهما الوفاة بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: أقدم على سيد لم أره ! .

وعند موت معاوية تمثل بقول الشاعر :

هو الموت لا منجى من الموت ، والذى نحاذر بعد الموت أدهى وأفظع !

اللهم فأقل العثرة ، واعف عن الزلة ، وعُد بحلمك على من لم يرج غيرك ، ولم يثق إلا بك ، فإنك واسع المغفرة ، يا رب أين لذى خطيئة مهرب إلا إليك !

---

(١) سورة ق : ١٩ . (٢) الأنبياء : ٨٧ .

وروى أنه قال : ليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى (موضع بمكة) وإنى لم أل من هذا الأمر شيئا ! .

ولما حضرت الوفاة عبد الملك بن مروان ، قال : أشرفوا بى على الغوطة (فى دمشق) ففعلوا ، فرأى غسالا يلوى ثوبا بيده ، ثم يضرب به المغسلة ، فقال : ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدى يوما بيوم ، ولم أل من أمر الدنيا شيئاً ، فبلغ ذلك أبا حازم - التابعى الجليل - فقال : الحمد لله الذى جعلهم إذا حضرهم الموت ، يتمنون ما نحن فيه ، وإذا حضرنا الموت لم نتمن ما هم فيه ! .

وقيل له فى مرضه الذى مات فيه : كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أجدنى كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ﴾ (١) . ومات .

ولما حضرت عمر بن عبد العزيز الوفاة بكى ، فقيل له : ما يبكيك يا أمير المؤمنين ؟ أبشر ، فقد أحيا الله بك سننا ، وأظهر بك عدلا ، فبكى ثم قال : أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق ، فوالله لو عدلت فيهم لخفت على نفسى ألا تقوم بحجتها بين يدى الله .. فكيف بكثير مما صنعنا ؟! وفاضت عيناه ، فلم يلبث إلا يسيرا حتى مات .

وحكى عن هارون الرشيد : أنه انتقى أكفانه بيده عند الموت ، وكان ينظر إليها ويقول : ﴿ مَا أَغْنَى عَنِّى مَالِيَه * هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ ﴾ (٢) .

وفرش ابنه المأمون رمادا ، واضطجع عليه ، عند موته ، وهو يقول : يا من لا يزول ملكه ، ارحم من قد زال ملكه !

وحين حضر إبراهيم النخعى الوفاة بكى ، فقيل له ما يبكيك ؟ قال : انتظر رسولا يبشرنى بالجنة أو النار .

وعن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت فقيل له : لم تجزع؟ قال : أخشى آية

---

(١) الأنعام : ٩٤ . (٢) الحاقة : ٢٨ ، ٢٩ .

من كتاب الله وهى قوله تعالى : ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (١) فأنا أخشى أن يبدو لى من الله ما لم أحتسب .

وحين حضر الفضيل بن عياض الوفاة ، غشى عليه ثم فتح عينيه وقال : وابعد سفراه ، واقلة زاداه ! .

وعند احتضار عبد الله بن المبارك قال لنصر مولاه : اجعل رأسى على التراب ! فبكى نصر ، فقال له عبد الله : ما يبكيك ؟ قال : ذكرت ما كنت فيه من السعة والنعيم ، وها أنت ذا تموت فقيرا غريبا ! فقال : اسكت ، فإنى سألت الله عز وجل أن يحيينى حياة الأغنياء ، ويميتنى موت الفقراء ! .

وبكى بعضهم عند موته ، فقيل له : ما يبكيك قال : آية فى كتاب الله : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ المتَّقِينَ ﴾ (٢) .

ودخل الحسن البصرى على رجل يجود بنفسه ، فقال : إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره ، وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهد فى أوله .

ودخل المزنى على الشافعى - رحمة الله عليهما - فى مرضه الذى توفى فيه ، فقال له : كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ فقال : أصبحت من الدنيا راحلا ، وللإخوان مفارقا ، ولسوء عملى ملاقيا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله تعالى واردا ، ولا أدرى : أروحى تصير إلى الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزيها ، ثم أنشأ يقول :

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى … جعلت رجائى نحو عفوك سلّما
تعاظمنى ذنبى ، فلما قرنته … بعفوك ربى ، كان عفوك أعظما
فما زلتَ ذا عفو عن الذنب لم تزل … تجود وتعفو منة وتكرما (٣)

* * *

---

(١) الزمر : ٤٧ . (٢) المائدة : ٢٧ .

(٣) روى كل هذه الآثار الغزالى فى (الإحياء) فى كتاب التفكر ، وبين شارحه الزبيدى فى (الاتحاف) من أخرجها .

٣ - ذكر الآخرة والجنة والنار

ومن البواعث على التوبة بعد ذكر الموت : ذكر ما بعد الموت ، من حياة البرزخ والدار الآخرة ، والعظيمتين : الجنة والنار .

فإذا كان ذكر الموت صيقلا لجلاء القلب ، فإن الموت إذا كان أشد ما قبله فهو أهون ما بعده ، فبعد الموت مراحل خطرة ، وعقبات شديدة ، وأهوال كبيرة ، تبدأ بحياة البرزخ ، أو حياة القبر ، فالإنسان الذى كان يعيش فى الدنيا فى سكن آمن ، وظل ظليل ، وعيش رغيد ، وأهل وأصحاب ، سرعان ما ينتقل من سعة الدار إلى ضيق القبر ، ومن أنس الأهل إلى وحشة اللحد ، ومن رفقة الخلان إلى رفقة الديدان .

ذكر القشيرى عن أبى على الدقاق قال : دخلت على الإمام أبى بكر بن فورك عائدا ، فلما رآنى دمعت عيناه ، فقلت له : إن شاء الله تعالى يعافيك ويشفيك ، فقال لى : ترانى أخاف من الموت ، إنما أخاف مما وراء الموت !

وقد جاء عن عثمان بن عفان : أنه كان إذا وقف على قبر ، يبكى حتى تبل دموعه لحيته ، فقيل له : تذكر الجنة والنار ، فلا تبكى ، وتذكر القبر فتبكى ! فقال : إنى سمعت رسول الله ﷺ : « القبر أول منزل من منازل الآخرة ، فإن نجا منه ، فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج منه ، فما بعده أشد » وسمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما رأيت منظرا إلا والقبر أفظع منه » قال هانىء مولى عثمان : وسمعت عثمان ينشد على قبر :

فإن تنج منها تنج من ذى عظيمة وإلا فإنى لا أخالك ناجيا

وأنا لا أعنى بالقبر : ذلك الشق فى الأرض الذى يدفن فيه الإنسان - بعد موته فى وادى الموتى - فهناك شعوب لا تعرف الدفن ، ولا القبور ، مثل أولئك

الذين يحرقون موتاهم ، ثم يحتفظون بترابهم - وهو كل ما بقى منهم - فهذه الحفنات من الرماد الباقى من حرق الجثة ، هى : القبر ، وإن فيها لموعظة وعبرة !

ونحن المسلمين نؤمن إيمانا لا يتطرق إليه ريب : أن هذا الكون - على ما فيه من جمال وإبداع - ستطوى صفحته ، وتتهدم أركانه ، وتتغير معالمه ، ويستحيل كل جمع فيه إلى شتات ، وكل حى إلى ممات : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ ، وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (١) هذه السماء فوقنا ستنفطر ، هذه الكواكب ستنتثر ، وهذه الأرض ستبدل غير الأرض ، وهذه الشمس ستكور ، وهذه النجوم ستنكدر ، وهذه الجبال ستسير ، وهذه البحار ستفجر ، أو تسجر ، وهذه القبور ستبعثر : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ ، وَبَرَزُوا لله الوَاحِد القَّهَارِ ﴾(٢) .

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن الجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لاَ تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلاَ أَمْتًا ﴾ (٣) .

وأن الله تعالى سيبعث هؤلاء الموتى ، ويحييهم فى يوم آت لا ريب فيه : ﴿ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾ (٤) .

فيقول النبى ﷺ فيما روته عائشة ﵂ : « يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا (أى غير مختونين) قالت عائشة : فقلت : الرجال والنساء جميعا ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال : الأمر أشد من أن يهمهم ذلك » (٥) .

وسمعت ذلك أم سلمة ﵂ ، فقالت : يا رسول الله ، واسوأتاه أينظر بعضنا إلى بعض ؟ فقال : شُغل الناس ، قالت : ما شغلهم ؟ قال : نشر الصحائف ، فيها مثاقيل الذر ، ومثاقيل الخردل » قال المنذرى : رواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد صحيح .

---

(١) القصص : ٨٨ .
(٢) إبراهيم : ٤٨ .
(٣) طه : ١٠٥ - ١٠٧ .
(٤) القمر : ٧ .
(٥) متفق عليه .

يشير إلى قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ القِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ، وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾(١).

وقوله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ، وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(٢) .

وقوله تعالى : ﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ فَتَرَى المُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِهَذَا الكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ، وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً ، وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٣) .

من واجب كل مقصر ، بل كل مكلف ، أن يخاف هذا اليوم العظيم : يوم الزلزلة ، ويوم القارعة ، ويوم الحاقة ، ويوم الصاخة ، ويوم الطامة الكبرى ، وأن يقرأ القرآن ، وخصوصا الجزءين الأخيرين منه ، ليرى القيامة أمامه رأى العين ، يرى الجحيم وقد سعرت ، والجنة قد أزلفت ، ويرى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يرى الحقائق قد تكشفت ، والعيون وقد زالت عنها الغشاوات ، قد سقط الملوك الزائفون ، وبقى ملك واحد هو ملك يوم الدين ومالك يوم الدين : ﴿ يَوْمَ هُم بَارِزُونَ ، لاَ يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ ، لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ، للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ ﴾ (٤) .

ما أبلغ ما وصف القرآن ذلك اليوم الموعود ، واليوم المشهود ! لنقرأ معا هذه الآيات :﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى * وَبُرِّزَتِ الجَحِيمُ لِمَن يَرَى * فَأَمَّا مَن طَغَى * وَآثَرَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الجَحِيمَ هِيَ المَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى * فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى ﴾ (٥) .

﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ *

---

(١) الأنبياء : ٤٧ .   (٢) الإسراء : ١٣ ، ١٤ .   (٣) الكهف : ٤٩ .
(٤) غافر : ١٦ .   (٥) النازعات : ٣٤ - ٤١ .

وَصَاحِبَتِه وَبَنِيه * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه * وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَئِكَ هُمُ الكَفَرَةُ الفَجَرَةُ ﴾ (١) .

إن مزية المؤمنين أنهم يخافون هذا اليوم ويتقونه ، ويحسبون حسابه ، ولا غرو أن كان من أواخر ما نزل - أو آخر ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ،ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴾ (٢) .

وقد وصف الله الأبرار من عباده بقوله : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيراً * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ﴾ (٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ *الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ * يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ ﴾ (٤) .

هذا فيمن زاد حفنة فى كيل أو نقصها ، أو زاد دراهم من وزن أو نقصها ، طمعا فى أن يأخذ أكثر من ماله من حق ، فكيف بمن ينهب أموال الناس نهبا ، وما بالك بمن يختلس الأموال العامة بالملايين ؟ ومن يقبل الرشا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ؟ ومن يجمع الثروات الطائلة من عرق الكادحين ، ودموع المستضعفين ، ودماء المظلومين ؟ ومن يتاجر فى السلع الفاسدة ، والأغذية الضارة ، والمخدرات القاتلة ليربح الملايين القذرة على حساب الشعوب والجماهير ؟ ثم يغسل ملايينه - فيما زعموا - بعد ذلك ، وهى من الخبث والنجاسة بحيث لا تطهرها مياه البحار ولا المحيطات .

(١) عبس : ٣٣ - ٤٢ .
(٢) البقرة : ٢٨١ .
(٣) الإنسان : ٨ - ١٠ .
(٤) المطففين : ١ - ٦ .

ما أحوج هؤلاء إلى أن يقفوا يوما مع أنفسهم ، ليتذكروا هذا اليوم العظيم الذين تنصب فيه الموازين ، وتنشر فيه الدواوين ، ويحاسبهم فيه رب العالمين ، ويشهد عليهم فيه شهود من أنفسهم ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾ (١) .

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا، قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٢) .

أحاديث فى الترهيب من النار :

ومما يجب على المكلف - ولا سيما العاصى - أن يذكره : النار ، دارالعذاب التى أعدها الله للكافرين أساسا والعصاة تبعا · وحذرنا الله تعالى منها فى كتابه ، وعلى لسان رسوله ﷺ ·

يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ (٣) .

وأكتفى هنا بنقل قليل من الأحاديث فى (الترهيب من النار)مما ذكره الإمام المنذرى فى كتابه الشهير (الترغيب والترهيب) ·

فعن أنس رضي الله عنه قال : كان أكثر دعاء النبى ﷺ : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (٤) .

---

(١) النور : ٢٤ ، ٢٥ ·
(٢) فصلت : ١٩ - ٢١ ·
(٣) التحريم : ٦ ·
(٤) البقرة : ٢٠١ ، رواه البخارى ·

وعن عدى بن حاتم ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا النار » قال : وأشاح ، ثم قال : « اتقوا النار » ثم أعرض وأشاح ثلاثاً ، حتى ظننا أنه ينظر إليها ، ثم قال : « اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة » رواه البخارى ، ومسلم .

« أشاح » - بشين معجمة وحاء مهملة - معناها : حذر النار كأنه ينظر إليها .

وعن أبى هريرة ﷺ قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [1] دعا رسول الله ﷺ قريشاً ، فاجتمعوا ، فعمَّ وخصَّ ، فقال « يا بنى كعب بن لؤى أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى هاشم أنقذوا أنفسكم من النار ، يا بنى عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار ، يا فاطمة أنقذى نفسك من النار ، فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً » رواه مسلم واللفظ له ، والبخارى ، والترمذى ، والنسائى بنحوه .

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب يقول : « أنذرتكم النار ، أنذرتكم النار » حتى لو أن رجلاً كان بالسوق لسمعه من مقامى هذا ، حتى وقعت خميصة [2] كانت على عاتقه عند رجليه ، رواه الحاكم ، وقال : صحيح على شرط مسلم [3] .

وعن أنس ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والذى نفسى بيده ، لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » قالوا : وما رأيت يا رسول الله ؟ قال : « رأيت الجنة والنار » ! رواه مسلم ، وأبو يعلى .

وعن أبى هريرة ﷺ عن النبى ﷺ قال : « ناركم هذه - ما يوقد بنو آدم - جزء واحد من سبعين جزءا من نار جهنم » قالوا : والله إن كانت لكافية ! قال : « إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزءاً كلهن مثل حرها » رواه مالك ، والبخارى ، ومسلم ، والترمذى ، وليس عند مالك : « كلهن مثل حرها » .

---

(١) الشعراء : ٢١٤ . (٢) الخميصة : كساء أسود وأحمر له أعلام .

(٣) ووافقه الذهبى (١ / ٢٨٧) وفات المنذرى أن ينسبه إلي أحمد ، وهو فى المسند (٤ / ٢٧٢) .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبريل إلى الجنة ، فقال : انظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها » ، قال : « فجاء فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها » ، قال : « فرجع إليه قال : وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها ، فقال : وعزتك لقد خفت أن لا يدخلها أحد ! وقال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها » ، قال : « فنظر إليها فإذا هـى يركب بعضها بعضاً ، فرجع إليه ، فقال : وعزتك لا يسـمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فقال : وعزتك لقد خشيت أن ألا ينجو منها أحد إلا دخلها » رواه أبو داود ، والنسائى ، والترمذى ، واللفظ له ، وقال : حديث حسن صحيح (١) .

أحاديث فى الترغيب فى الجنة :

وعن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : « والذى نفس محمد بيده إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجـر ، أو هجر ومكة » رواه البخارى ، ومسلم فى حديث ، وابن ماجه مختصراً إلا أنه قال : « لكما بين مكة وهجر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ليدخلن الجنة من أمتى سبعون ألفا - أو سبعمائة ألف - متماسكون آخذ بعضهم ببعض ، لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم،وجوههم على صورة القمر ليلة البدر» رواه البخارى ، ومسلم .

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والذين يلونهم على أشد كوكب درى فى السماء إضاءة ، لا يبولون ، ولا يتغوطون ، ولا يمتخطـون ، ولا يتفلون ، أمشاطهم الذهب ، ورشحهم المسك ، ومجامرهم الألوة ، أزواجهم الحور العين ، أخلاقهم على خلق رجل واحد ، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً فى السماء » .

« الألُوَّةُ » - بفتح الهمزة وضمها ، وبضم اللام ، وتشديد الواو وفتحها - من أسماء العود الذى يتبخر به ، قال الأصمعى : أراها كلمة فارسية عربت .

(١) الحديث عند أبى داود برقم (٤٧٤٤) وعند الترمذى برقم (٢٥٦٣) .

وعن المغيرة بن شعبة ﷺ عن النبى ﷺ : « أن موسى عليه السلام سأل ربه : ما أدنى أهل الجنة منزلة ؟ فقال : رجل يجىء بعد ما دخل أهل الجنة الجنة ، فيقال له : ادخل الجنة ، فيقول : رب كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم ؟ فيقال له : أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا ؟ فيقول : رضيت رب ، فيقول له : لك ذلك ومثله ومثله ومثله ، فقال فى الخامسة : رضيت رب ، فيقول : هذا لك وعشرة أمثاله ، ولك ما اشتهت نفسك ولذت عينك ، فيقول : رضيت رب قال (أى موسى) : رب ، فأعلاهم منزلة ؟ قال : أولئك الذين أردت ، غرست كرامتهم بيدى وختمت عليها ، فلم تر عين ، ولم تسمع أذن ، ولم يخطر على قلب بشر » رواه مسلم ٠

وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم ، كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق والمغرب ، لتفاضل ما بينهم » قالوا : يا رسول الله ، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم ! قال : « بلى والذى نفسى بيده ، رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين » رواه البخارى ، ومسلم ٠

وفى رواية لهما : « كما تراءون الكوكب الغارب » - بتقديم الراء على الباء ٠

وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض » رواه البخارى ٠

وعن أبى موسى الأشعرى ﷺ عن النبى ﷺ قال : « إن للمؤمن فى الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها فى السماء ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً » رواه البخارى ، ومسلم ، والترمذى إلا أنه قال : « عرضها ستون ميلاً » ، وهو رواية لهما ٠

أما وصف القرآن للجنة ، وترغيبه فيها ، فهو معلوم لكل من قرأ كتاب الله ، أو استمع إليه ٠ اللهم اجعلنا من أهلها ، وأسكنا الفردوس الأعلى فيها ٠٠ آمين ٠

* * *

٤ - معرفة آثار المعاصى فى الدنيا والآخرة

ومن أعظم البواعث على التوبة : أن يعرف العاصى آثار الذنوب فى النفس والحياة ، ويستحضر أخطار المعاصى فى الدنيا والآخرة ، فهى خطر على المرء فى حياته الروحية والمادية ، الفردية والاجتماعية ، خطر على عقله وضميره ، خطر على نفسه وجسمه ، خطر عليه فى ذاته وفى أهله وولده ، وفى من حوله ، خطر على الفرد ، وعلى الأسرة ، وعلى المجتمع ، وعلى الأمة كلها - بل على الإنسانية قاطبة ، بل على الإنسان والحيوان والنبات جميعاً .

وعلى الإنسان الذى عصى الله عز وجل : أن يعرف ويتذكر ويستحضر عقوبات الله تعالى على المعاصى والذنوب ، فقد جرت سنته سبحانه أن يعاقب عليها فى الدنيا قبل الآخرة ، تنبيها للغافلين ، وتعليما للجاهلين ، وتذكرة للناسين .

يقول تعالى : ﴿ ظَهَرَ الفَسَادُ فِى البَرِّ والبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ (١) .

والفساد هنا معناه : الخلل والاضطراب والكوارث التى تقع فى الكون والحياة ، وعلى الإنسان ، بسبب ما كسبت أيديه من المعاصى والمخالفات لنواميس الله الشرعية والكونية ، كما قال تعالى فى آيات أخر : ﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وأَنَّ اللهَ لَيسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٢) .

وإنما وقع هذا البلاء وهذه المصائب للناس ﴿ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا ﴾ فهو سبحانه لا يجاريهم بكل ما عملوا من سوء ، بل يعاقبهم ببعضه فقط ، ويعفو عن الباقى وهو كثير - كما قال تعالى فى سورة أخرى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ (٣) .

---

(١) الروم : ٤١ . (٢) آل عمران : ١٨٢ . (٣) الشورى : ٣٠ .

أكدت هذه الآية هذه القاعدة الشاملة الخطيرة ، وهى أن ما أصاب الناس من مصيبة فى حياتهم ، فليس ذلك ظلما ولا اعتباطا ، بل هو جزاء وفاق لما قاموا به من أعمال سيئة ، وتصرفات مرذولة،ثم بين عز وجل أنه لا يؤاخذ الناس بكل سيئاتهم ، ولا يعاقبهم بكل ما كسبوا ، وكل ما ظلموا ، وإلا لأهلك الأحياء كلها على ظهر الأرض بظلم الناس وذنوبهم ، يقول تعالى : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (١) ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ (٢) .

ثم هو سبحانه ينزل بهم هذه المصائب فى أنفسهم وأموالهم ، لا لينتقم منهم ، ولكن « لعلهم يرجعون » ، أى ليكونوا على رجاء الرجـــوع إليه ، بعد أن شردوا منه ، وضلوا عن سبيله ، فهو تعالى يذكرهم بهذه البلايا من نسيانهم ، وينبههم من غفلتهم لعلهم يرجعون ويتوبون .

وقد بين القرآن شؤم الكفر والظلم والمعصية على أهلها ، فيما أورد لنا من قصص الأنبياء والمؤمنين ، وأقوامهم المكذبين والعصاة ، وكيف أنزل الله بهم بأسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين ، وكانت لهم أموال وأولاد ، وجاه ومنزلة وأتباع ، فما أغنى عنهم ذلك من الله شيئاً .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾(٣)

﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ * وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ لَهَا مُنذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ (٤) .

وفى سورة هود ذكر الله لنا قوم نوح وكيف أغرقهم الله بالطوفان ، وكيف

---

(١) النحل : ٦١ . (٢) فاطر : ٤٥ .
(٣) الأنفال : ٥٣ . (٤) الشعراء : ٢٠٥ - ٢٠٩ .

ودعهم الله بقوله : ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (١) وكيف أهلك من بعدهم عادًا : ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ، جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ (٢) .

وبعد عاد جاءت ثمود ، وقال لهم نبيهم صالح : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلاَ تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ (٣) .

ولكنهم لم يطيعوه ، وعقروا الناقة ، وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا : ياصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فأخذتهم الصيحة أو الرجفة ، فهلكوا جميعا : ﴿ كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلاَ إِنَّ ثَمُودَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلاَ بُعْدًا لِثَمُودَ ﴾ (٤) .

وجاء بعدهم قوم لوط وما ابتكروا من فاحشة لم يسبقهم بها أحد من العالمين (فاحشة الشذوذ الجنسى) فقلب الله قريتهم عليهم وجعل عاليها سافلها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود : ﴿ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ ، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ (٥) .

وجاء بعدهم أهل مدين ، الذين أشركوا بالله ، وعثوا فى الأرض مفسدين ، وبخسوا الناس أشياءهم ، وطففوا الكيل والميزان ، فدعاهم نبيهم شعيب إلى الله وإلى الإصلاح ، فكذبوا وأعرضوا ، وأصروا على ضلالهم وغيهم ، فأخذتهم الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثين ﴿ كَأَنْ لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ، أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ (٦) .

وجاء بعدهم فرعون ، ومعه هامان ، وقارون ، وجاءهم موسى بالآيات ، وسلطان مبين ، فكذبوا وأعرضوا واستكبروا : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (٧) .

---

(١) هود : ٤٤ . (٢) هود : ٥٩ ، ٦٠ .
(٣) الشعراء : ١٥٠ - ١٥٢ . (٤) هود : ٦٨ . (٥) هود : ٨٣ .
(٦) هود : ٩٥ . (٧) النمل : ١٤ .

واستخف فرعون قومه فأطاعوه ، واتبعوا أمر فرعـون ، وما أمر فرعون برشيد ، وأغرق الله فرعون ومن معه أجمعين .

وقد عقب الله تعالى على أنباء هؤلاء الأقوام ، وعاقبة ما آلوا إليه فقال تعالى يخاطب رسوله : ﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ، مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ لَّمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ ، إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾[1] .

ويقول النبى ﷺ : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم تلا[2] : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ، إن أخذه أليم شديد » .

وفى السنة النبوية جاءت أحاديث صحاح وحسان شتى ، تبين لنا ما تجلبه المعاصى على مرتكبيها من أضرار ومآسى فى أولاهم قبل أخراهم .

وقد رأينا بأعيننا ، ولمسنا بأيدينا : صدق هذه الأحاديث ، وشاهدنا آثار المعاصى فى حياتنا الخاصة والعامة .

تذكر هذه الأحاديث ما رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن النبى ﷺ قال : « يا معشر المهاجرين ، خمس خصال إذا ابتليتم بهن ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة فى قوم ، قط حتى يعلنوا بها ، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا ..

ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين (أى القحط والمجاعة) وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم ..

ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ،

---

(١) هود : ١٠٠ - ١٠٢ .

(٢) متفق عليه عن أبى موسى ، صحيح الجامع الصغير (١٨٢٢) .

ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم ، فأخذوا بعض ما كان فى أيديهم .. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ، ويتحروا فيما أنزل الله ، إلا جعل الله بأسهم بينهم » (١) .

وها نحن نشاهد آثار هذه المخالفات والذنوب فى دنيانا ماثلة للعباد ، وبخاصة عقوبة الذنب الأول من هذه الخمسة ، وهو الداء العضال الذى ظهر فى عصرنا نتيجة انتشار الفاحشة والمعالنة بها ، وهو ما يعبر عنه باسم (الإيدز) .

كتاب (الداء والدواء) لابن القيم :

وللامام ابن القيم رحمه الله ورضى عنه : كتاب كامل سماه « الجواب الكافى لمن سأل عن الدواء الشافى » وقد يطلق عليه اسم (الداء والدواء) ، وكله فى بيان سوء آثار الذنوب والمعاصى ، وشؤمها على الإنسان ، فردا ومجتمعا ، فى دنياه وآخرته ، فى مادياته ومعنوياته ، فى علاقته بربه ، وعلاقته بنفسه ، وعلاقته بأسرته ، وعلاقته بمجتمعه ، وعلاقته بالكون من حوله ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، وذلك بقلم ابن القيم البليغ ، وأسلوبه الأدبى الرفيع .

ونظر لأهمية هذا الكتاب ، لابد لنا أن نقتبس منه - مع بعض التصرف - أهم ما فيه ، وإن طال الاقتباس ، لأننا نريد أن نوقظ الضمائر النائمة ، ونحيي القلوب الميتة ، ونقوى العزائم المسترخية ، ونأخذ بأيدى العصاة حتى يتوبوا ، وبأيدى التائبين حتى يستمروا ، وبأيدى المهتدين حتى يزدادوا هدى .

من آثار المعاصى وشؤمها :

يقول ابن القيم :

وللمعاصى من الآثار القبيحة المذمومة ، المضرة بالقلب والبدن فى الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلا الله .

حرمان العلم :

فمنها : حرمان العلم ، فإن العلم نور يقذفه الله فى القلب ، والمعصية تطفىء ذلك النور .

---

(١) رواه ابن ماجه والحاكم عن ابن عمر : صحيح الجامع الصغير (٧٩٧٨) .

ولما جلس الإمام الشافعى بين يدى مالك وقرأ عليه أعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ، فقال : إنى أرى الله قد ألـقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة المعصية .

وقال الشافعى رحمه الله :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى ... فأرشـدنى إلى ترك المعاصى
وقال : اعلـم بأن العلم فضل ... وفضـل الله لا يؤتاه عاصى

حرمان الرزق :

ومنها : حرمان الرزق ، وفى المسند : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » وقد تقدم ، وكما أن تقوى الله مجلبة للرزق ؛ فترك التقوى مجلبة للفقر ؛ فما استجلب رزق بمثل ترك المعاصى .

الوحشة بينه وبين الله :

ومنها : وحشة يجدها العاصى فى قلبه بينه وبين الله لا توازنها ولا تقارنها لذة أصلا ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها لم تف بتلك الوحشة ، وهذا أمر لا يحس به إلا من فى قلبه حياة ، وما لجرح بميت إيلام ! فلو لم تترك الذنوب إلا حذراً من وقوع تلك الوحشة ، لكان العاقل حرياً بتركها .

وشكا رجل إلى بعض العارفين وحشة يجدها فى نفسه ، فقال له :

إذا كنت قد أوحشتك الذنوب ... فدعهـا إذا شئت واستأنس

وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على الذنب ؛ فالله المستعان .

الوحشة بينه وبين الناس :

ومنها : الوحشة التى تحصل بينه وبين الناس ، ولا سيما أهل الخير منهم ، فإنه يجد وحشة بينه وبينهم ، وكلما قويت تلك الوحشة بعد منهم ومن مجالستهم ، وحرم بركة الانتفاع بهم ، وقرب من حزب الشيطان ، بقدر ما بعد من حزب الرحمن ، وتقوى هذه الوحشة حتى تستحكم ، فتقع بينه وبين امرأته وولده وأقاربه ، وبينه وبين نفسه ، فتراه مستوحشاً من نفسه .

وقال بعض السلف : إنى لأعصي الله فأرى ذلك فى خُلُق دابتى وامرأتى .

تعسير أمور العاصى :

ومنها : تعسير أموره عليه ؛ فلا يتوجه لأمر إلا يجده مغلقاً دونه أو متعسراً عليه ، وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسراً ؛ فمن عطل التقوى جعل له من أمره عسراً ، وبالله العجب ! كيف يجد العبد أبواب الخير والمصالح مسدودة عنه وطرقها معسرة عليه ، وهو لا يعلم من أين أتى ؟ .

ظلمة القلب :

ومنها : ظلمة يجدها فى قلبه حقيقة يحس بها كما يحس بظلمة الليل البهيم إذا أدلهَمَّ ، فتصير ظلمة المعصية لقلبه كالظلمة الحسية لبصره ، فإن الطاعة نور ، والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة ازدادت حيرته ؛ حتى يقع فى البدع والضلالات والأمور المهلكة وهو لا يشعر ، كأعمى خرج فى ظلمة الليل يمشى وحده ، وتقوى هذه الظلمة حتى تظهر فى العين ، ثم تقوى حتى تعلو الوجه ، وتصير سواداً فيه يراه كل أحد .

قال عبد الله بن عباس : « إن للحسنة ضياء فى الوجه ، ونوراً فى القلب ، وسعة فى الرزق ، وقوة فى البدن ، ومحبة فى قلوب الخلق ، وإن للسيئة سواداً فى الوجه ، وظلمة فى القلب ، ووهناً فى البدن ، ونقصاً فى الرزق ، وبغضة فى قلوب الخلق » .

ومنها : أن المعاصى وهن القلب والبدن ، أما وهنها للقلب فأمر ظاهر ، بل لا تزال توهنه حتى تزيل حياته بالكلية .

وأما وهنها للبدن فإن المؤمن قوته فى قلبه ، وكلما قوى قلبه قوى بدنه ، وأما الفاجر فإنه - وإن كان قوى البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة ، فتخونه قوته أحوج ما يكون إلى نفسه ، وتأمل قوة أبدان فارس والروم كيف خانتهم أحوج ما كانوا إليها ، وقهرهم أهل الإيمان بقوة أبدانهم وقلوبهم ؟ .

الحرمان من الطاعة :

ومنها : حرمان الطاعة ، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بدله ، وتقطع طريق طاعة أخرى ، فينقطع عليه بالذنب طريق ثالثة ، ثم رابعة

وهلم جرا ، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة ، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها ، وهذا كرجل أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها [1] ، والله المستعان ·

المعاصى تقصِّر الأعمار :

ومنها : أن المعاصى تقصر العمر وتمحق بركته ولابد ، فإن البر كما يزيد فى العمر ، فالفجور يقصر العمر ·

وقد اختلف الناس فى هذا الموضع ·

فقالت طائفة : نقصان عمر العاصى هو : ذهاب بركة عمره ومحقها عليه · وهذا حق ، وهو بعض تأثير المعاصى ·

وقالت طائفة : بل تنقصه حقيقة ، كما تنقص الرزق ، فجعل الله سبحانه للبركة فى الرزق أسباباً كثيرة تكثره وتزيده ، وللبركة فى العمر أسباب تكثره وتزيده ·

قالوا : ولا يمتنع زيادة العمر بأسباب كما ينقُص بأسباب ، فالأرزاق والآجال ، والسعادة والشقاوة ، والصحة والمرض ، والغنى والفقر ، وإن كانت بقضاء الرب عز وجل ، فهو يقضى ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لمسبباتها مقتضية لها ·

وقالت طائفة أخرى : تأثير المعاصى فى محق العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة هى حياة القلب ، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتاً غير حى ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ فالحياة فى الحقيقة حياة القلب ، وعمر الإنسان مدة حياته ، فليس عمره إلا أوقات حياته بالله ، فتلك ساعات عمره ، فالبر والتقوى والطاعة تزيد فى هذه الأوقات التى هى حقيقة عمره ، ولا عمر له سواها ·

وبالجملة فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصى ضاعت عليه أيام حياته الحقيقية التى يجد غبَّ إضاعتها يوم يقول ﴿ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [2] فلا

---

(١) فى هامش الخطية وفى نسخة :

وكم من أكلة منعت أخاها ... بأكله ساعة أكلات دهر
وكم من إمرىء يسعى لشيء ... وفيه هلاكه لو كان يدرى

(٢) الفجر : ٢٤ ·

يخلو ، إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية والأخروية أولا ؛ فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله ، وذهبت حياته باطلا ، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب العوائق ، وتعسرت عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأضدادها ، وذلك نقصان حقيقى من عمره ·

وسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته ، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه ، والتنعم بحبه وذكره ، وإيثار مرضاته ·

الجر إلى معاصى أُخر :

ومنها : أن المعاصى تزرع أمثالها ، ويولد بعضها بعضاً ، حتى يعز على العبد مفارقتها والخروج منها ، كما قال بعض السلف : إن من عقوبة السيئة السيئة بعدها ، وإن من ثواب الحسنة الحسنة بعدها ، فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جنبها : اعملنى أيضاً ، فإذا عملها قالت الثالثة كذلك ، وهلم جرا ، فتضاعف الربح ، وتزايدت الحسنات ، وكذلك جانب السيئات أيضاً ، حتى تصير الطاعات والمعاصى هيئات راسخة وصفات لازمة ، وملكات ثابتة ؛ فلو عطل المحسن الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاقت عليه الأرض بما رحبت ، وأحسَّ من نفسه بأنه كالحوت إذا فارق الماء حتى يعاودها ، فتسكن نفسه وتقر عينه ، ولو عطل المجرم المعصية وأقبل على الطاعة لضاقت عليه نفسه ، وضاق صدره ، وأعيت عليه مذاهبه ، حتى يعاودها ، حتى إن كثيراً من الفساق ليواقع المعصية من غير لذة يجدها ، ولا داعية إليها ، إلا لما يجد من الألم بمفارقتها ، كما صرح بذلك شيخ القوم الحسن بن هانىء حيث يقول :

وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها !

وقال آخر :

فكانت دوائى ، وهى دائى بعينه كما يتداوى شارب الخمر بالخمر !

ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزه إليها أزًّا ، وتحرضه عليها ، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليه ، ولا يزال يألف المعاصى ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله عليه الشياطين

فتؤزه إليها أزًّا ، فالأول قوى جند الطاعة بالمدد ، فصاروا من أكبر أعوانه . وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه .

إضعاف إرادة الطاعة :

ومنها - وهو من أخوفها على العبد - أنها تضعف القلب عن إرادته ، فتقوى إرادة المعصية ، وتضعف إرادة التوبة شيئاً فشيئاً ، إلى أن تنسلخ من قلبه إرادة التوبة بالكلية ؛ فلو مات نصفه لما تاب إلى الله ، فيأتى من الاستغفار وتوبة الكذابين باللسان بشىء كثير ، وقلبه معقود بالمعصية ، مصر عليها ، عازم على مواقعتها متى أمكنه ، وهذا من أعظم الأمراض وأقربها إلى الهلاك .

التبجح بالمعصية :

ومنها : أنه ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فلا يستقبح من نفسه رؤية الناس له ، ولا كلامهم فيه ، وهذا عند أرباب الفسوق هو غاية التهتك وتمام اللذة ؛ حتى يفتخر أحدهم بالمعصية ، ويحدث بها من لم يعلم أنه عملها ، فيقول : يا فلان عملت كذا وكذا ، وهذا الضرب من الناس لا يُعَافَوْن ، ويسد عليهم طريق التوبة ، وتغلق عنهم أبوابها فى الغالب ، كما قال النبى ﷺ « كل أمتى مُعافًى إلا المجاهرين،وإن من الإجهار:أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقد ستره الله تعالى ، فيقول : عملت البارحة كذا وكذا . وقد بات يستره ربه ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » (١) .

هوان العاصى على الله :

ومنها : أن المعصية سبب لهوان العبد على ربه وسقوطه من عينه .

قال الحسن البصرى : هانوا عليه فعصوه ، ولو عزوا عليه لعصمهم ، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحد ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ (٢) وإن عظمهم الناس فى الظاهر لحاجتهم إليهم ، أو خوفا من شرهم ، فهم فى قلوبهم أحقرشىء وأهونه .

---

(١) متفق عليه عن أبى هريرة - صحيح الجامع الصغير (٤٥١٢) .
(٢) الحج : ١٨ .

استصغار معصية الله :

ومنها : أن العبد لا يزال يرتكب الذنب حتى يهون عليه ويصغر فى قلبه ، وذلك علامة الهلاك ؛ فإن الذنب كلما صغر فى عين العبد عظم عند الله .

وقد ذكر البخارى فى صحيحه عن ابن مسعود قال « إن المؤمن يرى ذنوبه كأنها فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه ، فقال به هكذا ، فطار » .

شؤم المعصية على جميع الكائنات الحية :

ومنها : أن غيره من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه ، فيحترق هو وغيره بشؤم الذنوب والظلم .

قال أبو هريرة : إن الحبارى لتموت فى وكرها من ظلم الظالم !

وقال مجاهد : إن البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا اشتدت السَّنة (أى القحط) وأمسك المطر ، وتقول : هذا بشؤم معصية ابن آدم .

وقال عكرمة : دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب تقول : منعنا القطر بذنوب بنى آدم .

فلا يكفيه عقاب ذنبه ، حتى يلعنه من لا ذنب له .

المعصية تورث الذلة :

ومنها : أن المعصية تورث الذل ولابد ؛ فإن العز كل العز فى طاعة الله تعالى قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ﴾ [1] ، أى فليطلبها بطاعة الله ؛ فإنه لا يجدها إلا فى طاعة الله .

وكان من دعاء بعض السلف : اللهم أعزنى بطاعتك ، ولا تذلنى بمعصيتك .

---

(١) فاطر : ١٠ .

وقال الحسن البصرى : إنهم وإن طقطقت بهم البغال ، وهملجت بهم البراذين ، إن ذل المعصية لا يفارق قلوبهم ، أبى الله إلا أن يذل من عصاه ! .

وقال عبد الله بن المبارك :

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها

وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سوء ورهبانها ؟

إفساد العقل :

ومنها : أن المعاصى تفسد العقل ؛ فإن للعقل نوراً ، والمعصية تطفىء نور العقل ولابد ، وإذا طفىء نوره ضعف ونقص .

وقال بعض السلف : ما عصى الله أحد حتى يغيب عقله ، وهذا ظاهر ؛ فإنه لو حضره عقله لحجزه عن المعصية وهو فى قبضة الرب تعالى ، وتحت قهره ، وهو مطلع عليه ، وفى داره وعلى بساطه ، وملائكته شهود عليه ناظرون إليه ! وواعظ القرآن ينهاه ، وواعظ الإيمان ينهاه ، وواعظ الموت ينهاه ، وواعظ النار ينهاه ، والذى يفوته بالمعصية من خير الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ما يحصل له من السرور واللذة بها ، فهل يقدم على الاستهانة بذلك كله والاستخفاف به ذو عقل سليم ؟؟ .

الطبع على القلب :

ومنها : أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها ، فكان من الغافلين .

كما قال بعض السلف فى قوله تعالى : ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (1) قال : هو الذنب بعد الذنب .

وقال الحسن : هو الذنب على الذنب ، حتى يعمى القلب .

---

(1) المطففين : 14 .

وقال غيره : لما كثرت ذنوبهم ومعاصيهم أحاطت بقلوبهم .

وأصل هذا أن القلب يصدأ من المعصية ، فإذا زادت غلب الصدأ حتى يصير راناً ، ثم يغلب حتى يصير طبعاً وقفلا وختما ، فيصير القلب فى غشاوة وغلاف ، فإذا حصل له ذلك بعد الهدى والبصيرة انتكس فصار أعلاه أسفله ، فحينئذ يتولاه عدوه ويسوقه حيث أراد .

جلب لعنة الله على فاعلها :

ومنها : أن الذنوب تدخل العبد تحت لعنة الله عز وجل ، ولعنة رسول الله ﷺ ، فإنه لعن على معاص كثيرة ، أو أعلن لعنة الله على مرتكبيها ، والتى غيرها أكبر منها فهى أولى بدخول فاعلها تحت اللعنة ، فلعن الواشمة والمستوشمة ، والواصلة والموصولة ، والنامصة والمتنمصة ، والواشرة والمستوشرة ، ولعن آكل الربا ومؤكله ، وكاتبه وشاهده ، ولعن المحَلِّل والمحلَّل له ، ولعن السارق ، ولعن شارب الخمر ، وساقيها ، وعاصرها ومعتصرها ، وبائعها ومشتريها ، وآكل ثمنها ، وحاملها والمحمولة إليه ، ولعن من غير منار الأرض ، وهى أعلامها وحدودها ، ولعن من لعن والديه ، ولعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً يرميه بسهم ، ولعن المخنثين من الرجال والمترجلات من النساء ، ولعن من ذبح لغير الله ، ولعن من أحدث حدثًا أو آوى محدثاً ، ولعن المصورين ، ولعن من عمل عمل قوم لوط ، ولعن من سب أباه وأمه ، ولعن من كمه [1] أعمى عن الطريق ، ولعن من أتى بهيمة ، ولعن من وسم دابة فى وجهها ، ولعن من ضار مسلماً أو مكر به ، ولعن زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج ، ولعن من أفسد امرأة على زوجها أو مملوكا على سيده ، ولعن من أتى امرأة فى دبرها ، وأخبر أن من باتت مهاجرة لفراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح ، ولعن من انتسب إلى غير أبيه ، وأخبر أن من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه ، ولعن من سب الصحابة .

---

(١) كمه أعمى : يريد أنه أضله وعمّى عليه ، ولم يرشده إلى مقصده .

وقد لعن الله (فى كتابه) من أفسد فى الأرض وقطع رحمه .

ولعن من آذاه وآذى رسول الله ﷺ .

ولعن من كتم ما أنزل الله سبحانه من البينات والهدى .

ولعن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة .

ولعن من جعل سبيل الكافرين أهدى من سبيل المسلمين .

ولعن رسول الله ﷺ الرجل يلبس لبسة المرأة والمرأة تلبس لبسة الرجل ، ولعن الراشى والمرتشى والرائش - وهو الواسطة فى الرشوة - ولعن على أشياء أخر غير هذه .

فلو لم يكن فى فعل ذلك إلا رضاء فاعله بأن يكون ممن يلعنه الله ورسوله وملائكته لكان فى ذلك ما يدعو إلى تركه .

الحرمان من دعاء النبى والملائكة :

ومنها : حرمان دعوة رسول الله ﷺ ودعوة الملائكة ؛ فإن الله سبحانه أمر نبيه أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات وقال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ، رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِى وَعَدْتَّهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (١) .

فهذا دعاء الملائكة للمؤمنين التائبين المتبعين لكتابه وسنة رسوله اللذين لا سبيل له غيرهما ؛ فلا يطمع غير هؤلاء بإجابة هذه الدعوة إذا لم يتصف بصفات المدعو له بها ، والله المستعان .

---

(١) غافر : ٧ - ٩ .

إضعاف سير القلب إلى الله :

ومن عقوباتها : أنها تضعف سير القلب إلى الله والدار الآخرة ، أو تعوقه أو توقفه وتقطعه عن السير ؛ فلا تدعه يخطو إلى الله خُطوة ، هذا إن لم ترده عن وجهته إلى ورائه ؛ فالذنب يحجب الواصل ، ويقطع السائر ، وينكس الطالب ، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته ، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التى تسيره ، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه . والله المستعان .

المعاصى تزيل النعم :

ومن عقوبات الذنوب : أنها تزيل النعم ، وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة إلا بذنب ، ولا حلت به نقمة إلا بذنب ، كما قال على بن أبى طالب رضي الله عنه « ما نزل بلاء إلا بذنب ، ولا رفع إلا بتوبة » وقد قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ، وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ ﴾ (١) ، وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (٢) .

فأخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التى أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذى يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فإذا غَيَّر غُيِّر عليه ، جزاء وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد .

ولقد أحسن القائل :

إذا كنت فى نعمة فارعها ... فإن الذنــوب تزيل النعم
وحُطها بطاعة رب العباد ... فرب العباد سريع النقم (٣)

إنساء العاصى نفسه :

ومن عقوباتها : أنها تنسى العبد نفسه ، وإذا نسى نفسه أهملها وأفسدها وأهلكها .

---

(١) الشورى : ٣٠ .   (٢) الأنفال : ٥٣ .

(٣) حطها : احفظها وحصنها ، واجعل الطاعة كالسور المحيط بالمدينة ليمنع عنها عادية المغيرين .

فإن قيل : كيف ينسى العبد نفسه ؟ وإذا نسى نفسه فأى شىء يذكر ؟ وما معنى نسيانه نفسه ؟ .

قيل : نعم ينسى نفسه أعظم نسيان ، قال تعالى : ﴿ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ، أُوْلَئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ ﴾ (١) فلما نسوا ربهم سبحانه نسيهم وأنساهم أنفسهم ، كما قال الله تعالى ﴿ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾(٢) فعاقب سبحانه من نسيه عقوبتين :

إحداهما : أنه سبحانه نسيه .

والثانية : أنه أنساه نفسه .

ونسيانه سبحانه للعبد إهماله وتركه وتخليه عنه وإضاعته ؛ فالهلاك أدنى إليه من اليد للفم ، وأما إنساؤه نفسه فهو إنساؤه لحظوظها العالية ، وأسباب سعادتها وفلاحها وصلاحها وما تكمل به ، ينسيه ذلك جميعه ؛ فلا يُخطره بباله ، ولا يجعله على ذكره ، ولا يصرف إليه همته فيرغب فيه ؛ فإنه لا يمر بباله حتى يقصده ويؤثره .

وأيضاً فينسيه عيوب نفسه ونقصها وآفاتها ؛ فلا يخطر بباله إزالتها .

وأيضاً ينسيه أمراض نفسه وقلبه وآلامها ؛ فلا يخطر بقلبه مداواتها ، ولا السعى فى إزالة عللها وأمراضها التى تؤول به إلى الفساد ، والهلاك ، فهو مريض مثخن بالمرض ، ومرضه مترام به إلى التلف ، ولا يشعر بمرضه ، ولا يخطر بباله مداواته ، وهذا من أعظم العقوبة العامة والخاصة .

المعيشة الضنك :

ومنها : المعيشة الضنك فى الدنيا وفى البرزخ والعذاب فى الآخرة قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ، وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (٣) ، وفسرت المعيشة الضنك بعذاب القبر ، ولا ريب أنه من المعيشة

---

(١) الحشر : ٥٩ : ١٩ . (٢) التوبة : ٩ : ٦٧ . (٣) طه : ١٢٤ .

الضنك ، والآية تتناول ما هو أعم منه وإن كانت نكرة فى سياق الإثبات ؛ فإن عمومها من حيث المعنى ؛ فإنه سبحانه رتب المعيشة الضنك على الإعراض عن ذكره ، فالمعرض عنه له من ضنك المعيشة بحسب إعراضه ، وإن تنعم فى الدنيا بأصناف النعم ؛ ففى قلبه من الوحشة والذل والحسرات التى تقطع القلوب والأمانى الباطلة والعذاب الحاضر ما فيه ، وإنما يواريه عنه سكرات الشهوات والعشق وحب الدنيا والرياسة ، وإن لم ينضم إلى ذلك سكر الخمر ؛ فسكر هذه الأمور أعظم من سكر الخمر ؛ فإنه يفيق صاحبه ويصحو ، وسكر الهوى وحب الدنيا لا يصحو صاحبه إلا إذا كان صاحبه فى عسكر الأموات ؛ فالمعيشة الضنك لازمة لمن أعرض عن ذكر الله الذى أنزله على رسوله ﷺ فى دنياه وفى البرزخ ويوم معاده ، ولا تقر العين ، ولا يهدأ القلب ، ولا تطمئن النفس إلا بإلهها ومعبودها الذى هو حق ، وكل معبود سواه باطل ؛ فمن قرت عينه بالله قرت به كل عين ، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات ، والله تعالى إنما جعل الحياة الطيبة لمن آمن به وعمل صالحاً كما قال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١) ، فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء فى الدنيا بالحياة الطيبة والحسنى يوم القيامة ؛ فلهم أطيب الحياتين ؛ فهم أحيـاء فى الدارين ،ونظير هذا قوله تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحسَنُوا فِى هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِـرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقِينَ ﴾ (٢) ونظيرها قوله تعالى ﴿ وَأَنِ استَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (٣) ففاز المتقون المحسنون بنعيم الدنيا والآخرة ، وحصلوا على الحياة الطيبة فى الدارين ؛ فإن طيب النفس ، وسرور القلب وفرحه ، ولذته وابتهاجه ، وطمأنينته وانشراحه ، ونوره وسعته وعافيته ، من ترك الشهوات المحرمة ، والشبهات الباطلة ، هو النعيم على الحقيقة ، ولا نسبة لنعيم البدن إليه .

---

(١) النحل : ٩٧ .　(٢) النحل : ٣٠ .　(٣) هود : ٣ .

فقد كان يقول بعض من ذاق هذه اللذة : لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لجالدونا عليه بالسيوف !

وقال آخر : إنه ليمر بالقلب أوقات أقول فيها : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا إنهم لفى عيش طيب ! ، وقال آخر : إن في الدنيا جنة هى فى الدنيا كالجنة فى الآخرة ؛ فمن دخلها دخل تلك الجنة ، ومن لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة ، وقد أشار النبى ﷺ إلى هذه الجنة بقوله : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا : وما رياض الجنة ؟ قال : حلَق الذكر (١) » وقال « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » (٢) .

ولا تحسب أن قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ * وَإِنَّ الفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ (٣) مقصور على نعيم الآخرة وجحيمها فقط ، بل فى دورهم الثلاثة هم كذلك - أعنى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، ودار القرار - فهؤلاء فى نعيم ، وهؤلاء فى جحيم ، وهل النعيم إلا نعيم القلب ؟ وهل العذاب إلا عذاب القلب ؟ وأى عذاب أشد من الخوف والهم والحزن ، وضيق الصدر ، وإعراضه عن الله والدار الآخرة ، وتعلقه بغير الله ، وانقطاعه عن الله ، بكل واد منه شعبة ؟ وكل من تعلق به وأحبه من دون الله فإنه يسومه سوء العذاب ، فكل من أحب شيئاً غير الله عذب به ثلاث مرات فى هذه الدار ؛ فهو يعذب به قبل حصوله حتى يحصل ، فإذا حصل عذب به حال خصوله بالخوف من سلبه وفواته ، والتنغيص والتنكيد عليه ، وأنواع من العذاب فى هذه المعارضات ، فإذا سلبه اشتد عليه عذابه ؛ فهذه ثلاثة أنواع من العذاب فى هذه الدار .

وأما فى البرزخ : فعذاب يقارنه ألم الفراق الذى لا يرجو عوده ، وألم فوات

(١) رواه الترمذى وحسنه من حديث .

(٢) متفق عليه من حديث عبد الله بن زيد المازنى ، وأبى هريرة : صحيح الجامع الصغير (٥٥٨٦ ، ٥٥٨٧) .

(٣) الانفطار : ١٣ ، ١٤ .

ما فاته من النعيم العظيم باشتغاله بضده ، وألم الحجاب عن الله ، وألم الحسرة التى تقطع الأكباد ؛ فالهم والغم والحسرة والحزن تعمل فى نفوسهم نظير ما يعمل الهوام والديدان فى أبدانهم ، بل عملها فى النفوس دائـم مسـتمر ، حتى يردها إلى أجسادها ؛ فحينئذ ينتقل العذاب إلى نوع هو أدهى وأمر ، فأين هذا من نعيم من يرقص قلبه طرباً وفرحاً وأنسـاً بربه ، واشتياقاً إليه ، وارتياحاً بحبه ، وطمأنينة بذكره .

فيامن باع حظه الغالى بأبخس الثمن ، وغبن كل الغبن فى هذا العقد ، وهو يرى أنه قد غبن ، إذا لم يكن لك خبرة بقيمة السلعة فسل المقومين !

فياعجباً من بضاعة معك الله مشتريها ، وثمنها جنة المأوى ، والسفير الذى جرى على يديه عقد التبايع ، وضمن الثمن عن المشترى ، هو الرسول ﷺ ، وقد بعتها بغاية الهوان ، كما قال القائل :

إذا كان هذا فعل عبد بنفسه ... فمن ذا له من بعد ذلك يكرم ؟

﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ، إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ (١) .

* * *

---

(١) الحج : ١٨ .

خاتمـــــة

لقد تبين لنا من هذه الدراسة : أن أعظم ما ينفع الإنسان طاعة ربه ، وأكبر ما يضره معصيته عز وجل ، فليس أضر على الإنسان فى دنياه وآخرته من ذنـوبه وخطاياه ، بل الذنوب والخطايا ضرر على المجتمع كله ، وليس على المذنب وحده ، كما قال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (١) .

بل الذنوب والخطايا خطر على البيئة كلها : برية وبحرية ، حيوانية ونباتية ، بل على التوازن الكونى كله ، كما نقرأ عن (ثقب الأوزون) ونحو ذلك .

كما عرفنا أن كل بنى آدم خطاء ، وخير الخطائين التوابون ، فمن رحمة الله بالإنسان أن أعطاه هذه (الممحاة) أو هذه « المغسلة » وهى التوبة ليغسل بها نفسه كلما زلت قدمه ، وغلبت فيه نزعة الطين على نفحة الروح .

وكل إنسان فى حاجة إلى التوبة ، وعلى قدر رهافة حسه ، ورقة شعوره ، يكون إحساسه بالتفريط فى جنب الله ، والتقصير فى حقوق الناس ، وإحساسه بالحاجة إلى التوبة .

والتوبة مطلوبة من الفرد وهى مطلوبة من المجتمع أيضاً من ذنوبه العامة ، مثل تعطيل شريعة الله ، وإهمال فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، واستباحة الخلاعة والمسكرات والربا المؤذنة بحرب الله ورسوله ، والإعراض عن الوحدة ، والاستجابة لدواعى الفرقة والخلاف ، والولاء لغير الله بل موالاة أعداء الله ، والوهن والدعوة إلى السلم مع المعتدين على الأرض والعرض ... كل هذه تتطلب من المجتمع كله أن يتوب إلى الله ، ويرجع إليه .

ومن الناس من يتصور أن الذنوب تنحصر فى الزنى وشرب الخمر ونحوها ، ويغفلون ذنوبا أخرى كالتى تتعلق بحقوق الناس وكراماتهم وحرياتهم ، أو تتعلق بتلويث البيئة أو إفساد الحياة .

---

(١) الأنفال : ٢٥ .

من الناس من تراه يصلى فى المسجد ، ويتلو القرآن ، ويسبح فى اليوم مائة مرة ، ويذهب إلى العمرة فى كل رمضان ، وهو - مع هذا - يرتكب مآثم فظيعة ، أو يعاون فيها ، مثل تزوير الانتخابات ، أو الاعتداء على حرية الشعب ، وحقوق الإنسان ، أو قبول الرشوة باسم الهدية أو العمولة ، أو تسهيل استيراد الأغذية الفاسدة ، أو الملوثة بالإشعاع ، أو لحوم البقر المجنونة ، أو مدح الحكام الطغاة ، وترويجهم لدى الشعوب .

ومن الناس من يعتدى على البيئة ، فيلوثها أو يفسدها أو يدمرها ، بعمل من الأعمال التى لا يرضاها الله ولا رسوله ولا المؤمنون ، ولا يحسب ذلك من الذنوب والمعاصى التى يجب عليه التوبة والاستغفار منها .

وهناك كثير من الذنوب والخطايا يقع فيها الجم الغفير من البشر ، وهم لا يشعرون ، لجهلهم أو لبلادة حسهم ، أو لخفائها عليهم ، ولا سيما إذا كانت من خطايا الضمائر ومعاصى القلوب ، التى تدق وتخفى على كثير من الناس .

وطوق النجاة للإنسان من هذا المأزق : أن يتوب إلى الله تعالى توبة عامة شاملة : مما يعلم من ذنوبه ومما لا يعلم ، فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه ، ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم ، فإنه عاص بترك العلم والعمل ، فالمعصية فى حقه أشد ، وفى صحيح ابن حبان : أن النبى ﷺ قال « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل ، فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يا رسول الله ؟ قال : أن تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ، ولا يعلمه العبد .

وفى الصحيح عنه ﷺ : أنه كان يدعو فى صلاته : « اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفر لى جِدى وهزلى ، وخطئى وعمدى ، وكلٌّ ذلك عندى ، اللهم اغفر لى ما قدمت وما

أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت إلّهى لا إلّه إلا أنت » .

وفى الحديث الآخر « اللهم اغفر لى ذنبى كله ، دقه وجله ، خطأه وعمده ، سره وعلانيته ، أوله وآخره » .

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتى التوبة على ما علمه العبد من ذنوبه وما لم يعلمه .

فيا أيها الشاردون عن الله ، آن لكم أن ترجعوا .. ويا أيها الغافلون عن الآخرة ، آن لكم أن تنتبهوا ، ويا أيها الناسون للموت آن لكم أن تتذكروا .. ويا أيها السكارى بحب الدنيا ، آن لكم أن تصحوا .. ويا أيها الهازلون ، آن لكم أن تجدُّوا ، ويا أيها المستمرئون للمعاصى آن لكم أن تتوبوا .. توبوا والباب مفتوح قبل أن يغلق ، والفرصة متاحة قبل أن تفوت ، وفى العمر بقية قبل أن تضيع : ﴿ مِّن قَبْلِ أن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاَ أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (١) .

اللهم تب علينا ، إنك أنت التواب الرحيم ، واغفر لنا إنك أنت العزيز الحكيم : ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ * رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) المنافقون : ١٠ ، ١١ .   (٢) آل عمران : ١٩٢ - ١٩٤ .

الفهرس

الصفحة

وجوب التوبة وفضلها

(١١ - ٣٩)

مقومات التوبة

(٤١ — ٨١)

الصفحة

تتمات التوبة وأحكامها

(٨٣ – ١٢٧)

الذنوب التى يتاب منها وأقسامها

(١٢٩ – ٣١٣)

الصفحة

ثمرات التوبة

(٢١٥ – ٢٤١)

الموانع من التوبة

(٢٤٣ – ٢٥٩)

الصفحة

البواعث على التوبة

(٢٦١ – ٣٠٤)

رقم الإيداع ٩٨/١٦٢٥
الترقيم الدولى : .I.S.B.N
977 - 225 - 116 - 7

مؤلفات فضيلة الدكتور : يوسف عبد الله القرضاوى

• فى الفقه وأصوله :

١ - الحلال والحرام فى الإسلام .
٢ - فتاوى معاصرة ج ١ .
٣ - فتاوى معاصرة ج ٢ .
٤ . تيسير الفقه : فقه الصيام
٥ - الاجتهاد فى الشريعة الإسلامية .
٦ - مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية
٧ - من فقه الدولة فى الإسلام .
٨ - نحو فقه ميسر معاصر .
٩ - الفتوى بين الانضباط والتسيب .
١٠ - عوامل السعة والمرونة فى الشريعة الإسلامية
١١ - الفقه الإسلامى بين الأصالة والتجديد
١٢ - الاجتهاد المعاصر بين الانضباط والانفراط

• فى الاقتصاد الإسلامى :

١ - فقه الزكاة (جزءان)
٢ - مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام .
٣ - بيع المرابحة للآمر بالشراء .
٤ - فوائد البنوك هى الربا الحرام
٥ - دور القيم والأخلاق فى الاقتصاد الإسلامى

• فى علوم القرآن والسنة :

١ - الصبر فى القرآن .
٢ - العقل والعلم فى القرآن .
٣ - كيف نتعامل مع القرآن العظيم ؟
٤ - كيف نتعامل مع السنة النبوية ؟
٥ - تفسير سورة الرعد .
٦ - المدخل لدراسة السنة
٧ - المنتقى من الترغيب والترهيب (جزءان)
٨ - السنة مصدرا للمعرفة والحضارة .

• عقائد الإسلام :

١ - وجود الله .
٢ - حقيقة التوحيد .

• فى فقه السلوك فى ضوء القرآن والسنة :

١ - الحياة الربانية والعلم .
٢ - النية والإخلاص .
٣ - التوكل .
٤ - التوبة .

• فى الدعوة والتربية :

١ - ثقافة الداعية .
٢ - التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا
٣ - الرسول والعلم .
٤ - الوقت فى حياة المسلم .
٥ - رسالة الأزهر بين الأمس واليوم والغد

• فى ترشيد الصحوة والحركة الإسلامية :

١ - الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربى والإسلامى .
٢ - أين الخلل .
٣ - أولويات الحركة الإسلامية فى المرحلة القادمة .
٤ - فى فقه الأولويات .
٥ - الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه .
٦ - الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
٧ - ملامح المجتمع المسلم الذى ننشده .
٨ - غير المسلمين فى المجتمع الإسلامى
٩ - شريعة الإسلام صالحة للتطبيق فى كل زمان ومكان .
١٠ - الأمة الإسلامية حقيقة لا وهم .
١١ - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف .
١٢ - الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم .

• سلسلة : حتمية الحل الإسلامى :

١ - الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا .
٢ - الحل الإسلامى فريضة وضرورة .
٣ - بينات الحل الإسلامى وشبهات العلمانيين والمتغربين .

• نحو وحدة فكرية للعاملين للإسلام :

١ - شمول الإسلام .
٢ - المرجعية العليا فى الإسلام للقرآن والسنة .
٣ - موقف الإسلام من الإلهام والكشف والرؤى ومن والتمائم الكهانة والرقى

• إسلاميات عامة :

١ - الإيمان والحياة .
٢ - العبادة فى الإسلام .
٣ - الخصائص العامة للإسلام .
٤ - مدخل لمعرفة الإسلام .
٥ - الإسلام حضارة الغد .
٦ - الناس والحق .
٧ - جيل النصر المنشود .
٨ - درس النكبة الثانية .
٩ - خطب الشيخ القرضاوى ج ١ .
١٠ - خطب الشيخ القرضاوى ج ٢ .
١١ - لقاءات ومحاورات حول قضايا الإسلام والعصر .
١٢ - قضايا معاصرة على بساط البحث .
١٣ - قطوف دانية من الكتاب والسنة .

• شخصيات إسلامية :

١ - الإمام الغزالى بين مادحيه وناقديه .
٢ - الشيخ الغزالى كما عرفته : رحلة نصف قرن .
٣ - نساء مؤمنات .

• فى الأدب والشعر :

١ - نفحات ولفحات - ديوان شعر .
٢ - المسلمون قادمون - ديوان شعر
٣ - يوسف الصديق - مسرحية شعرية .
٤ - عالم وطاغية - مسرحية تاريخية .

• رسائل ترشيد الصحوة :

١ - الدين فى عصر العلم .
٢ - الإسلام والفن .
٣ - النقاب للمرأة بين القول ببدعيته والقول بوجوبه .
٤ - مركز المرأة فى الحياة الإسلامية .
٥ - فتاوى للمرأة المسلمة .
٦ - جريمة الردة وعقوبة المرتد فى ضوء القرآن والسنة .
٧ - الأقليات الدينية والحل الإسلامى .
٨ - المبشرات بانتصار الإسلام .
٩ - مستقبل الأصولية الإسلامية .
١٠ - القدس .
١١ - ظاهرة الغلو فى التكفير .

• محاضرات الدكتور القرضاوى :

١ - لماذا الإسلام ؟
٢ - الإسلام الذى [illegible]
٣ - واجب الشباب [illegible]
٤ - مسلمة الغد .
٥ - الصحوة الإس[illegible] والمحاذير .
٦ - قيمة الإنسان [illegible] لام
٧ - لكى تنجح مؤ[illegible] المعاصر .
٨ - التربية عند الإ[illegible]
٩ - السنة والبدعة
١٠ - مع المصطفى فى بيته .

❊ ❊ ❊

